٨ قروش

كتابى

حلمى مراد

الشيطان ..على الأرض!

وكتب أخرى

كتابى

كتاب شهرى للقصة والثقافة الرفيعة
يصدر اول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الافريق

الكتاب الخامس عشر (السنة الثانية) : مايو ١٩٥٣
الاشتراكات و مجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
المكاتبات : ١٨ شارع العباسيين - مصر الجديدة
تليفون ٦٥٦٠٨

عزيزي القارئ ..

عندما ذكرت فى الاعلان الذى نشرته فى الصحف يوم صدور العدد الماضى، ان «كتابى» هو الكتاب الوحيد فى «العالم» الذى يقدم لك ملخصات اقدم الكتب العالمية واحدثها ، جنبا الى جنب .. ناقشنى قارىء صديق فى قولى هذا ، مرجحا ان اكون قد قصدت «بالعالم» ، العالم العربى وحده .. والا فانى اكون مغاليا ! – وربما لولم يتحرج هذا الصديق لأبدل لفظ «مغال» بلفظ « كاذب » مثلا !

لكن الواقع – ولا فخر – اننى لم اكن فى قولى ذاك مغاليا ولا كاذبا .. لا لانى قد اتيت بمالم يات به الاوائل ! – استغفر الله – وانما لسبب واحد بسيط : هو ان جميع المطبوعات الدورية التى تصدر فى بلاد العالم الغربى مثلا لا تنشر الا الجديد من الكتب التى تنشر عاما بعد عام ، لان كل ما سبق هذا الجديد قد نشر بالفعل من قبل بنفس اللغة ، وما تزال طبعاته تتكرر كلما نفدت ، فلا معنى لاعادة نشره فى مجلة او كتاب دورى .. فانت لا تجد مثلا مجلة انجليزية او فرنسية او المانية ، تنشر اليوم «جحيم دانتى» او «جمهورية افلاطون» ، لان جميع هذا التراث الخالد من الكتب قد ترجم منذ زمن بعيد الى تلك اللغات ، وما تزال طبعاته تتداول فى كل مكان ..

اما لغتنا العربية ، فما تزال من افقر لغات العالم فى هذا المجال ، ربما بسبب طغيان المطبوعات الهزلية والصحافة المصورة «المربحة» فيها ، على الصحافة الادبية «المرهقة» .. وانصراف اكثرية الناس عن هده الى تلك .. ثم عدم تشجيع السلطات والهيئات لهذه الاخيرة على الصمود فى وجه الاولى، تشجيعا لحركة الترجمة واخذا بناصر الادب والثقافة ..

وبسبب هذا النقص ، لم اكد أصدر «كتابى» – لسد ذلك الفراغ الكبير وملء هذا المكان الشاغر – حتى تلقفته انت هذا التلقف الكريم .. الذى كلما زدتنى منه ، مكنتنى من مضاعفة المجهود وتجنيد عقول وأقلام جديدة للتوسع فى متابعة الانتاج العالمى – الحديث والقديم معا – باستعداد أكبر ، واضخم ، وأكمل ..

ووفقا لهذا البرنامج الذى أخذت نفسى به منذ اليوم الاول ، يسرنى ان أقدم لك مثلا فى عدد هذا الشهر – فى كتاب واحد – كل هذه الشوامخ مجتمعة : «الشيطان على الارض» ، وهو احدث كتاب – واول «قصة» – للمفكر المعاصر المشهور «برتراند رسل» ، وقد اصدره منذ شهر واحد فقط ! ... الى جانب درة الادب التمثيلى الاغريقى «اوديب الملك» ، التى كتبها سوفوكل سنة ٤١ قبل الميلاد !.. الى جانب «فردوس دانتى» ، الذى كتبه دانتى فى اواخر القرن الثالث عشر .. الى جانب «فن الاستمتاع بالشيخوخة» الذى كتبه اندريه موروا سنة ١٩٤٠ .. الخ .. الخ

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

كتابى

مجموعة الاعداد السابقة

كتابى الاول :	«خطايا الحب»	وكتب اخرى	مارس ١٩٥٢
كتابى الثانى :	«قلب عذراء»	«	ابريل «
كتابى الثالث :	«الهاربة من الجنة»	«	مايو «
كتابى الرابع :	«حواء الجديدة»	«	يونية «
كتابى الخامس :	«أحدب نوتردام»	«	يولية «
كتابى السادس :	«جريمة حب»	«	اغسطس «
كتابى السابع :	«عشيقة نابليون»	«	سبتمبر «
كتابى الثامن :	«مذكرات كيوبيد»	«	اكتوبر «
كتابى التاسع :	«صنم تحطم»	«	نوفمبر «
كتابى العاشر :	«حديقة الله»	«	ديسمبر «
كتابى الحادى عشر :	«عندما تحقد المرأة»	«	يناير ١٩٥٣
كتابى الثانى عشر :	«لعبة الحب والموت»	«	فبراير «
كتابى الثالث عشر :	«توبة خاطئة»	«	مارس «
كتابى الرابع عشر :	«ايها الربيع ترفق»	«	ابريل «

◆ وتطلب من صاحب كتابى (١٨ شارع العباسيين مصر الجديدة) ، وثمن كل عدد ١٠ قروش خالص أجر البريد (المسجل) ، ماعدا العددين الثالث والسادس فثمن كل منهما عشرون قرشا (تحديدا للطلبات ، نظرا لقرب نفادهما وعدم امكان اعادة طبعهما) .. وماعدا العدد الثانى الذى نفد ، والعدد الثالث عشر (الممتاز) وثمنه بالبريد ١٢ قرشا

◆ ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER ، ولا تقبل العملة الاجنبية أو أذونات البريد الخارجية .

الاشتراكات

◆ وتشمل ضمنا الاعداد الممتازة ايضا - وترسل جميع الاعداد الى المشتركين : فى مصر والسودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة

◆ قيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٠٠ قرش ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٥٥ قرشا - فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والاردن .. الخ) ترسل القيمة بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد فى كل بلد MONEY ORDER وتحتسب القيمة بما يوازى ١١٠ قروش (عن سنة) و ٦٠ قرشا (عن نصف سنة) - أو تدفع قيمة الاشتراك الى مكاتب شركة فرج الله للمطبوعات فى بيروت أو للمكتبة العصرية بسوق السراى ببغداد

صبيحة..

قصة للمحرر

ممصرة عن «اكسيل مونتي»

٨

◆ **كانت** الصورة معتبرة من أروع صور المعرض جميعا ، بحيث كان يتزاحم أمامها دائما صف من المعجبين ، المأخوذين بجمالها ، وبحيث غدا اسم مبدعها الفنان الشاب يتردد على كل لسان ، وتفيض بالثناء عليه أنهار الصحف ..

وكانت الصورة تمثل حسناء رائعة قد اضطجعت على أريكة من الارجوان ، يتألق حولها لألاء من ربيع الحياة الدافىء ، وتحتفظ أطرافها الدقيقة بمسحة الطفولة الغضة ـ حتى لقد قدر النقاد سنها بما لا يزيد عن السادسة عشرة ! ـ ومن نظراتها وسماتها كان يبدو كأن غلالة من البراءة الساذجة تغلفها ، وتحميها !

ترى من تكون ، هذه العذراء المجهولة ذات المحيا النبيل ؟.. هل صحيح ما تهمس به الشائعات من أن «نموذج» تلك الصورة التى بهرت العيون ، فتاة تحمل اسما من أعرق الاسماء فى مصر ، ومن أكرم أسرات « جاردن ستى » ؟.. ثم هل صحيح انها قد أباحت للرسام الشاب أن يتخذها نموذجا لصورته ، بغير أن تكشف له حقيقة اسمها ؟

ترى من هى ؟

وقف الدكتور « بهجت » برهة أمام اللوحة المعروضة، يصغى لهمسات الاعجاب الصادرة من جماهير المتفرجين .. ثم أخذ طريقه وسط الزحام الشديد ميمما شطر باب الخروج ، وهناك وقف لحظات يرقب السيارات الفارهة وهى تنصرف واحدة وراء الاخرى منطلقة من أمام باب فندق الكونتيننتال ـ حيث أقيم المعرض ـ نحو الميدان والشوارع الكثيرة المتفرعة عنه .. ثم مضى الطبيب الى يمينه على الرصيف المتقطع ، متخطيا شوارع عدلى ، وعبد الخالق ثروت ، فقصر النيل ..

ودقت ساعة البريد القريبة سبع دقات ، فاستحث الدكتور بهجت خطاه مضاعفا من سرعته ـ فقد كانت ما تزال أمامه مرحلة طويلة من الطريق عليه أن يقطعها ـ ودخل فى شارع عابدين الضيق ، ثم انحرف يسارا الى زقاق أشد ضيقا ٠٠ فبدا كأنه قد خلف القاهرة الانيقة الوضاءة وراءه ، ودخل فى عالم آخر ! ٠٠ فالطرقات صارت أضيق وأشد اظلاما ، والمحال التجارية الكبرى تضاءلت الى حوانيت صغيرة متلاصقة ٠٠ والمشارب الفاخرة الزاخرة اختفت ولم تعد ترى غير المقاهى البلدية المتواضعة ٠٠ وأسراب الحسان الانيقات انقطعت ، لتملأ الطريق ذوات « الملاءات اللف » من بنات البلد ! ٠٠٠ الخ

وكانت الساعة قد قاربت الثامنة ـ موعد تألق أضواء الملاهى فى الشوارع الكبرى ، وازدحامها بعابريها المترفين من رواد المحال التجارية والمشارب ودور السينما ـ أما هنا ، فأكثر المارة عمال مكدودون عائدون الى بيوتهم بعد يوم شاق ٠٠ **ولا تخلو زاوية من زوايا الطريق من متسول مهلهل الثياب، ممدود الذراع، لا يحمل على صدره لوحة تصف كيف اصيب بالعمى ٠٠ ولا يردد لسانه عبارة واحدة من قصة بؤسه الاليمة ٠٠ فانه هنا فى غير حاجة الى شىء من ذلك ، لان أكثر المتصدقين عليه هم أنفسهم فقراء ، وبعضهم ذاق بنفسه مرارة الحرمان، وعرف لذعة الجوع!**

وضاقت الازقة أكثر فأكثر ، وازدادت قذارة ٠٠ صارت أكوام القمامة والمخلفات ترصع جانبى الطريق ، والوحل يتناثر من نعال المارة وأقدامهم ٠٠ لكن ذلك ليس بالامر الذى يؤبه له كثيرا حيث لا يعيش غير الفقراء !

❖

◆ **أخيرا** ولج الطبيب باب منزل عتيق يكاد ينهار ٠٠ وصعد يتحسس درجات السلم المعتمة المتآكلة ، حتى بلغ آخرها ٠٠

وهناك تلقته امرأة عجوز عند الباب هامسة فى انزعاج، وأصبعها على فمها :

ـ « صه !٠٠ صه !٠٠ انها نائمة »

ومضت تقص عليه فى صوت خفيض كيف جرت الامور فى البيت منذ أمس : ان « صبيحة » لم تهذ فى الليلة السابقة، وانما قضت سحابة النهار راقدة فى هدوء بلا حراك ٠٠ فيما عدا سؤالها عن الطفل بين الحين والآخر ، والحاحها فى أن تراه !٠٠ وقد غلبها النعاس منذ برهة والصغير بين ذراعيها ، فهل يريد « حضرة الدكتور » ايقاظها ؟

كلا ، لا حاجة الى ذلك ٠٠ وانما هو قد جلس فى صمت الى جوار العجوز على الكنبة ـ فقد صارا شبه صديقين فى الايام القليلة المنصرمة ٠٠ ومنها عرف قصة هذه الاسرة الحزينة : كانت تنحدر من احدى القرى الضائعة على ضفة ترعة المحمودية، حيث عسكر جيش « نابليون » يوما فخلف فى أعقابه جيلا من الصبايا الفاتنات ذوات الشعر الكستنائى والعيون الزرقاء ، اللواتى اختلطت فيهن شقرة (السين) بسمرة (النيل) !٠٠ وسحر الغرب بجاذبية الشرق ! وقد هجرت كثيرات منهن موطنهن ، الى القاهرة الخلابة ، سعيا وراء الارتزاق من الرسامين الباحثين عن أروع نماذج الجمال!٠٠ وحضرت أم صبيحة بابنتها ضمن من حضرن الى العاصمة منذ عامين، لكن المنية تخطفتها فماتت فى (قصر العينى) بعد شهور معدودة من قدومها ، تاركة الصبية اليتيمة فى رعاية جدتها العجوز ، تتلمسان رزقهما وحيدتين فى المدينة الصاخبة ٠٠

◆ وصارت صبيحة « نموذجا » ، كغيرها ٠٠ واختارها رسام شاب ليرسمها ، ويستوحى من جمالها فنا جميلا : رسم رأسها الفاتن ، وصدرها الناهد الصغير ٠٠ ثم سقط ثوبها الممزق عن جسدها الناضج ، فرسم حسنها العذرى فى ربيعه المتفتح ، وسكينة نفسها البريئة وما تزال حواسها نائمة لم تتفتح !

كانت أشبه بحورية الاساطير « سايك » ، التى لم تذق شفتاها بعد طعم القبلة من فم « ايروس » ٠٠ أو أشبه بحورية الآلهة « ديانا » ، التى تعبت من الصيد فى الغابة فخلعت ازارها كى تستحم فى ماء البحيرة ، بعيدا عن عيون البشر الفضوليين ٠٠ أو لعلها كانت شبيهة « درياد » ، الفاتنة التى تنام على فراش من الزهر !

وانتهى الرسام من الصورة ٠٠ فدخل المجد والشهرة مرسمه الناشىء ، وخرجت منه الصبية ٠٠ محطمة !

لكنهما افترقا صديقين ٠٠ ومضت هى لتقف نموذجا لرسام آخر ٠٠ ثم تنقلت من مرسم الى مرسم ٠٠ ولم تعد براءتها تحميها من أذرع الذئاب !

وذات يوم ، مثلت الجدة العجوز فى انكسار ومذلة أمام باب الرسام « الشـــهير » ـ وكان قد انتقل الى مرسم فاخر يتفق ومقتضيات المجد الذى واتاه ! ـ فأنهت اليه وهى تنتحب نبأ النكبة التى ألمت بها : ان صبيحة توشك أن تصير ٠٠ أما !

آه ، نعم ٠٠ انه ليذكر الفتاة الحسناء جيدا ٠٠ ودس فى يد الجدة الباكية بضع ورقات مالية ، واعدا بأن يحاول مساعدتها جهد طاقته !

ووفى بوعده ٠٠ ففى نفس الليلة اقترح على اخـوانه أن يساهموا فى التبرع لطفل « صبيحة » ، فاستجابوا لطلبه ٠٠ وأفرغ بعضهم كل ما فى جعبته فى الطربوش الذى دار به أحدهم على الحاضرين ، آسفين على حظ الفتاة التعس الذى ساق اليها الكارثة ، متسائلين عما هى خليقة أن تصير اليه من حال بعد « الوضع » !٠٠ انها قد تستمر فى عملها « كنموذج » ، لكنها لن تبقى النموذج البرىء الساذج الذى كانته من قبل ٠٠ فان أهل الفن متفقون على أن خطوط أرداف العذراء الدقيقـــة لن تحتمل التجربة ، وان نضارة البكارة قد ضاعت منهـــا ، الى

الابد !.. ولعل خير ما يرجى للمسكينة الآن أن تعود الى الريف الذى انحدرت منه ، حيث يكفيها المبلغ الذى جمع كى تعيش به عاما كاملا، فضلا عما قد يجود به الطبيب الطيب القلب « الدكتور بهجت » ، نصير الفقراء والمنكودين ، وما هو خليق أن يتطوع به من رعاية « للوالدة » وعناية بأمرها ..

وصدق حدسهم .. فقد رق الطبيب لحالها ، وأكثر من عيادتها فى بيتها ابان فترة الخطر ، فى الايام والليالى التى قضتها فريسة للحمى والهذيان ، اللذين لم تخف وطأتهما الا الليلة .. أول ليلة تقضيها التعسة فى نوم هادىء ..

كلا .. انه بالتأكيد لن يوقظها. وانما هو قد جلس فى سكون الى جوار العجوز ، مستغرقا فى التفكير : كان يفكر فى قصة صبيحة . انها ليست جديدة بالنسبة اليه ، فلقد طالما مثلت على مسرح الواقع فى أوساط الطبقات الفقيرة .. وهو قد طالما قرأها فى الكتب .. وليخيل اليه ان ما شهده فى الحياة كان أكثر « بساطة » وأدعى للاسى مما قرأه فى الكتب والقصص.. فماكان فى قصة صبيحة شىء مثير أو خارق للمألوف : لا افراط فى الحزن واليأس .. ولا اتهامات .. أو تهديد بالانتقام .. ولا محاولة انتحار ! .. وانما كل شىء قد جرى فى بساطة كما يجرى فى الحياة كل يوم. وحين وقفت الجدة العجوز امام الشاب المسؤول عن سقطة حفيدتها ، لم تقف متوعدة ، مرفوعة الرأس ، تشتعل عيناها بشرر الغضب !.. وانما وقفت فى مذلة وانكسار ، تبكى عارها بدمع سخين .. وحين تركته ، بعد أن نفحها بهبته الضئيلة ، تضرعت الى الله أن يكلأه برعايته ويثيبه جزاء « احسانه » !

وقد كان للعجوز عذرها .. فهى لم تقو على رفع رأسها لان الحياة قد أثقلت كاهلها ، وأحنت ظهرها تحت وقر متاعب الكد اليومى من أجل العيش .. وعيناها لم تلتمعا بشرر الغضب

والتهديد ، من فرط اعتيادها مذلة التسول فى طلب القوت ٠٠ وهى لم تعرف كيف تتهم ، لانها كانت دائما هدفا للاتهام ٠ وهل أفظع من الفقر تهمة للفقير !؟٠٠ ولم تعرف كيف تطالب بالعدالة لان حياتها كانت سلسلة من المظالم الدائمة ٠٠ ان طريقها كان دائما محفوفا بالظلمات والبؤس ، فلم تر شيئا يذكر من ضياء الشمس ونور النهار ٠٠ حتى لقد صارت أفكارها المختمرة وراء جبينها المتغضن أشد عتمة من ليل الشتاء ٠ باتت أشبه بالحيوان الذى أنهكه حمل الاثقال فناءت بها كتفاه ، وخارت قواه ٠٠

أما « الانسان » المسؤول عن المأساة ، فلعله كان أقل اثما من سواه ! لقد فعل كل ما بوسعه ليكفر عن خطيئة هى فى نظره تافهة ضئيلة ٠٠ أو لم يعد بأن يكفل أسباب العيش عاما كاملا لطفل يقول انه ليس منه ؟! ماذا اذن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك ؟٠٠ ثم ، هل هو المسؤول حقا عن كل شىء ؟ وهل هناك « عذراء » واحدة بين فتيات هذه الفئة التى تعرض أجسامها للرسامين ؟

واحتملت صبيحة عارها ، كما احتملت من قبل فقرها ، فى غير مرارة ولا يأس ٠٠ كانت أشجانها تغلبها أحيانا على نفسها ، فتبكى ٠٠ لكنها لم تنطق يوما بكلمة اتهام لاحد ، لا لنفسها ولا لذاك الذى تسبب فيما أصابها ، وانما استسلمت لمصيرها استسلاما ذليلا ٠٠

وكتاب القصص يزعمون انه من السهل أن تلقى الفتاة المخلوعة بنفسها فى النيل ، أو تتناول جرعة من السم ، لكن الواقع خلاف ذلك ٠٠ فالفرار من الحياة يحتاج الى شجاعة خاصة ، يعز وجودها فى الطبقة المتواضعة التى نبتت فيها صبيحة ، خاوية الراس من اى تعليم او امعان فكر ٠٠!

❖

◆ وسقط ضياء مصباح البترول على الفراش القذر، فنظر الطبيب الى مريضته الملقاة عليه فى استكانة واستسلام ·· انها هى بعينها، النموذج الذى أوحى للرسام بلوحته الرائعة ·· فيما عدا هذا الشحوب الخفيف الذى ألم بمحياها · ولكن لعله ليس شحوبا طارئا · لعله كان يكسو محياها منذ البداية ولكن أضواء الاستديو الباهرة قد حجبته عن عينى الرسام ·· أو لعل هاتين الحلقتين السوداوين المحيطتين بعينيها كانتا غير جديرتين بأن تنقلا الى الصورة الانيقة التى سوف تحتل مكانا بارزا فى أحد الصالونات الفاخرة ·· فانهما ـ وذلك الشحوب ـ رموز للفقر ، والجوع !

أما فيما عدا ذلك فقد كان الاصل مطابقا للصورة تماما ! نفس الكمال والجمال الخارق فى كل معالم جسمها وقسمات وجهها ·· نفس الرأس الابى « النبيل » ·· ونفس استدارة الخدين ونعومتهما ، التى تذكر بالطفولة والسماحة ، والبراءة الكاملة ·· ونفس خصلات الشعر المتماوجة فوق الحاجبين الجميلين ·· نعم ، لقد صدقت الشائعات : ان الفتاة تحمل طابع النبل على جبينها ، لا نبل حسان « جاردن ستى » العريقات فحسب ، بل نبل وقسمات « فينوس » ربة الجمال ذاتها !

وكان الظلام ما يزال يغلب على جو الغرفة الحقيرة ، فجعل الطبيب يرنو للام النائمة فى سلام وسكينة، وذراعاها مضمومتان على وليدها الغالى ، برغم كل شىء ! ·· ثم نقل بصره الى الجدة

العجوز ، الجالسة بجواره، تتلو الاوراد وتعبث بحبات مسبحتها ٠٠ فانثال الى ذهنه خاطر كئيب : ما هو المستقبل الذى ينتظر هذه المخلوقات الثلاثة ، وما أوحش الطريق الشائك الشاق الذى يمتد أمامهم !

❖

◆ **وابلت** صبيحة من نفاسها ، أعانها شبابها الصابر ٠٠ لكنها هجرت عملها كنموذج للرسامين ، سيما وقد عاقها طفلها الرضيع الذى لم تجد سبيلا الى البعد عنه ٠٠ **وحين اقترح عليها «العبقرى» الذى أغواها أن ترسل الطفل الى أحد ملاجىء اللقطاء، لم تجد ـ بوحى من فطرتها السليمة ـ جوابا ابلغ فى الرد عليه من أن تشدد قبضة ذراعيها على جسد الصغير المطوى فى لفائفه !**

ولم تفكر التعسة طبعا في السعى الى زواج ، فان الرجال فى طبقتها من «الشهامة» بحيث لا يغفرون زلة لعذراء .. وخاصة اذا أنجبت الزلة طفلا !

وهكذا خرجت صبيحة الى الطريق ، والطفل على كتفيها ، تبحث لنفسها عن عمل ، أى عمل ، بشرط أن يكون شريفا !٠٠ وكانت مطالبها متواضعة ، ولكن فرصتها كانت أقل: فانها حسناء، وفقيرة ٠٠ وبعض الرجال لا يأنف من استغلال حاجة المحتاجة !

وكان طبيعيا ألا تجد العمل « الشريف » الذى تنشده ٠٠ فلجأت جدتها الى غسل الثياب فى بيوت القوم ، كى تقيم أود نفسها وحفيدتها ٠٠ لكنها لم تقو طويلا على العمل الشاق ، فسقطت صريعة المرض ٠ وصار على صبيحة أن تكسب قوتهما بنفسها ، سيما بعد أن فرغ ما كان فى جعبتهما من مال قليل مدخر ، فارتهنتا بقيـــة ما تملكان من ثياب شتوية ، تاركتين للشتاء التالى أن يتكفل باصلاح الحال !

◆ أخيرا ، طرقت صبيحة باب الخدمة فى البيوت ٠٠ لكن جمالها وقف حائلا دون ترفق الطامعين فيها من أسيادها ٠٠ والمجتمع لم يكافئها على ترفعها عن الوحل ، فان الفضيلة تجوع وتتعرى فى الاحياء الفقيرة !

وهكذا انتهى أمرها، كماانتهى بكثيرات غيرها ، الى بيع أوراق « اليانصيب »٠٠ صارت تجوب الطرقات طيلة النهار ووليدها الرضيع على كتفها ٠٠ حتى تخور قواها ، ويقعدها التعب والاعياء عن المسير ، فتستريح على أحد الارصفة ، ترقب مواكب الترف والبهجة رائحة غادية أمامها ٠٠

ومنذ أيام ، رأيتها فى ميدان توفيق تعرض بضاعتها على المارة، وتكشف لهم قوائم النمر الرابحة ٠٠ ان جمالها قد ذبل ، محته الفاقة الملحة التى لا ترحم !٠٠ ومحياها بات يحمل آيات العوز الممض والعيش العسير ٠٠ وخط الحزن على جبينها الذى «كان» مضيئا ، أخاديد عميقة من الغضون والتجاعيد٠٠ لكن طابع النبل ما يزال مقيما فى وجهها ، وفى نظراتها الساهمة ٠٠

فيا أيها المارة بها فى طريق الحياة ، احنوا الرؤوس اجلالا للفضيلة التى ترتدى الاسمال ، فهى احق بالاحترام من الفضيلة التى تقيم فى القصور ٠٠!

واذا لمحتم على خد الضحية التعسة دمعة تنحدر ٠٠ فلتصلوا من اجلها !

◆ من أعماق مقعده الطويل المريح ارتفع صـوت الاميرال « دى لافاليه » يقول ، وعلى فمه المتغضن ابتسامته الساخـرة المعهودة : « اليكم قصة مغامرة فريدة فى نوعها ، من مغامرات شبابى ٠٠ »

❖

« كنت فى الثلاثين ، ضابطا فى البحرية برتبـة « ملازم أول » ، حين وقع على الاختيار للسفر الى أواسط الهند على رأس بعثة « فلكية » ، مزودا من قبل الحكومة الانجليزية بكل ماييسر لى أداء مهمتى على خير وجه ٠٠ ولو سردت كافة تفصيلات رحلتى تلك لملأت عشرة مجلدات : **فقد مررت بأقاليم ومناطق رائعـة ، واستقبلنى أمراء مترفون ، واقيمت احتفاء بى حفلات باذخة ٠٠ فقضيت شهرين وكأنى أتجول فى مملكة سحرية ، فوق ظهـور أفيال خيالية ، خلال الغابات والجبال والمدن والاطلال ٠٠ أو كأنما كنت أمشى فى حلم وأنا يقظان ٠٠!**

« وقبيل نهاية رحلتى بلغت بلدة «جانهار» ، التى كانت من أغنى مدن الهند الوسطى ثم أخنى عليها الدهر ٠ وتقـع فى وسط واد عميق ، على ضفاف بحيرة تحيط بها طائفة من المعابد القديمة تستحم ظلال أبراجها العالية فى المياه الساكنة ٠٠ وكان يحكم المدينة أمير طاغية فاحش الثراء ، كريم وقاس معا ، يدعى

« راجا مادان » ٠٠ فلم أكد أقترب من أبوابها حتى وجدت فى انتظارى فيلا مهيأ بمظلة فاخرة ورياش ووسائد ناعمة لنقلى الى قصر الامير ، وثلة من حرس الشرف تتقدم موكبى باحتفال عظيم ٠٠ وهناك أدخلت الى قاعة فسيحة بالغة الروعة ، قد اصطف على جانبيها جنود الامير ببشرتهم البرونزية وثيابهم المزركشة بالقصب والاحجار الكريمة ٠٠ ورأيت فى أقصى المكان نصف دائرة براقة ، أشبه بقرص الشمس الغاربة ، فوق مقعد مستطيل بلا ظهر ، كمقاعد الحدائق العامة ٠٠ فلما اقتربت وجدت أنه « المهراجا » ، ينتظرنى بلا حراك ، فى ثيابه الارجوانية المحلاة « بثروة » من الاحجار الماسية ، تتوجها وسط جبينه ماسة «دلهى» المشهورة التى توارثها أمراء أسرة « ماندور » جيلا بعد جيل ٠٠!

« وكان الامير شابا فى نحو الخامسة والعشرين ، أسمر اللون ، ذا عينين واسعتين تشعان غموضا ، ولحية كثيفة ، وأسنان بيضاء حادة تبدو حين يبتسم ٠٠ فلما دنوت من «عرشه» نهض واقفا ومد يده على الطريقة الانجليزية ثم أجلسنى الى جواره ٠٠ واقترح فورا أن تقام لى فى الغد حفلة لصيد النمور ، ثم قادنى بعد حين الى حلبة الملاكمة فى القصر ٠٠ فلم **نكد نجلس حتى برز رجلان عاريان يضعان أيديهما داخل قبضات حديدية مدببة ، جعلا يتلاكمان بها ويمزقان لحم بعضهما البعض حتى كست الدماء جسميهما ٠٠ وانتهت « المباراة » بتحطيم فك أحدهما ، وقطع أذن الآخر فى ثلاثة مواضع !٠٠ كل هذا والامير يراقب المعركة بلذة وحشية وغبطة ضارية ، وصيحات تشجيع حماسية** ، فلما انتهت التفت الى مستطلعا رأيى ، فأعربت له — كاذبا — عن اعجابى الشديد ٠٠ واذ ذاك أمر باقتيادى الى قصر الملذات «كوشى محل» حيث تقرر أن أقيم ٠٠

❖

« وكان القصر تحفة من تحف فن المعمار الشرقى ، مقاما فى أقصى حدائق الامير الشاسعة ، تحفل جدرانه بأبدع النقوش الفنية والتماثيل المنحوتة التى تمثل مختلف عادات الهند وتقاليدها ، وتضىء حجراته نوافذ أشبه بأقواس من « الدانتلا » تطل على الرياض الغناء ، ويكسو أرضها مرمر مزركش براق ! وقبل أن أستقر فى الجناح الذى أعد لى ، أقبل « هاريبادا » تشريفاتى الامير يعلن قدوم مولاه لزيارتى ، وأقبل المهراجا يرفل فى حلله القشيبة فقضى معى وقتا يثرثر فى ألف موضوع وموضوع .. ثم أخذنى الى جولة فى مستعمرة القردة التى أقامها فى ركن من الحديقة ! وفى اليوم التالى حضرت حفلة صيد النمور التى وعدنى بها الامير ، والتى تلتها عشرون حفلة صيد أخرى تنوعت فيها الضحايا من الحيوانات : فشملت الدببة والفيلة والفهود والتماسيح .. الخ .. حتى سئمت منظر هذا الفيضان من الدماء المراقة ، واعترانى الاشمئزاز من تلك الرياضة السخيفة ..

« وأخيرا .. هدأت « أريحية » الامير واستجاب لرجائى فترك لى وقتا أعكف فيه على مهمتى التى أوفدت من أجلها ، لكنه استعاض عن حفلاته ورياضاته بسيل من الهدايا الثمينة التى أغرقنى بها تباعا بواسطة رسوله هاريبادا ، وألوان فاخرة من أطعمة المائدة الملكية أخذ يرسلها الى فى كل وجبة .. أما فى المساء فلم تنقطع سهراته الراقصة الصاخبة التى كانما أراد بها أن يرينى أروع مافى بلاده من صور الفتنة والسحر والبهاء !

« وذات ليلة ..

على أثر عودتى من نزهة قصيرة لقيت هاريبادا عند باب القصر ، فأسر الى بصوت جاد ولهجة ذات معنى أن « هدية » من مولاه تنتظرنى فى جناحى الخاص . ورجانى أن أقبل اعتذار

الامير عن عدم موافاته اياى من قبيل بما طال حرمانى منه ! وعلى أثر هذه الملحوظة الغامضة انحنى الرسول فى أدب وانسحب ..

« فلما دخلت وجدت ست «بنات» تتراوح اعمارهن بين الثامنة والعاشرة ، واقفات لصق الحائط جنبا الى جنب بلا حراك !.. فادركت مغزى ارسال هذه « الفرقة » من الحريم الى، وفطنت الى أنه اختارهن صغيرات أحسن امعانا منه فى «الكرم» ، فكلما كانت الفاكهة ناقصة النضج كلما زادت قيمتها ..!

« ولبثت برهة حائرا ، مضطربا ، خجلا فى حضرة الصبايا .. وقد جعلن ينظرن الى بأعينهن النجلاء المكتئبة ، التى كأنما حدست ما قد أطلب من صاحباتها !.. ولم تواتنى بديهتى بكلمة أقولها لهن ، ففكرت أن أرسلهن من حيث أتين .. لولا أن تنبهت الى مغبة رفض هدية الامير !.. وطالت حيرتى ، والصبيات جامدات أمامى كالتماثيل ، ينتظرن أوامرى ويتطلعن الى بأعين تحاول قراءة أفكارى فى عينى !.. وأخيرا خجلت من موقفى ، فسألت كبراهن عن .. اسمها ؟

– «شالى» ..

« وكانت «شالى» آية فى الجمال ، ببشرتها العاجية الناعمة وقسماتها الفاتنة .. فعدت أسألها بدافع الفضول والرغبة فى احراجها : « ماذا أتيت تفعلين هنا ؟ »

– جئت لاكون تحت تصرف سيدى ورهن مشيئته ..

« وكان صوتها موسيقيا ناعما .. فكررت السؤال على صغراهن ، فكررت نفس الجواب ! وكانت الصغيرة أشبه بفارة وديعة جذابة ، فأخذتها بين ذراعى وقبلتها .. واذ ذاك أبدت الباقيات حركة التأهب للانسحاب ، حاسبات انى قد اخترت من أريدها وقضى الامر !.. لكننى أمرتهن بالبقاء ، وجلست على الطريقة الهندية وأجلستهن حولى . ثم شرعت أقص عليهن قصصا خرافية مسلية .. أصغين اليها بانتباه وانفعال ، وقد

نسين الغرض الذى أوفدن من أجله !٠٠ وحين فرغت من قصتى ناديت خادمى الخاص وأوصيته باحضار بعض الحلوى والفطائر لهن ، فأكلن منها حتى خشيت عليهن من الضرر ٠٠

« ثم بدأت أستطيب صحبة «زوجاتى» الصغيرات ، فنظمت لهن بعض الالعاب الطريفة التى حازت اعجابهن وانتزعت منهن الضحكات الصبيانية المرحة ، الفياضة بالبهجـة ، حتى خلت الحياة قد دبت فى القصر الساكن الوقور ٠٠ **وحين راود النعاس أجفانهن ، صحبتهن الى الغرف النسائية الملحقة بجناحى ، حيث عهدت بأمرهن الى أربع خادمات كان الامير قد أرسلهن خصيصا للعناية بـ «سلطاناتى» الصغيرات اذا لزم الامر !**

❖

« وبقيت أسبوعا على هـذه الحال ، أقوم بدور الاب ـ لا الزوج ـ لتلك الدمى الحية اللطيفة ، وألاعبهن كل الالعاب التى تناسب سنهن !٠٠ فقد كان منظرهن وهن يمرحن فى أرجاء القصر بثيابهن الحريرية الفاخرة المطرزة بالذهب والفضـة ، يدخل البهجة الى قلبى ٠٠ وكانت «شالى» أحبهن الى نفسى ٠ ولحظت أنها بدورها أحبتنى حبـا يشوبه الكثير من الخجـل والتحفظ ، ويفيض بالرقه والعاطفـة !٠٠ وبينما استمرت الاخريات يلعبن ويمرحن كالقطط الصغيرة ، بدأت «شالى» تلازمنى كظلى ، فكنا نقضى ساعات ممتعة معا نتجول فى الحدائق ونلاعب القردة والنسانيس ٠٠ ثم نعود متعبين فتستلقى الصبية على ظهرها فوق ركبتى وتظل على هذا الوضع الجميل الخلاب ساكنة كالتمثال ، تفكر ٠٠ وتحلم !

« وفى الامسيات التى كان الامير يعفينى فيها من سهراته الصاخبة ، كنت أستدعى «شالى» أحيانا من غرفتهـا الملحقة بجناحى ، كى نقضى بعض الوقت فى شرفتى المطلة عـلى بحيرة

«فيهارا» ٠٠ وذات ليلة ، جلسنا فى الشرفة صـامتين نرقب القمر ينزلق على صفحة السماء ، ملقيا وشاحا من الفضـة الرجراجة على مياه البحيرة ٠٠ وعلى صف المعابد المتراصة على الشاطىء بقبابها وزخارفها المقوسة المتدلية فوق الماء ٠٠ **فتناولت بين يدى رأس رفيقتى الصغيرة وطبعت قبلة طويلة ناعمة على جبينها الاملس ، وعينيها الرائعتين المفعمتين بأسرار تلك البلاد السحرية القديمة وخرافاتها الغامضة ٠٠ ثم تدحرجت بفمى الى شفتيها الساكنتين ، اللتين استجابتا لقبلاتى ٠٠ فتملكتنى نشوة قوية طاغية ، واحساس بأنى قد قهرت فى شخص الصبية جنسا بأسره من البشر ، جنسا عريقا تدين له بقية الاجناس بأصلها ومنبتها ٠٠!**

❖

« واستمر الامير يمطرنى بهداياه ٠٠ وذات يوم أرسل الى صندوقا صغيرا من الخشب مغطى كله بأصداف البحر الجميلة ، من النوع الذى يكثر فى الموانىء الاوربية ويبـاع فيها بأزهد الأثمان ، لكنه كان أول صندوق من نوعه يدخل الهند ٠٠ فخدع الامير فى قيمته واعتبره تحفة جديرة بالاهداء !

« وأعجبت به (شـالى) من أول نظرة اعجابا صبيانيا شديدا ، فجعلت تتأمله طويلا وهو موضوع فوق احدى المناضد، وتستأذننى من وقت لآخر فى أن « تلمسه » ٠٠ وحين آذن لها ترفع غطاءه ثم تغلقه فى حذر بالغ ، وتمضى تتحسس أصدافه بأناملها فى رقة وحرص ، وعلى وجهها دلائل الفرحة والاعجاب !

« وانتهيت أخيرا من مهمتى العلمية فى الهنـد ، وحان موعد سفرى ٠٠ فأقام لى الامير حفلات توديع أروع وأكثر بذخا من حفلات الاستقبال! وعندما جاء دور توديعى لصديقتى «شالى» كان الموقف مؤثرا ٠٠ **اخذت الصبية تنتحب وهى مستلقية الى**

جوارى ، ورأسها فوق صدرى ، وبدنها كله ينتفض ٠٠ ثم بدأت تشهق بحرقة موجعة لم تفلح فى اطفائها قبلاتى ٠٠ بل زادتها ضراما !٠٠ وفى غمرة حيرتى ، خطر لى بغتة خاطر ، فنهضت الى حقيبتى أخرج منها الصندوق الصدفى وأضعه بين يديها قائلا : « خذيه هدية وتذكارا منى » ٠٠ فابتسمت الساذجة بالرغم منها ، وأشرق وجهها بذلك الفرح الباطنى الذى يفيض من أعماق النفس حين تتحقق فجأة الاحلام المستحيلة ! ثم قبلتنى بحرارة ٠٠ وان لم يعزها ذلك عن فراقى ، اذ لم تكد تحين لحظة رحيلى حتى عادت تبكى بكاء مرا !٠٠ لكنى تحاملت على قلبى فودعتها ثم ودعت بقية « زوجاتى » بقبلات « أبوية » وبعض الحلوى ، ومضيت فى طريقى الى بلادى ٠٠

❖

◆ « **ومر** عامان ٠٠ طرأ بعدهما عمل اقتضى عودتى الى الهند ، فلما أتممت مهمتى الثانية فى «بومباى» فكرت فى أن أعرج على «جانهار» لرؤية صديقى مهراجا مادان وصديقتى « شالى » ، قبل مغادرتى البلاد ٠٠

« واستقبلنى الامير بمظاهراته المعتادة وترحيبه الودى ، فلما تركنى فى المساء لاستريح سارعت باستدعاء « هاريبادا » وسألته عن شالى ٠٠ فبدا الاسى فى عينيه ، وأجاب فى حيرة واضطراب : «الافضل ألا نتحدث فى شأنها ! »

ـ ولم ؟ لقد كانت بنية ظريفة ٠٠

ـ لكن مسلكها ساء فيما بعد !

ـ من ؟ شالى ؟٠٠ كيف ؟

ـ ارتكبت أمرا شائنا جدا ياسيدى ٠٠

ـ وما هو ؟

ـ سرقت ٠٠ شيئا يخصك !

- لست أفهم ٠٠ ما الذى سرقته ؟

- الصندوق الصدفى الذى أهداك اياه الامير ٠٠ وجدناه معها بعد رحيلك !

- لكنى أهديتها اياه بنفسى !

« بوغت الهندى بجوابى ، فنظر الى نظرة تمتزج فيها الحسرة بالخجل٠٠ثم استطرد : «قالت المسكينة ذلك ، وأقسمت عليه أغلظ الايمان ٠٠ لكن أحدا لم يصدق أنك تفرط فى هدية الامير لجارية من جواريه ! ومن ثم أمر المهراجا بمعاقبتها على سرقتها ٠٠ »

- وبم عاقبها ؟

- أوثق رباطها داخل كيس مثقل بالحديد وقذفوا بها الى البحيرة من هذه النافذة ، نافذة الغرفة التى ارتكبت فيها جريمتها !

« ألم بى حزن مفجع ٠٠ فأشرت الى هاريبادا بالانصراف، كى لايرى دموعى !٠٠ **وقضيت تلك الليلة فى الشرفة المطلة على البحيرة - حيث طالما أجلست الصغيرة على ركبتى - أحاول أن أتصور جسدها الجميل وقد أدركه الانحلال ، داخل كيس مغلق فى أعماق المياه الساكنة السوداء التى أمامى !**

« وفى صباح اليوم التالى غادرت البلاد ، برغم الحاح المهراجا على فى البقاء ، ورجائه الحار المتكرر ٠٠

« ورغم انقضاء عمر طويل منذ ذلك الحادث الذى وقع فى صدر شبابى ، فانى مازلت أحس حتى اليوم اننى لم أحب فى حياتى امرأة كما أحببت ٠٠ شالى !

يحكى عن العظماء ..

◆ ان حياة الشاعر الانجليزى الشهير **اللورد بيرون** كانت أسطورة من أساطير الانانية والزهو ، من بدايتها الى نهايتها .. فقد كان مزهوا بعبقريته ، مزهوا بأرستقراطيته ، مزهوا برذائله !.. بل انه كان مزهوا على الاخص بيديه الجميلتين ، وببراعته فى الفروسية !

◆ وان **نابليون** كان مزهوا أكثر الزهو بقدميه الصغيرتين !

◆ وان الموسيقى الالمانى «**موتسارت**» ـ موزار ـ كان مزهوا بشعره الاشقر الذى كان أبرز معالم هيئته فى شبابه ، فكان يتركه يطول حتى يتدلى بين كتفيه ، ثم يربطه بشريط ملون عند العنق .

◆ وان الفيلسوف «**سبينوزا**» كان يجد متعة خاصة فى اطلاق العناكب لتقتتل مع بعضها البعض وكان يضحك ويصخب بصوت عال وهو يرقب معركة الحشرات !

◆ وان المفكر الفيلسوف الدكتور **صمويل جونسون** كان شغوفا بقطته الصغيرة الى درجة كان معها يذهب بنفسه الى سوق السمك ليشترى لها طعامها من «المحار» ـ الجندفلى ـ لان خادمه كان يأنف من هذه المهمة !

◆ وان «**جوته**» كان يأوى فى بيته ثعبانا أليفا ، لكنه كان يكره الكلاب !

◆ وان السير **والتر سكوت** كتب أعظم قصصه ومؤلفاته قبل الافطار !

◆ وان **بيتهوفن** كان شغوفا « بطرطشة » الماء البارد فى غرفة نومه طيلة النهار ، حتى كانت المياه تكسو الارض و «تنشع» من السقف الى الدور الاسفل !.. كما كان شغوفا بأن يخوض الحقول المبللة بالماء فى المساء وفى الصباح الباكر ، وهو حافى القدمين !

الخالدون

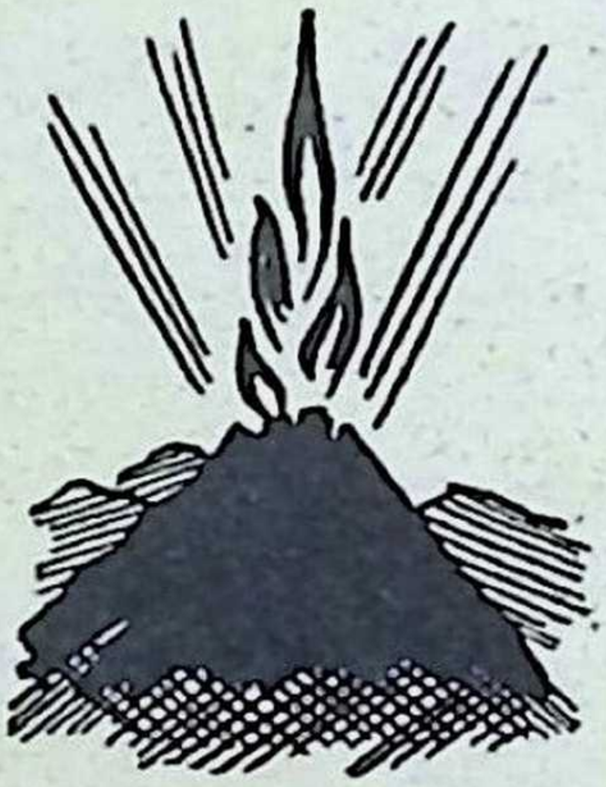

عظماء .. فى غير السياسة

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب على التوالى قصص حياة : ((ديفاليرا)) .. و ((غاريبالدى)) .. و((لويس باستير)) .. و((اميل زولا)) .. و((ماركونى)) .. و((تشايكوفسكى)) .. ((فمصطفى كمال)) .. ثم ((شوبان)) .. وهم من هم من العظماء فى السياسة، والطب ، والادب ، والاختراع .. والموسيقى .. الخ .. اما من الشخصيات النسائية فقد قرأت معى سيرة حياة الملاك الابيض ((فلورنس نايتنجيل)) ، ثم سيرة نابغة العلم والانسانية ((مدام كورى))

واليوم اقدم لك فيما يلى قصة حياة القصاص الاعظم ((جى دى موباسان)) مؤلف قصة (شالى) التى قرأتها فى الصفحات السابقة ..

وفى الاعداد التالية اعرفك باذن الله بهؤلاء الذين تشتاق الى معرفتهم منذ بعيد : لورد بيرون ، شيللى ، براوننج .. بيتهوفن ، شوبرت .. فولتير ، شوبنهاور ، نيتشه ، ارسطو .. بوذا ، كونفشيوس .. داروين ، اينشتين .. شكسبير ، جوته ، اديسون ، فورد .. بلزاك ، ديكنز ، والتر سكوت ، ديماس، دستويفسكى .. كولمبوس ، الاسكندر المقدونى ، بطرس الاكبر ، فردريك ، بسمارك .. مايكل انجلو ، رفاييل ، ليوناردو دى فنشى ، وغيرهم

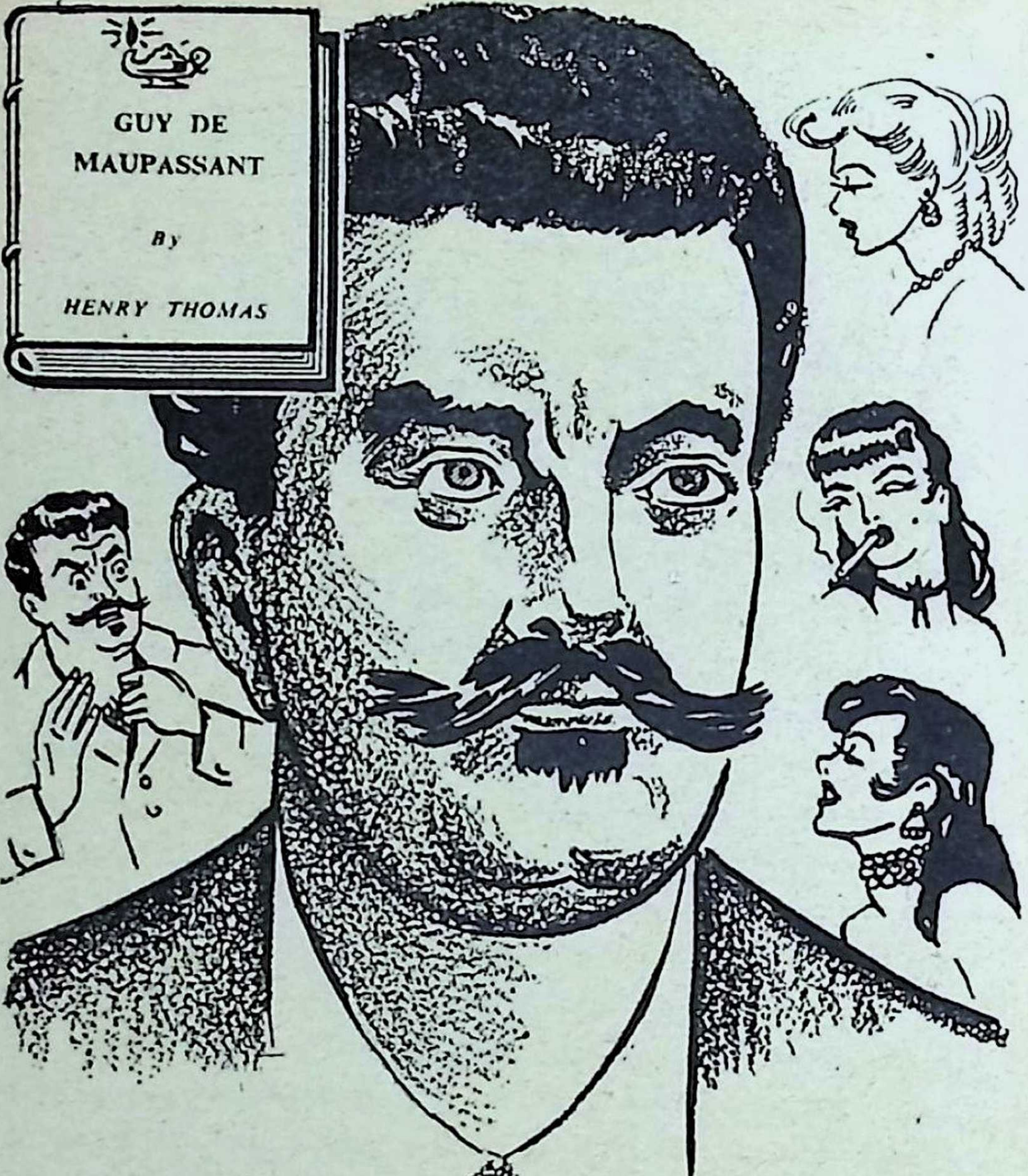

جي دي

موپاسان

أعظم كاتب للقصة القصيرة أنجبه العالم !

حياته .. وقصصه .. ونهايته

- ١ -

.. ومن لم يسمع باسم موباسان ؟

ومن من قراء العربية لم يقرأ لموباسان ؟

ولكن هل قرأت شيئاً عنه ، عن حياته ؟ هل قرات قصة موباسان المخلوق ، بعد ان قرات قصص موباسان الخالق ؟ ..

(ومنها قصته «شالى» التى طالعتها فى الصفحات السابقة ؟)

◆ ولد «جى دى موباسان» فى قصر (ميرونمينيل) على شاطىء نورماندیا ، من اب من سلالة إرستقراطية اصابها الافلاس ، وام من طبقة العامة ذوى النزعة الفنية .. فشب وفى دمه خليط عجيب من العناصر المتفاعلة ، ورثها من الطرفين.

وكان ابوه ماجنا يتسكع مع نساء الطبقات الرفيعة والوضيعة على السواء .. اما امه فكانت امرأة حالمة ساهمة تعيش على ذكرى اخيها الشاعر الذى سطا على عبقريته موت مفاجىء فى غير اوانه .. فكانت كلما قارنت بين خلقه ورجولته وبين رقاعة زوجها لا تملك الا ان ترثى «لحطام الرجل» فيه ، جاعلة كل همها أن تعيش حتى تجمع فى ابنها حطام ابيه المبعثرة فتجعل منه رجلا كامل الخلق والشخصية !

وهكذا نشأ فتى آمالها «جى» يدرك امنية امه ويكن لها الحب الى درجة العبادة !.. وكلما كان يقلقه امر منبته التعس كان يخرج فورا الى شاطىء البحر ، كى يحكى شجنه للامواج، حيث تتمثل كل بهجة ، وقسوة ، الطبيعة !.. وكان يجر وراءه فى جولاته المنفردة تلك كلبيه المفضلين ، وكلما صادف على الشاطىء جماعة من الصيادين رجاهم ان يصطحبوه معهم فى رحلاتهم الليلية فى ضوء القمر ..

وكان يشترك بنصيب وافر فى كل رياضات القرويين من اهل (نورماندیا) ، التى كانوا يزاولونها وسط جو من الضباب

الكثيف والهواء البارد الذى يهب على الشاطىء النورماندى من البحر وكأنه انفاس تهب الحياة للناس .. **كما كان الفتى يرقص مع القرويات فى حفلاتهن الريفية على انغام الكمان الضاحكة من كل صوب ، تحت اشجار التفاح الباسقة . وحين تنفض الحفلات يسير مع الرجال حملة المشاعل الشبيهة بالثعابين الحمراء فى جولاتهم الليلية المرحة ..**

وكان شغوفا بالاختلاط ، لا يتردد فى ان يشاطر اى انسان كأسا من شراب السيدر (خمر التفاح) وقطعة من الجبن، فى اية حانة يصادفانها .. أما حراس الشواطىء فكانت له معهم سهرات طويلة يشاطرهم فيها مراقبتهم للساحل بواسطة مناظيرهم المكبرة .. وفى هذا يقول : «ان فى عروقى دم رواد البحار ، فليس احب الى من ان استقل قاربى فى فجر احد ايام الربيع متجها نحو الموانىء المجهولة !»

الفتى المتمرد

◆ وشب الفتى عن الطوق ، وآن اوان التفكير فى مستقبله .. فأرسلته امه الى مدرسة اللاهوت فى (ايفتو) ، لكن الفتى لم يكن ميالا الى ان يصير قسيسا ! فانسرق يوما الى قبو كبير القساوسة المملوء ببراميل النبيذ ، وبعد ان خرج من القبو بما خف وطاب دعا زملاءه فى الدراسة الى مأدبة شراب وخمر !

وتكررت حركات تمرده وخرقه للنظام والحرمات ، ففصلته المدرسة اخيرا .. وعاد من جديد الى دنيا الحرية !

وكان ولوعا بالمداعبات و«المقالب» المبتكرة ، فتنكر مرة

فى ثياب فتاة وقدم نفسه الى عانس انجليزية متدينة ، فالتفتت العانس الى محدثتها متسائلة : «من اين جئت يا فتاتى ؟» .. فاجاب الفتى المتنكر : «انى قادمة لتوى من (لوميا) – وهو اسم سجن فرنسي للمجرمين ! – فصدمت العانس بهذا القول، لكنها استطردت : «هل يليق بفتاة شابة مثلك ان تسافر بمفردها ؟» .. فأجاب موباسان وهو يشد الثوب النسائى حول جسمه فى حركة مبتذلة : «هناك فارسان من اقوى شبان فرنسا يعنيان بأمرى» .. وعند هذه الكلمات شهقت العانس المتدينة وقد كاد يغمى عليها !

وفى سن السادسة عشرة اتخذ الفتى لنفسه خليلة .. وراح يعب بشراهة من شتى المتع التى كان فى مقدور مقاطعة (نورماندیا) المتواضعة أن تقدمها للشاب العابث !

- ٢ -

◆ **والتحق** موباسان بمدرسة تعده لدراسة القانون ، لكنه لم يكن شغوفا بالعلم ، فكانت درجاته فى الامتحانات ضعيفة لا تكاد تمكنه من النجاح الا بصعوبة . ولكن حرب سنة ١٨٧٠ لم تلبث ان نشبت بين فرنسا والمانيا ، فاجتاحت الجيوش البروسية منطقة (سيدان) ، فانضم موباسان الى قسم التموين بالجيش الفرنسي .. وسمح له عمله ذاك بفراغ كاف للقراءة والاطلاع .. **فبينما كان جيشه يتقهقر مهزوما، قرأ (شوبنهاور)، وكتب قصائد غرامية ، لكنه لم يكف اثناء ذلك عن أن يحلم بالانتقام لوطنه من قسوة انتصارات الالمان ..**

وفى ظل نار الكراهية من ناحية ، ونار الغرام المشبوب من الناحية الاخرى ، بدأت مواهب الشاب ونبوغه تظهر للعيان .. فلما انتهت الحرب اتجه موباسان الى باريس للبحث عن عمل ، فان دراسة القانون قد اصبحت فوق المستوى المالى لاسرته الارستقراطية المفلسة ! واخيرا ، وبعد جهد ، حصل على عمل ككاتب بسيط فى البحرية الفرنسية ..

الفتى المتسكع !

◆ **وهكذا** استقرت حياة موباسان بعض الشيء .. فصار يخرج فى المساء الى الطرقات المكتظة بالمارة ، يتأمل الناس ويتملى من وجوه الحسان ، على ضوء مصابيح الغاز .. ثم صارت هوايته الكبرى ان يهدىء من اعصابه الثائرة بين احضان الامواج فى نهر السين ، فى قاربه الصغير ذى المجدافين .. فكان يستقله فى الفجر ، قبل الذهاب الى عمله .. وفى الامسيات ، بعد الفراغ من العمل .. ثم فى ايام الآحاد .. وبالاختصار فى جميع اوقات فراغه ، حيث يجد مهربا من جو «المكتب» الخانق ، وجو المقاهى الناضح برائحة النبيذ المعتق ، كما يجد فيه مهربا من اذرع النسوة الرخيصات ! وهكذا صار نهر (السين) رفيقه وصديقه وخليله : «آه من هذا النهر الجميل الهادىء ، المعطر ، المليء بالاحلام ! انى اجدف واستحم ، واستحم واجدف .. حتى لقد اعتادت الضفادع والجرذان رؤية مصباح قاربى فى شتى ساعات الليل البهيم ، فصارت تخرج من اوكارها كى تلقى الى بتحية المساء ! واعتاد اصدقائى بحارة (بورجيفال) ان يفاجأوا بظهورى بينهم فى منتصف الليل ، سعيا فى طلب كأس من (الروم) !»

يتتلمذ على «فلوبير» العظيم

◆ **وفى** تلك الفترة التقى موباسان ، عن طريق صلة عائلية ، بالروائى الكبير «جوستاف فلوبير» مؤلف (مدام بوفارى) . وكان «فلوبير» عبقريا بوهيميا ذا نزعة جريئة فى فنه ، ادت الى ان اقيمت ضده دعوى امام القضاء بتهمة نزوعه الى التهتك فى روايته المذكورة ! لكنه لم يعبأ بمهاجمة المجتمع له ، ونفوره منه ، ومعاملته اياه كشخص موبوء ، محجوز داخل نطاق الحجر الصحى (الكورنتينة) كى لا يلمسه او يقترب منه احد فيصاب بعدواه ! .. وانما استمر المؤلف فى برجه العاجي

اشبه بآلة جالس فى «معبد» فنه ، المعبد الذى لم يكن يملك مفتاحه احد سواه !

وكان فلوبير يبحث عن «تلميذ» مثالى .. وكان موباسان يبحث عن «استاذ» مثالى ! فالتقت الروحان الهائمتان واختلطتا فخرجت منهما روح واحدة سارت فى طريق الانتاج الفنى قدما، من نصر الى نصر !

ومضت سبعة اعوام لم ينقطع فيها موباسان اسبوعا عن ان يحمل كل يوم أحد الى استاذه ـ ذى الشارب الكبير الاشعث والكتفين العريضتين ـ قصائده وقصصه ومسرحياته ، كى يجرى فيها قلمه الاحمر بالتعديل والتصحيح اللازمين .. ومع مضي الزمن تعلم التلميذ اسرار عبقرية استاذه ، الشبيهة بعبقرية الرامى الماهر الذى ينفذ بسهامه اللاذعة الحادة وراء مظاهر الرياء والنفاق التى تحفل بها حياة الناس !

وخلال ذلك كانت موهبته القصصية تنضج رويدا رويدا **.. وبلغ من شغفه برواية القصة انه كان يروى القصص لزملائه فى المكتب بصوت خافت اثناء ساعات العمل!.. اما فى المجتمعات والحفلات المختلطة فكان شغوفا بان يهمس فى آذان النساء بكلمات مزدوجة المعنى ، حتى صار يعرف بانه «اقل شبان باريس ادبا وحياء !»**

اقلهم حياء .. لكنه كان اكثرهم نبوغا ! وان يكن نبوغه لم يدرأ عنه ، بل على العكس ورطه فى متاعب جمة لم تكن تنتهى الا لتبدأ !.. وكم من مرة قاطع الجمهور مسرحياته المبتذلة التى كان يخرجها فى استوديو رسام منبوذ .. وكم من مرة قاده البوليس الى المحاكم جزاء كتابته قصيدة «مكشوفة» ونشرها فى احدى الصحف الرخيصة !

◆ **وكان** موباسان كثيرا ما يشكو صداعا رهيبا فى رأسه ، كان يحاول علاجه بالسباحة فى الماء المثلوج فى ابرد ايام الشتاء! الامر الذى بلغ من غرابته ان الناس كانوا يجتمعون على الشاطىء

فى انتظار خروج «الفار الجرىء» من الماء ، كى يتسلوا برؤيته..

لكن صداع رأسه ظل يتفاقم .. حتى بلغ من شدة ايلامه له انه كان يقضى ساعات باكملها ينظر الى عينيه فى المرآة ، وقيل ان سبب ذلك الصداع كان افراطه فى الخمر والنساء ! .. وكان الصداع يزداد وطأة فى الشتاء على الاخص ، فكتب مرة الى أمه يقول : «ان شهر ديسمبر يخيفنى .. انه الشهر الاسود ، الشهير الكئيب المقبض الذى يذكرنى بكآبة منتصف الليـــل ! »

مصادر وحيه !

◆ وفى تلك الساعات المقبضة كان موباسان يتسلى بكتابة القصص .. التى كان يلتقطها من افـواه صيادى السمك ، والفلاحين ، والممثلات ، والغانيات ، وزملائه الموظفين .. الخ.

وذات مرة ، بينما هو يتناول العشاء على مائدة الروائى الكبير اميل زولا ، مع جمع من الادباء ، اقترح احدهم ان يكتب كل منهم قصة عن حرب البطولة بين فرنسا والمانيا : «قصة ليست كالتى يكتبها المؤرخون والساسة عن الحروب ، وانما قصة فى صورة واقعية تمثل الحرب كما حاربها فعـلا على الارض زبانية جهنم الالمان ، بل قصة تبدد الاوهام الشائعة وتظهر للناس اين تكمن البطولة الحقيقية فى الحرب !» .. فاشترك موباسان فى تلك «المسابقة» بقصة من تأليفه اسماها « كرة الشحم » ..

و«كرة الشحم» هذه هى امرأة من نساء الهوى المحترفات ــ اللواتى يحببهن الرجال عند الحاجة ، ثم يشيحون عنهـن بوجوههم احتقارا بعد ذ لك ! ــ تستقل القطار ذات يـوم ، ابان الحرب الفرنسية الالمانية ، فى طريقها من باريس الـى (هافر) ، فتجمعها المصادفة فى العربة بنفر من الرجال الوقورين او «السادة المحترمين» ، الذين يدركون حرفتها من النظرة

الاولى فينزوى كل منهم فى مقعده مشيحا عنها !.. حتى يتبينوا وقت الغداء انها كانت المسافرة الوحيدة ذات النظر البعيد التى جلبت معها طعاما ، فينسون كبرياءهم واحتقارهم ويقبلون بلا تردد على الطعام الذى قدمته لهم !.. فاذا كان المساء وقفت بهم العربة عند حانة على الطريق بين باريس وهافر ، لكنهم لا يدخلون الحانة حتى يتبينوا ان الالمان قد احتلوها .. وقبل ان يتراجعوا يقبض عليهم فورا ، ويأبى الضابط الالمانى ان يطلق سراحهم الا بشرط واحد : هو ان ينزلوا له عن رفيقتهم فى تلك الليلة !.. لكن المرأة ترفض عار الترفيه عن ضباط «الاعداء» .. فما يكون من رفاقها فى السفر من السادة «المحترمين» الا ان يلحوا عليها ويلحفوا فى الرجاء .. حتى تقبل الشرط القاسى آخر الامر !

وفى الصباح يستأنف الركب سفره .. **فلا تكاد العربة تتحرك بركابها حتى يعود «السادة» يشيحون بوجوههم عن المرأة التى افتدت حريتهم بجسدها وكرامتها !.. وعندما يحين وقت الغداء يظهر انهم جميعا قد جلبوا معهم طعاما ، الا هى .. لكنهم لا يعبأون ، بل يروحون يلتهمون طعامهم فى شراهة دون ان يتفضلوا عليها بما يسد الرمق !.. وهنا تلتمع الدموع فى عينيها وتفيض ، فيلتفت السادة الى بعضهم البعض متهامسين : « انها تبكى شرفها .. تبكى من شدة العار ! »**

على هذا النمط الرائع سخر موباسان فى قصته «كرة الشحم» من نفاق الناس ، ورياء المجتمع ، وسخافة الاوضاع الخلقية المقلوبة فى حياة البشر .. الخ

- ٤ -

◆ **وفتحت** تلك القصة لموباسان باب الشهرة على مصراعيه .. وكان استاذه فلوبير قد زوده بنصيحة مثلثة الاركان تكفل له النجاح فى الادب ، قال له : «انعم النظر ولاحظ كل شىء .. ثم لاحظ مرة اخرى .. وثالثة !»

لكن فلوبير مات فجأة .. فراح (موباسان) يذرع غرفة استاذه - التى طالما زاره فيها فى ايام الآحاد طوال السبع سنوات - وقد تلاشت من ذهنه قداسة الموت ، ولم تبق فى ذهنه غير نصيحة استاذه المتوفى : « انعم النظر والملاحظة ، مرة ، واخرى ، وثالثة » .. فبينما كان منهمكا بيديه فى غسل جسد الميت واعداده للدفن ، كان نظره وعقله يراقبان ويسجلان ادق التفصيلات ، كى ينتفع بها فى فنه القصصى فى المستقبل ! .. وفيما كان يسير فى موكب الجنازة خلف الجثة لاحظ مثلا ان بقرة اطلت من فوق حاجز على الطريق وارسلت خواءها نحو الموكب الذى لم تفهم معناه !.. وفى المقبرة لاحظ كيف كان العرق يتصبب من اجسام حفارى المقبرة وهم يحملون النعش ويدلونه الى القبر .. وكيف مال النعش على احد جانبيه وابى ان يدخل القبر الا بعد ان اتى رجال آخرون لمساعدة زملائهم !.. الخ

فى تلك اللحظات الحزينة قفز قلب موباسان بين ضلوعه بحماسة الفنان حين يعثر على موضوع لقصة ، او رسم ، او تمثال !.. ورفع صلاة شكر حارة لله لانه اتاح له ان يكون حاضرا فى تلك الدقائق الحاسمة كى يرى ويعى بعض مظاهر قسوة الحياة ومصائر البشر !.. **فان حاسة الروائى كانت عند موباسان بالغة القوة ، اشبه بغريزة الشم عند كلب الصيد !.. وبقدر قوتها كانت خصوبة عقله ، وقلبه ، وقلمه .. هذا يحس ، وذاك يسجل الاحساسات .. هذا يتخيل ، وذاك يصور الخيالات !**

لكن خياله كان يستعصى عليه فى كثير من الاحيان ، ككل فنان ، فكان يضع قلمه وينتظر ، وينتظر .. ساعات طويلات .. حتى تنقشع الظلمات عن رأسه وخياله .. وكثيرا ما كان يتعاطى مخدر (الاثير) ويغرق فى موجات اخيلته ، او يطير

فى سحب تصوراته ، ويظل هكذا يحلم .. ناسيا كل ما حوله! بل انه كان كثيرا ما يبتاع قوارير المخدرات المختلفة ، التى ابتلعت منه ذات صيف كل المال الذى كان قد ادخره للمصيف!

يقسو على الانسان .. ويعطف على الحيوان !

◆ **ولكن** خلف الضباب الذى كانت المخدرات تشيعه فى رأسه كان يكمن دائما تذوق رائع للجمال الفطرى : «انى احب السماوات كالطير ، واحب الغابات كالذئاب ، والصخور كالوعل، والحشائش الخضراء كالحصان ، والمياه الصافية كالسمك !.. انى احس فى اعماقى شيئا يختلج بالعاطفة التى يشاركنى فيها ويفهمها كل حيوان ، وكل حشرة ! .. احس فى اعماقى بجميع الرغبات الغامضة التى تحسها احط المخلوقات !.. واحب الدنيا كما تحبها تلك المخلوقات ــ وليس كما تحبونها انتم معشر البشر ! ــ احبها دون ان اعجب بها ؛ دون ان احيطها بهالة من الشاعرية .. احبها حبا عميقا وسطحيا ، وضيعا ومقدسا !»

وكان يزعم ــ وان كذبته قصصه ــ انه لا يعطف على بنى الانسان : «انى استطيع ان اهشم جمجمة شاعر، لا لسبب غير فضولى الى رؤية ما بداخلها !» .. لكن رقة الاحاسيس المرهفة التى تبين بين سطور قصصه تظهر عكس ما «يباهى» به ، وتنطق بمدى احساسه بآلام البشر .. بل بآلام الحيوان الاخرس ، التى كانت «ترعبه» وتوقظ فى روحه ارق مشاعرها! .. كان يحس صرخة الذئب فى الفخ كأنها صرخته ! وكانت عبقريته التى «تفوق» المستوى العادى فى الانسان ، اقرب اتصالا بالاحساسات الجثمانية للمخلوقات التى «دون» الانسان فى مرتبة التطور !.. فكانت دموعه تفيض وهو يصف الآلام الصامتة التى يعانيها الحيوان ، شريكه فى الروح !

وقد صور آلام الحيوان فى كثير من قصصه : منها قصة بطلها كلب وديع مسالم ، لا يزعج صاحبته حتى بالنباح .. ورغم ذلك ارادت ان تقضى عليه ، كى تتخلص من الضريبة الزهيدة التى تتقاضاها منها الحكومة عن الكلب - وقيمتها ثمانية فرنكات ! - فلم تجد للحيوان المخلص نهاية ارحم من ان تقذف به الى هاوية بئر سحيق !

وثمة قصة اخرى بلغ فيها موباسان قمة الروعة والرقة والجمال ، هى قصة حمار نفق يوما وهو يحمل اثقالا فى مزرعة صاحبه ، فالقى به هذا بعيدا ، حيث بقيت جثته جيفة يأكلها الذباب ، على بعد امتار من الحقول الخضراء التى قضى الحيوان عمره فى خدمة صاحبها !

اما مملكة الانسان ، فقد وصفها موباسان ابلغ وصف حين قال ان الاقدار تقسو على الانسان بنفس الوحشية التى يقسو بها الانسان على الحيوان ! ومن هنا بعث موباسان الى الحياة ، ببضع غزوات جريئة من قلمه السيال ، اروع صور كفاح تلك المخلوقات التعسة - الحيوانات - فى سبيل البقاء ، جاعلا صلته بها صلة الحس للحس ، واللمسة للمسة ، والشم للشم .. فقد كانت حاسة الشم عنده من الحدة بحيث استطاع ان يحس بها انفعالات الحيوان ، وطرق معيشته ، وغرائزه ، بل وحتى افكاره !

استاذ القصة القصيرة

◆ **وصار** موباسان استاذ القصة القصيرة فى فرنسا ، بل فى عصره ! كانت قصصه احياء لنوادر وحكايات (لافونتين) ولاقاصيص (بوكاشيو) البارعة ، فلقيت من اعجاب البلاد اللاتينية خاصة (ايطاليا وفرنسا وما جاورهما) ما تلاقيه الاقاصيص ذات العقدة او المفاجأة اللامعة التى تبهر القارىء ..

وجميع اشخاص وابطال موباسان لا ينعمون بطمأنينه النفس المتدينة . ورغم ذلك فهو «شاعر» بالرغم منه ، وان حاول ان يتنكرفى زى «ساخر» لاذع . . وما تشاؤمه، ودقةالعالم فيه ، واسلوبه السهل الممتع ، الكلاسيكى المبسط ، الا طابع شباب عصره جميعا .. فمثلهم جميعا كان موباسان انسانا يدرك ان الله خالقه ، ولكنه يأبى مع ذلك فى سخرية ان يؤمن به!

واكثر قصص موباسان تخوض فى محيط الانفعالات الجنسية ، مثل حياته ذاتها .. وفى هذا يقول الطبيب والاديب السويدى «اكسيل مونتى» فى فصل شائق كتبه عن صلته بالقصاص الكبير : **«ان المؤلفين الذين يلذ لهم ان يكثروا من الخوض فى المواقف الجنسية ، هم فى العادة اقل الناس خبرة فى هذا الميدان . ولا أعرف لهذه القاعدة الا استثناء واحدا هو « جى دى موباسان » ، وقد رأيته يموت صريعا فى هذا الميدان .. فقد راح ضحية الخمر ، والمخدرات ، والنساء !»**

وكان دكتور مونتى قد التقى بموباسان فى قاعة المحاضرات بمستشفى «لاسالبتريير» بباريس ، حيث كان البروفيسور «شاركو» يلقى سلسلة محاضراته المشهورة عن التنويم المغناطيسى ، والهستيريا ، وسائر ضروب الاضطرابات العقلية .. فكان أول ما لفت الطبيب من الاديب الكبير اهتمامه الشديد بالاحاطة بكل ما يتصل بهذه الموضوعات ، وبموضوع «الجنون» بصفة خاصة — وسنرى كيف كان ذلك بمثابة «النبوءة» او المقدمات التى انتهت بموباسان الى مصيره المفجع بعد ذلك بسنوات !

الراقصة « ايفون »

ثم توثقت الصلات بين الاديب والطبيب .. فدعا موباسان مونتى الى قضاء ايام فى ضيافته على ظهر يخته الفاخر «بيل أمى» — Bel Ami — الذى كان يتهيأ للاقلاع به من ميناء

(أنتيب) فى رحلة الى البحر الابيض .. فكانا يقضيان شطرا كبيرا من الليل فى صالون اليخت يتحدثان عن الموت ! فلقد كان موباسان يرهبه الى درجة الفزع ، ويقول انه دائم التفكير فيه ، وان شبحه لا يكاد يبرح خياله .. حتى لقد صار تواقا الى ان يعرف كل شيء عن السموم ، وعن الفروق بين انواعها المختلفة ـ من حيث سرعة وشدة احداث الاثر ، وخفة او حدة ما تسببه من الم .. الخ ـ وكان يلح بصفة خاصة فى الوقوف من صديقه الطبيب على تفصيل ما ينتاب المشرف على الغرق من احساسات !.. فحدثه مونتى بما يعتقد من ان الموت غرقا يكاد يكون اخف صور الموت ايلاما للشخص اذا لم يتعلق بطوق النجاة ، على عكس الحال فيما لو تشبث الغريق بالطوق ، فان الغرق يصبح عندئذ افظع ميتة على الاطلاق !.. ولم يكد موباسان يسمع من صديقه هذا الكلام حتى كان رد الفعل المباشر لذلك على وجهه ان ثبت عينيه القاتمتين على أطواق النجاة المعلقة على حاجز اليخت وراح يتمتم : «اذن فسوف اقذف بهذه كلها الى البحر فى الصباح !» فسأله دكتور مونتى : «اتقصد انك تعتزم ارسالنا الى قاع البحر خلال رحلتنا هذه الى كورسيكا ؟»

«كلا» ـ قالها اخيرا بعد فترة صمت !.. وانما هو يتمنى ان يدهمه الموت وهو بين ذراعى امرأة !

ولم تكن هذه بالامنية العسيرة ، فان اسلوب الحياة التى يحياها كان يهيىء له فرصة ملائمة لان يرى رغبته هذه وقد تحققت .. اذ فيما هما يتحدثان استيقظت «ايفون» ، فتمطت وتثاءبت ، ثم طلبت كأسا اخرى من الشمبانيا افرغتها فى جوفها .. ثم عادت فاستسلمت للنعاس من جديد ، ورأسها على فخذه !

طوفان من النساء !

◆ **كانت** ايفون من راقصات «الباليه» بأوبرا باريس ، فتاة لعوبا لا تكاد تجاوز الثامنة عشرة ، طالما تقلبت بين احضان عشاقها والمعجبين بها بين كواليس الاوبرا ، حتى ساقها قدرها الى التلف والذبول المحتوم فى صحبة عاشقها الرهيب قصاص فرنسا الاكبر ! وما كان هناك طوق للنجاة يمكن ان ينجيها من مصيرها .. وحتى لو وجد فان الفتاة كانت كفيلة بان تركله بقدميها الصغيرتين .. **فبالرغم من ان عاشقها ـ هذا الشيطان المريد ـ لم يكن يريد منها غير بدنها الرخص ، فانها كانت تعشقه عشقا خالصا ، دفعها الى ان تهبه قلبها كما وهبته من قبل جسدها! .. ومن ثم لم يكن من العسير على دكتور مونتى وهو يتأمل هذه المدنفة الولهى ، ان يجزم بالمصير التعس الذى ينتظرها .. وخاصة انها لم تكن اول غريرة رآها تنام ورأسها على فخذ موباســـان !**

وفيما هما جالسان فى صالون اليخت ، كانت مسودة قصة موباسان الجديدة «فوق الماء» موضوعة على المائدة بينهما. وكان الكاتب قد قرأ لصديقه جزءا منها ، اعتبره احسن ما كتب .. وكان موباسان فى تلك الايام ينتج ـ فى تتابع سريع محموم ـ درة من قصصه بعد درة ، مستحثا عقله المهتاج بالخمر ، والاثير ، وشتى صنوف المخـدرات !.. ومستلهما الوحى من تقلبه الدائم فى احضان النساء.. طوفان لا ينتهى من النساء ، من مختلف الطبقات والاحياء : من انيقات حى سان جرمان ، الى فاتنات الشانزليزيه وغيره من الشوارع الباريسية الكبرى .. الى الممثلات ، والراقصات ، وفتيات الطبقة الوسطى الطائشات .. الى العاهرات الوضيعات .. الخ .. فقد كان القصاص الكبير «زير نساء» ، أو كما اعتاد اصدقاؤه ان يطلقوا عليه : «الفحل الحزين» !

جنون العظمة !

◆ **وكان** فخورا بنجاحه الى اقصى حد .. لا يكف فى احاديثه عن الاشارة من طرف خفى الى سيدات المجتمع الراقى، الغامضات ، المجهولات ، اللواتى يفتح لهن خادمه الامين فرانسوا باب مسكنه الفاخر فى شارع شوازيل !.. فكان اسلوبه هذا فى المباهاة ، من اعراض «جنون العظمة» الذى كان يسعى سعيه الحثيث اليه .. بل انه صار كثيرا ما يرتقى السلم لاهثا الى عيادة صديقه دكتور مونتى فى شارع «دى فيلبيه» ، كى يقبع صامتا فى ركن من الغرفة ، وهو يحدج الطبيب بتلك النظرات الجامدة الرهيبة التى كان يعرفها فيه جيدا .. او يقف طويلا أمام المرآة التى فى ردهة العيادة ناظرا الى خياله فى صقالها ، كما لو كان ينظر الى شخص لا يعرفه !

وبدأ اصدقاؤه يسمعون منه شكايات غريبة ، منها انه صار يرى بينه وبين المرآة التى امامه ضبابا كثيفا كلما جلس ليحلق ذقنه فى الصباح !.. وصار يكثر من الاتكاء برأسه المتعب على راحتيه ، ويقول لنفسه انه قد بدأ يدرك سبب نفاذ نظرته الى ذرات وبواطن الاشياء ، وهو ان عقله قد اخذ يتفتت ويتحلل الى ذرات !

ولاحظ المحيطون بالقصاص العبقرى ان وجهه اخذ يزداد نحولا وشحوبا كل يوم ، وكأنما صارت عيناه تقتاتان من لحم وجهه .. وكان قد اصيب بمرض «الزهرى» الخبيث، فتوهم ان المرض سوف يقضى عليه ! وزاده ذلك فزعا من الموت ، الذى ليس بعده حياة : «انى أومن بالفناء المطلق لكل كائن يموت !» .. وبات يقضى اكثر وقته فى قراءة الكتب الطبية ، واستشارة الاطباء فى كل مكان ، واستجوابهم بصدد شتى الامراض .. فحسب الجميع انه يحضر مواد كتاب جديد عن الاطباء وامراض الشذوذ !.. **وذات يوم قال فى هدوء**

لمدعويه اثناء تناول العشاء : ((انى معنى فى هذه الايام بالجنون ، ولسوف اصف احوال رجل يتحول تدريجيا وببطء من العقل الى الجنون !)) .. فلم يبال السامعون بالامر اكثر من مبالاتهم بموضوع قصة ينوى وضعها .. وحتى حين صار يحرص على قضاء لياليه فى مخادع خليلاته ، لم تفهم واحدة منهن حقيقة الدافع له على ذلك ، وهو خوفه من النوم وحيدا !

.. كما لم يدرك الملايين من قرائه وقتئذ ان كل الهواجس والتصورات والاشباح التى صارت تظهر فى قصصه انما كان يستوحيها من مشاعره الخاصة فى ساعات وحدته !.. وقال مرة لصديقه مونتى انه بينما كان جالسا الى منضدة الكتابة ذات ليلة ، منهمكا فى انجاز قصة جديدة ، فوجىء بشخص لا يعرفه يقتحم عليه الغرفة ـ بالرغم من رقابة خادمه الصارمة ـ ثم يجلس الى الناحية المقابلة من المنضدة ، ويشرع فى ان يملى عليه ذات العبارات التى كان بسبيل ان يكتبها !.. واذ تهيأ لان يدق الجرس لخادمه كى يطرد الغريب ، اجفل مذعورا وهو يتبين ان ذلك الغريب المتطفل لم يكن الا .. نفسه !

واوحى له هذا الوهم الشاذ بقصته المشهورة «الهورلا» التى تدور حول رجل يطارده شبحه المماثل له !

مأساة فى حياته ..

◆ **وبعد** اسابيع وقف الدكتور مونتى الى جوار موباسان بين كواليس الاوبرا ، يتأمل صديقته «ايفون» تؤدى احدى

رقصاتها الايقاعية الرائعة ، فلم يملك نفسه من الاحساس بالرثاء لعاشقها المفتون الذى لم تكن عيناه المتلظيتان تبرحانها!.. وبعد انتهاء الرقصة تناول الثلاثة العشاء فى المسكن الصغير الانيق الذى كان موباسان قد اتخذه لها . ولم تكد الفتاة تزيل من وجهها آثار المساحيق حتى صدم الطبيب اذ رأى مبلغ شحوبها واعيائها بالقياس الى ما كانت عليه يوم رآها لاول مرة على ظهر اليخت . وقالت له انها قد اعتادت تعاطى «الاثير» دائما اثناء تأدية رقصاتها ، «فهو خير منعش للاجسام المرهقة» واضافت ان كل زميلاتها يتعاطينه ، حتى مدير الفرقة نفسه — وقد عاش الطبيب بعد ذلك حتى رأى المدير المذكور يموت فى مثواه الهادىء بجزيرة كابرى متأثرا بذلك المخدر السام ..

وشكا موباسان لصديقه من نحافة ايفون ، التى تزداد يوما بعد يوم ، ومن سعالها الذى صار يؤرق لياليه ولا يكاد ينقطع .. ففحصها الطبيب فى الصباح التالى ، وصدق حدسه: فقد وجد اصابة بالغة فى اعلى احدى رئتيها ! فلم يتردد فى مصارحة عاشقها بوجوب اخلادها للراحة التامة ، ونصح له بارسالها كى تقضى اشهر الشتاء فى «منتـــون» .. فأبدى موباسان استعداده لبذل اقصى ما يمكن بذله لانقاذها ، ولاسيما انه ليس ممن يميلون للنساء النحيفات !.. ولكن الفتاة لم تكد تسمع الاقتراح حتى ابت السفر قائلة انها تفضل الموت على ان تترك عشيقها يوما !

جحود العشاق !

◆ **وخلال** الشتاء سببت الفتاة للدكتور مونتى متاعب جمة ، فقد ابت ان تطيعه وتستكين للراحة .. ثم اصيبت بالنزيف الاول ، وبدأ الخطر يصبح جديا . وكان موباسان — ككل المؤلفين الذين يكتبون عن المرض والموت — لا يطيق ان يرقبها عن كثب ، فصار يتجنبها شيئا فشيئا ، بينما كانت المسكينة

تجرع عشرات القوارير من زيت كبد الحوت ، بغية ان يعود جسمها الى الامتلاء فترضى رغبات عشيقها .. ولكن بلا جدوى ، فسرعان مالم يبق من شبابها الغض غير عينيها الزائغتين تلتمعان من اثر الحمى و«الاثير» ، الذى لم تقلع عن تعاطيه !

وظل «جيب» موباسان مفتوحا لها بسخاء ، ولكن ذراعيه لم تلبثا ان التفتا حول جسد احدى زميلاتها الراقصات ! ولم تطق التعسة اخفاء غيرتها فقذفت غريمتها بزجاجة من ماء النار على وجهها . وكان من حسن الحظ انها اخطأتها تقريبا ، فلم يحكم عليها باكثر من الحبس شهرين .. ولو ان اكبر الفضل فى تخفيف العقوبة انما كان لنفوذ موباسان الادبى القوى والى شهادة طبية من الدكتور مونتى قرر فيها ان ايام المتهمة قد صارت معدودة ، وانها لن تعيش سوى بضعة شهور!

وانقضى الشهران ، فخرجت ايفون من السجن .. لكنها ابت العودة الى مسكنها الانيق الذى ينفق عليه عشيقها «الخائن» ولم تفلح توسلات موباسان فى ارجاعها عن عزمها ، فلم تلبث ان اختفت عن محيطه تماما ، ضاربة فى مجاهل باريس ، كالحيوان المشرف على الموت حين يختبىء فى ركن قصى كى يلفظ آخر انفاسه .. !

وفى فراش متواضع بمستشفى سان لازار ـ المأوى الاخير لنساء باريس الساقطات ـ عثر بها دكتور مونتى بعد اسابيع، بفضل المصادفة وحدها ، فطمأنها الى انه سينبىء موباسان بمكانها فيخف من فوره اليها . واسرع فعلا الى مسكنه فى نفس الامسية ـ اذ لم يكن امامه وقت ليضيعه ـ **وهناك وجد «فرنسوا» الامين فى مركز المراقبة المعتاد ، حريصا على حماية سيده من ادنى مقاطعة او ازعاج . وعبثا حاول الطبيب اقناعه بادخاله ، فقد كانت اوامر سيده صارمة وصريحة فى وجوب**

منع اى زائر من الدخول ، مهما كانت الظروف . ذلك ان القصة بعينها كانت تتكرر .. قصة الفاتنة المجهولة !

واخيرا لم يجد الصديق بدا من ترك ورقة لصديقه ينبئه فيها بحالة ايفون ومكانها ، ووعد الخادم بتسليم الورقة لسيده على الفور .. ولكن اغلب الظن انه لم يفعل ، من فرط حرصه على ان يدع سيده المحبوب بمنجاة من كافة المضايقات — أو المضاعفات — التى تنجم عن علاقاته مع النساء !

وحين مر الطبيب بمستشفى سان لازار فى اليوم التالى كانت ايفون قد ماتت ! واخبرته الراهبة الموكلة بتمريضها انها قضت سحابة اليوم السابق تتزين ، وتلون وجهها بالمساحيق وتصفف شعرها . وبعد ان أتمت زينتها اقترضت من احدى العاهرات اللواتى يزاملنها فى العنبر ملفحة (شالا) من الحرير الاحمر لتخفى بها عظام كتفيها ، وتذكر نفسها بسنائها فى الايام الخوالى .. ثم قالت للراهبة انها تنتظر «صاحبها» !.. وقد ظلت تترقب مجيئه طوال اليوم بصبر نافد ، لكنه لم يأت !.. وفى الصباح وجدوها ميتة فى فراشها ، بعد ان ابتلعت كل محتويات قارورة «الكلورال» !

مأساة ثانية ..

◆ فى تلك الاثناء كانت حالة موباسان العقلية تزداد سوءا وتفاقما .. وكأنما صارت برودة الموت تجمد الدم فى عروقه. فقد بات يخشى الشتاء كما لم يخشه من قبل .. ويجلس الى جوار المدفأة وهو ينتفض .. وحتى فى اشهر الدفء كان يشعل النار للتدفئة فى كل غرفة !

وذات يوم .. جاءه النبأ الرهيب من وراء البحار بأن اخاه الاصغر السليم «هرفيه» قد صيب بلوثة مفاجئة فى عقله! فلما اقتاده اقرباؤه الى مصحة الامراض العقلية اشار هرفيه

الى اخيه الاكبر (جى) صائحا : «انك انت المجنون .. انت مجذوب الاسرة !»

ولم تمض اسابيع حتى رقد «هرفيه» على فراش الموت يحتضر .. فنادى اخاه «جى» بالعبارة التى كان يناديه بها وهما طفلان : «تعال نلعب فى الحديقة يا جى» .. وقبل ان يمسح جى دموع اخيه من عينيه كان الموت قد اغمضهما .. الى الابـــد !

قمة الازدهار الادبى !

◆ **وشاءت** سخرية القدر ان تكون ايام موباسان الاخيرة ، الحافلة بالآلام ، هى احفل ايامه بالانتاج القصصى الخصب ! وكأنما السموم التى كانت فى دمه كانت تنبت اروع ازهـــار عبقريته قبل ان تقضى عليه .. فراح قلمه يدبج الاقاصيص فى تتابع سريع ، وخصوبة وروعة متزايدتين !

لكن آلامه كانت فى ازدياد .. لم تلبث الموائد والمقاعد والمصابيح ان صارت فى وهمه «وحوشا» تذرع غرف بيته ، وتهبط سلمه وتصعده ! وبات يعتقد ان ملايـــين الجراثيم تتمشى فى دمه . وكلما وضع قدميه على الارض وهو جالس ، كانتا تقفزان الى فوق كأنما مستهما كهرباء !.. وذات يوم ، بينما كان خادمه الوفى فرنسوا يقوده فى نزهة بين الحـقول صاح به وهو يلمح صليبا ضخما فوق قبة احدى الكنائس : «انظر يا فرانسوا .. ان المسيح قـــد صلب وهو فى الثالثة والثلاثين .. وأنا اقترب من الحادية والاربعين !»

وادخلوه «البيت الابيض» ــ مستشفى الامراض العقلية ــ وذات يوم زاره فيه الدكتور مونتى ، فألفى القصاص الكبير يسير فى ممشى الحديقة ، متكئا على ذراع فرانسوا ، وكلما

مر بحوض من احواض الزهور نثر عليه حبات من البذور الصغيرة ، صائحا : **«انظر ، انظر .. انها ستنمو كلها حتى تصير كل حبة منها فى الربيع «موباسان» آخر .. فقط لو امطرت السماء !»**

محاولات الانتحار !

◆ **وفى** مستهل عام ١٨٩٣ ، بعد رأس السنة بساعات معدودة ، صوب موباسان مسدسا نحو رأسه وضغط الزناد! لكن المسدس كان فارغا .. فاستدار الى موسى حادة وذبح بها رقبته ، ثم وقف يتأمل نفسه فى المرآة بلا اهتمام ، وعلى شفتيه ابتسامة !.. فلما جرى خادمه صائحا الى الغرفة ، ابتدره سيده فى هدوء : «أترى يا فرانسوا ما فعلت ؟ لقد ذبحت رقبتى .. انها حالة جنون مطبق !»

واسعفه الاطباء ، واوقفوا نزيف دمه .. فلما اشرق الصباح قادوه الى شاطىء البحر ، الحبيب الى نفسه ، بأمل ان رؤيته ليخته الجميل الراسى على الشاطىء تعيد اليه شيئا من صوابه ، وذكرياته السعيدة .. فوقف يتأمل اليخت برهة، وشفتاه تختلجان كشفتى طفل عاجز عن النطق .. لكنه لم يقل شيئا ، ثم استدار عائدا من حيث اتى ! انه قد اضحى عديم المبالاة بكل الاجواء التى حوله ..

ومضى يخب فوق الحشائش ، فى ظل اشجار الصفصاف .. الى حيث كانت تنتظره نهايته !

نهاية اعظم كاتب للقصة القصيرة انجبه العالم !

- ١ -

◆ **فى** ركن مظلم من غرفتى كان تمثال جميل صامت «لابى الهول» يراقبنى فى سكون .. لا يتحرك ، او يتكلم ، او ينهض ، او يموت ! .. لا يعنيه تعاقب الليل والنهار ، ولا يبالى بالاقمار الفضية والشموس الذهبية التى تتتابع على الكون كل يوم .. الحمرة تتلو الغبرة فى الافق ، وامواج أشعة القمر تفيض وتغيض - بالمد والجزر - اما هو فلا يذهب مع الفجر ولا يقبل مع الليل .. وانما هو باق فى مكانه لا يريم !

الفجر يتلو ألفجر ، والليالى تشيخ ، وهذا «القط» الغريب نائم فى حجرتى فوق الحصيرة الصينية ، وعيناه المموهتان بالذهب تبرقان كعينى الشيطان !

تعال الى ، يا لغزى المحبوب الجامد الصامت .. تعال الى ايها الاثر الخلاب ، الذى نصفه امرأة ونصفه حيوان !

تعال الى يا أبا الهول الرائع المحبوب .. ضع رأسك على ركبتى ودعنى اتحسس رقبتك ، وجسدك الارقط كالحية ، والمس فكيك اللذين فى لون العاج .. واقبض على ذيلك المخيف الذى يلتوى حول مخالبك ..

- ٢ -

◆ **لقد** عشت انت عشرين قرنا طويلة ، بينما لم اشهد انا اكثر من نيف وعشرين صيفا يعقبه خريف .. فخبرنى ، هل

كنت في مكانك هذا حين جئت (ايزيس) لحبيبها (اوزيريس) ؟

وهل شهدت عشق انطوني وكليوباترة ؟

ارفع عينيك الواسعتين السوداوين الشيطانيتين ، الشبيهتين بوسائد ناعمة تغرق فيها الرؤوس .. وتثاءب عند قدمي ، يا ابا الهول العجيب ، وانشد لي اناشيد ذكرياتك جميعا !

حدثني عن العذراء المتجولة بطفلها المقدس .. وكيف قدتهما خلال الصحارى ، وكيف ناما في ظلالك ..

وقل لي ، من كانوا عشاقك ؟ من هم أولئك الذين تمرغوا في التراب تحت اقدامك ؟

وهل كانت لك اسرار مخزية ، وهل ضممت بين ذراعيك جنية في لون العنبر ، ذات نهدين من البللور ؟

ام كنت حين تغرب الشمس نتسلق التلال والوهاد كي تلقى معبودتك ، ذات الجسد الكهرماني المصقول ؟

- ٣ -

◆ **يا لغموض** ابتسامتك !.. اولم تعشق قط ؟.. كلا ، لا تنكر فاني أعلم ..

أعلم ان ابنة (آمون) كانت رفيقة فراشك . كانت تنام الى جوارك على شاطىء النيل .. بعد اذ تقطع الصحارى والقفار حتى تبلغ واديك ، فتنتظر مشرق النهار ، ثم تلصق صدرها بصدرك !

وكنت تقبل فاها بفم من لهيب ، فجعلت الآلهة عبيدا لهواك .. وبدماء الكباش علمتها صنع المعجزات ..

ابنة آمون كانت عشيقتك ، وكان مجرى النيل فراشكما .. وبابتسامتك الغامضة ظللت ترقب عاطفتها تخبو وتشتعل

اتريد ان اصف لك حبيبتك ؟ كان بهاؤها كالمرمر ، يزري شعاع القمر فيجعله شاحبا الى جانبه ، ويعير النهار مزيدا من الضوء !

وشعرها الطويل منسدل ، فى لون عطور (كردستان) .. ووجهها كأنه غارق فى بحيرة من النبيذ .. وزرقة عينيها لا تستطيع البحار تقليدها .. ورقبتها الناعمة بيضاء كاللبن ، تمشى فيها عروق رفيعة زرقاء ..

وعلى صدرها العاجى يبرق زمرد المحيطات !

– ٤ –

◆ او ما تزال تحدجنى بنظراتك ؟

اليك عنى .. عد الى مصر .. لقد مللت نظرتك الجامدة!

انفاسك الثقيلة المخيفة تجعل اللهب يختلج فى المصباح، وأحس منها برطوبة الليل والموت ..

عيناك كأقمار عجيبة تضطرب فوق صفحة بحيرة .. ولسانك كثعبان قرمزى يرقص على انغام مخيفة ..

نبضك يعزف اناشيد سامة ، ورقبتك السوداء كثقب تركته فحمة محترقة على بساط عجمى ..

فاذهب ، ان النجوم الفوسفورية المضيئة تهرع نحو الافق الغربى .. اذهب ، قبل ان يفوت اوان تسلقك عرباتها الفضية الصامتة ..

انظر : الفجر يختلج حول المنائر الغبراء ، والمطر يهطل فيغسل بدموعه آثار النهار ..

فأى غضب من الجحيم سرقك من واديك وقادك الى حجرتى ؟.. اذهب عنى أيها الحيوان الغامض الشرير .. انك توقظ فى احلاما حمقاء لحياة الخطيئة !

ايها الآله الزائف .. يا أبا الهول الزائف .. اذهب واتركنى لالهى ، الذى يرقب العالم بعينين متعبتين من اثقال الالم والخطايا .. ويبكى من اجل كل نفس تموت .. يبكى بلا جدوى !

تعريفـــات !

- **سر** : شىء تقوله لشخص واحد فى الوقت الواحد !
- **أرملة** : امرأة لم تعد تكتشف أخطاء فى زوجها !
- **انسان بالغ** : شخص كف عن النمو من أطرافه وبدأ ينمو فى الوسط !

الله .. والبلاط الانجليزى !

- **تقدم** شخص الى «دوق بكنجهام» يرجو منه ان يتوسط له لدى البلاط الانجليزى كى تقضى له حاجة ثم اضاف طالب الوساطة انه ليس له من يعتمد عليه غيرالله والدوق!

وعندئذ اجابه الدوق ساخـــرا : « اذن فقضيتك ميؤوس منها . فقد اخترت اثنين هما اقل الوسطاء نفوذا فى البلاط !

يحكى عن العظماء :

- ان الـكاردينال **ريشـليو** ـ السـياسى الفرنسى المشهور ـ كان يرى وهو يتبارى مع خدم بيته فى القفز، لمعرفة من يستطيع منهم أن يقفز أعلى من الاخرين !
- ان الشاعر **شيللى** كانت متعته الكبرى أن يضع سفنا صغيرة من الورق فى اية بركة يصادفها ، ويراقبها وهى تطفو على الماء
- ان **اليصابات** ـ الاولى ـ ملكة انجلترا القديمـة خلفت بعد موتها اكثر من ثلاثة آلاف ثوب مختلفة الازياء والاشكال .. وانها عاشت الشطر الاخير من عمرهـا تتجنب النظر فى مرآة ، كى لا ترى الزمن والشيخوخة على وجهها !
- وان **شارل الثانى** ملك انجلترا كانت تسـليته الكبرى أن يطعم بيده البط فى حديقـة سان جيمس ، ويربى الكلاب ذات الآذان الطويلة من الفصيلة التىيطلق عليها بالانجليزية «ساينيها» .

حوافز الحياة

النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى اعداد السنة الاولى من كتابى ، الكتب الاتية على التوالى : «كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية» للعالم النفسانى ماكدونالد لاديل ، ثم «طريق السعادة الزوجية» لفردريك برينك ، و «مركب النقص» تاليف و. ماكبرايد و «حواء الجديدة» – مرشد المراة المصرية المستنيرة الى سعادتها ، قبل الزواج وبعده – للدكتور كورتنى بيل، ثم «كيف تقهر الخجل» تاليف س. تيار ، و «كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة» لجون كنيدى ..

وفى الاعداد الثمانية الماضية قدمت لك من فنون الحياة التى شرحها المفكر العالمى «اندريه موروا» : فن الحب ، ثم فن الزواج ، وفن الحياة العائلية ، ففن الصداقة ، .وفن العمل، ثم فن الزعامة ، وفن السعادة ، ففن التفكير ..

واليوم أقدم لك الفن الاخير من فنون الحياة التى حدثنا عنها أندريه موروا ، وهو فن الشيخوخة ..

فاذا فرغنا من صحبة «اندريه موروا» الممتعة فى أبحاثه هذه انتقلنا منها الى صحبة مفكر عالمى آخر هو الفيلسوف الانجليزى المعاصر «برتراند رسل» الذى سيشرح لنا بدوره موضوعات أمتع من سابقتها واروع ، ومنها : الاحساس بالاثم ، كيف تكون محبوبا ، كيف تقهر الحسد ، كيف تقاوم القلق والخوف ، كيف تفهم اسرتك ، كيف تستمتع بالحياة والحب والعمل ، كيف تنجح بغير كفاح !.. الخ

اندريه موروا

فن الاستمتاع بالحياة

في الشيخوخة..

اعد نفسك من الآن للاستمتاع بشيخوخة سعيدة !

◆ الشيخوخة مصير محتوم لكل انسان تتقدم به السن .. وقد طبعنا جميعا على التهرب من هذا المصير ، ومحاولة «تاجيله» والتشبث باذيال الشباب ما امكننا ذلك ، لكننا لو تاملنا الامر فى روية لراينا اننا بنفورنا من الشيخوخة ومساوئها انما نزيد من وطاة هذه المساوىء ونوحى الى انفسنا بمتاعب والوان من الحرمان «وهمية» الى حد كبير .. فالموظف الذى يحال الى المعاش فى سن الستين مثلا تسوء صحته ويصاب بشتى الامراض بمجرد تلك الاحالة ، لا بمحض المصادفة ، او بسبب انقطاعه عن العمل كما قد يتبادر الى الاذهان .. وانما لان شعوره بانه قد شاخ ، وتوهمه انه لم يعد صالحا الا لانتظار الموت ، يضعف معنويته .. فصحته .. ويعرضه بالتالى للمرض والانهيار !

واذن فعلينا الا نخشى الشيخوخة فى ذاتها ، فشيخوخة الجسم تسرع الينا ، أو تبطىء ، نتيجة لشيخوخة نفوسنا أو شبابها .. فكيف نحتفظ بشباب النفس برغم تقدم الجسم فى السن ؟ وكيف نستمتع بسنوات الشيخوخة الى اقصى ما تتيحه لنا من فرص الاستمتاع ؟

هذا ما يحدثنا عنه «أندريه موروا» باسلوبه الشائق فى الصفحات التالية .. واتماما للفائدة رأيت ان الحق بهذا الفصل فصلا تكميليا ممتعا يحدثك فيه العالم النفسانى «جون مورجان» حديثا «عمليا» عن كيفية استمتاعك بالحياة .. فى شبابك !

الحياة تسير بالصبى الى الشيخوخة ..

◆ **أبدع** « بروست » ـ فى قصته التى سماها (الزمن المستعاد) ـ فى وصف تلك الدهشة التى تعرونا حين نصادف رجالا أو نساء كنا قد عرفناهم فى صباهم ، ثم تقطعت بيننا وبينهم أسباب الاتصال ثلاثين أو أربعين عاما .. اذ قال :

• لم أدر في البداية كيف تعذر على التعرف سراعا على رب البيت وضيوفه ، فقد بدوا لى وكأنهم تنكروا تحت شعور مستعارة، ونثرت على وجوههم مساحيق «الماكياج» فغيرت مظهرهم تغييرا تاما ٠٠ كيف لا وقد صارت لرب البيت لحية بيضاء ، وصار يجر قدميه وكأنهما قد أثقلتا بنعلين من رصاص !٠٠ حتى شاربه ابيض لونه ، كما لو كان قد تراكم عليه الصقيع ٠٠

« ومع ذلك ، فقد كنت أراه نفس الصديق الذى عرفته فى الصبا ، غلاما كنت أدرى انه يناهزنى عمرا ، لكننى كنت اخال السنين لا تمضى بنا ٠٠ فلما سمعت بعضهم يقول ان شكله يناسب سنه ، أذهلنى أن استبنت على وجهه أسارير لا تبدو الا على وجوه الكهول !٠٠ عندئذ فقط أدركت انه قد شاخ فعلا ، وان الحياة تجعل من الصبية بعد عدد كاف من السنين ٠٠ شيوخا ! »

شيخوخة الاقران تنبهنا الى فعل السنين بنا

◆ **والواقع** ان تقدمنا فى السن عملية يبلغ من غرابتها اننا كثيرا ما نأبى أن نصدق ان الايام تقوى على أن تنال منا كما تنال من سوانا ٠٠ فاذا ما نالت منا ـ برغم ذلك ـ فاننا لا نشعر بما أصاب وجوهنا وقلوبنا ، الا بمشاهدة الآثار التى أحدثها الزمن بمن هم فى أعمارنا ، سواء من الرجال أو النساء ٠٠ ذلك لاننا نظل فى نظر أنفسنا شبابا ، وتظل آمال الشباب ومخاوفه تساورنا ، دون أن نفطن الى تطور أوضاعنا بالنسبة لشباب الجيل الناشىء ٠٠ حتى لتدهشنا أحيانا بعض كلمات عابرة ٠٠ كأن يسمع الكاتب المسن كاتبا ناشئا يناديه بيا « أستاذى » مع انه يخاله فى مثل سنه ومن أقرانه ٠٠ وأقسى من هذا ايلاما أن تكون فى الخامسة والخمسين مثلا ، أشيب الشعر ـ دون القلب ـ وتسمع من يقول عن فتاة شابة : « جنون منها أن تتزوج من رجل مسن أشيب الشعر ، فى الخامسة والخمسين ! » ٠٠ ٠٠

العاصفة تكشف فعل الخريف !

◆ **ولكن** .. متى تبدأ الشيخوخة ؟

ان الانتقال من الشباب الى الشيخوخة يتم فى بطء شديد ، حتى ان الشخص منا لا يكاد يفطن الى التغيير الذى يعتريه !.. ذلك ان الخريف – خريف السنة وخريف العمر على السواء – يزحف أحيانا مستخفيا ، متواريا وراء خضرة «الصيف» الباهتة، الاخذة فى الذبول .. وفجأة ، تهب عاصفة هوجاء ذات صباح من أيام نوفمبر ، فاذا هى تمزق القناع الذهبى عن وجه الشتاء .. واذا أوراق الشجر التى ظنناها حية تبدو ميتة ، لا تشدها الى الاغصان سوى بضعة خيوط واهنة .. وهكذا تكشف العاصفة السوء ، وان لم تكن هى مصدره أو سببه !

والمرض هو العاصفة التى تجتاح غابة البشرية .. فقد يبدو الرجل أو المرأة فى فتوة الشباب ، رغم تقدمه فى السن ، فلا نملك أنفسنا من الاعجاب بما يبديه من نشاط ، وحضور ذهن، ولباقة حديث.. ولكن يكفى أن يصيبه مرض طارىء ، حتى نتبين فجأة ان العاصفة قد اجتاحته .. فان المناسبة التى لا تخلف بالشاب أكثر من صداع أو برد خفيف ، تصيب صاحبنا بنوبة قلبية ، أو بالتهاب رئوى .. وفى أيام قلائل ، نرى وجهه يتجعد، وظهره ينحنى ، وعينيه تفقدان بريقهما !

وهكذا قد نتعرض للحظة تحيلنا الى كهول ، فندرك فجأة اننا قد ودعنا الشباب من أمد طويل وغدونا شيوخا ..

خط الظلال .. بين الاربعين والخمسين !

◆ **وقد** تسأل : فى أية فترة من حياتنا تجتاحنا عاصفة الخريف هذه ؟

يقول « كونراد » ان المرء اذا بلغ الاربعين ، لاح له خط من الظلال يجتازه وهو يرتجف ، وبنفسه يقين من أن عوالم الشباب الفاتنة قد أوصدت دونه حتى نهاية الاجل !

ونحن فى عصرنا هذا ، ندفع الخط الوهمى الى حوالى سن الخمسين ، ولكنا لا نقوى على محوه ، فهو موجود وان تأخر ٠٠ وقد يظل من يتجاوزونه نشيطين ، حاضرى الذهن ، ولكنهم عند اجتيازهم اياه يستشعرون الرجفة الخفيفة ، ولحظة القنوط العابرة ، اللتين وصفهما « كونراد » ٠٠

ومما يؤثر عن « ستندال » انه حين أشرف على الخمسين ، أعد ــ فى عناية ودقة ــ قائمة بأسماء النساء اللواتى أحبهن !٠٠ وكان فى العشرين من عمره قد تصور المغامرات الغرامية بخياله مرارا ، ومارسها بالفعل مرارا أخرى ، بفضل ما كان له من دراية بأساليب الهوى والغزل ومن ادراك لقيمة المشاعر ٠٠ ولكن النساء اللواتى هفا الى حبهن حقيقة لم يوجدن فى غير الكتب التى ألفها ، اذ كن من خلق قلمه ٠٠ فلما عبر « خط الظلال » ، بكى حسرة على أولئك العشيقات اللاتى لم يحظ بهن !

وهكذا الكاتب ، اذا ما بلغ الخمسين استعرض ما أنجز من أعمال ، وعندئذ ينتابه شعور بأنه لم يكتب بعد كل ما لديه من أفكار ، وأن الكتب التى أصدرها ليست سوى بعض ما يود أن يصدر ٠٠ ويهوله أن يتصور الزمن الذى يتطلبه اصدار تلك الكتب ، فتخور عزيمته ، ويهلع قلبه٠٠ وهذه شيمة الشيخوخة!

أسوأ ما فى الشيخوخة تخاذل الروح

◆ **على** أن الشيخوخة ليست مجرد شيب وتجاعيد وشعور بأن الفرص قد فاتت ، ودور الانسان قد انتهى وآن له أن يخلى المسرح للجيل الناشىء ٠٠ الخ ــ ومن ناحية أخرى ليس الضعف الجسدى هو أسوأ ما فى الشيخوخة ، وانما أسوأ ما فيها هو تخاذل الروح وتقاعسها ٠٠ **فالمرء اذا ما اجتاز « خط الظلال »٠، افتقد الرغبة فى العمل أكثر من افتقاده القدرة عليه ٠٠ وهل فى امكان الانسان بعد خمسين عاما من التجارب والخيبة أن يظل**

محتفظا بالفضول الطاغي الذى يتملك الشباب ، وبالرغبة فى أن يعرف وأن يفهم ، وبالقدرة على أن يحب بجماع قلبه ٠٠ الى آخر المتع الذهنية والحسية التى يتيحها الشباب ؟

اننا حين نتخطى الشباب الى الكهولة ، نستبدل متعا بمتع ، وكفايات بكفايات، فنجد مثلا خلف ذلك الفاصل الوهمي عالما آخر تغمره أضواء هادئة ، تستبين الاعين فيها الاشياء والناس على حقيقتهم ، اذ تكون قد تخلصت من أضواء الشهوة والرغبة ٠٠ الاضواء البراقة اوهاجة التى كانت تبهرها وتعشيها فتحجب عنها حقائق الامورر ٠٠

ومن الكهول من يقول بعد أن يجتاز خط الظلال ويرى الا... على حقيقتها : « ما الفائدة ؟ » ٠٠ ولعل هذه أخطر عبارة تصدر عن المكتهل ٠٠ اذ أنها تستطرد فى الاتساع والتعميم ٠٠ فبعد أن يقول : « ما فائدة الكفاح ؟ » ، يجد نفسه مسوقا الى أن يقول : « وما فائدة الخروج من البيت ؟ » ٠٠ ثم : « ما فائدة الخروج من غرفتى ؟ » ٠٠ ثم « ما فائدة مغادرة فراشى ؟ » ٠٠ وينتهى الى أن يقول : « وما فائدة الحياة ؟ » ٠٠ فتتفتح له أبواب الموت !

لا بد من الشيخوخة مهما طال العمر !

والواقع ان كل كائن حى ــ فيما عدا الحيوانات ذات الخلية الواحدة ــ لا بد أن يبلغ الشيخوخة فى سن معينة من حياته ، تختلف باختلاف نوعه وفصيلته ٠٠ فمن الفراشات ما تلقى منيتها بعد ساعتين تقضيهمـــا فى لذائذ الهوى ، فى حين أن السلحفاة والببغاء ــ مثلا ــ يعيشان قرنين من الزمن !٠٠ فما السر فى هذا التفاوت ؟ ولمـــاذا يمتد الاجل ببعض الاسماك ــ كالبلطى والحربة ــ ثلاثمائة عام ، فى حين انه لم يمهل «بايرون» أو « موزار » سوى ثلاثين ؟٠٠ ان علم ذلك عنـــد ربك !٠٠ **وقد يكون من الصحيح أن متوسط عمر الانسان منذ مائة عام**

كان أربعين سنة ، وانه استطال فى أرقى الدول مدنية - فى عصرنا - فبلغ الستين ، وأن من المحتمل اذا لم تعق الحروب والثورات تقدم علم الصحة ، أن يغدو المتوسط العادى لعمر الانسان فى القرن القادم مائة سنة! ٠٠ قد يكون هذا كله صحيحا ، ولكنه لا يمس موضوع الشيخوخة ٠٠ اذ أن طول العمر لا يعنى التخلص منها ، بل لا بد منها مهما طال الاجل !

الصراع بين الشباب والشيخوخة !

◆ **وكلما** كان الانسان قريبا الى الطبيعة والفطرة ، كلما ازدادت قسوته على الكهول ٠٠ ولقد صور لنا « كبلينج » فى (كتاب الغابة) كيف أن الذئب المكتهل يظل محتفظا باحترام رفاقه طالما كان قادرا على اقتناص فريسته وقتلها! فاذا حان اليوم الذى يعجز فيه عن ذلك ، حانت معه نهاية سلطانه وسطوته ٠٠ كما وصف لنا الكاتب نفسه كيف ان الذئاب الشابة خلصت الذئب العجوز - الذى فقد أسنانه - من شقوته بأن قضت عليه !

وأهل البداوة من الناس كالحيوان فى هذا الصدد ٠٠ ففى جزر البحار الجنوبية مثلا ، يجبر القوم كهولهم على أن يتسلقوا أشجار جوز الهند الشاهقة الارتفاع ، ويروحون يهزون تلك الاشجار ، فاذا استطاع الكهول أن يتفادوا الوقوع حقت لهم الحياة ٠٠ أما اذا وقعوا ، فسرعان ما ينظر القوم فى أمرهم ، ويبرمون فيهم قضاءهم !

وقد تبدو مثل هذه العادات وحشية ، ولكن فى حياتنا المتحضرة ما يشبهها: فما الخطابة فى المحافل العامة، والمحاضرات، والتمثيل على المسرح ، سوى اختبارات كاختيارات الصمود على أشجار جوز الهند ، يحكم خلالها الرأى العام على السياسى ، أو المؤلف ، أو الممثل !٠٠ فاذا قيل انه « انتهى » ، كان ذلك بمثابة الحكم بموته ٠٠ لان اعتزاله لن يلبث أن يؤدى اما الى الفقر ، واما الى القنوط والمرض !٠٠ والحروب بالنسبة للقائد هى

أشجار جوز الهند .. وكذلك الصبايا الحسان بالنسبة للشيوخ المتكالبين على الفسق والفجور ، يعتبرن بمثابة اختبار لمدى شيخوختهم أو شبابهم ..

مجتمعات تمجد الشباب .. وأخرى تمجد الشيوخ

ولا تزال القوة الجسدية هى الحكم الذى ينظم العلاقة بين الاجيال فى أوساط الفلاحين ، حيث الحياة أقرب ما تكون الى الفطرة .. كذلك نرى فى المدن ان تمجيد الشباب أرجح فى أويقات الثورة والانقلابات السريعة ، لان الشباب أقدر على الاستجابة وتشكيل نفسه بأسرع مما يستطيع الكهول .. فالشباب يمثل القوة المجردة فى أظهر آياتها ، وهو الذى يدعم قوة أصحاب الدعوات ـ كهتلر ـ ممن يرسمون أهدافا بسيطة ، ويبشرون بآمال جسام ..

وعلى النقيض من ذلك ، نجد أن الحضارات العريقة التى طال عليها الامد ، تجنح الى الانصياع لسلطان الشيوخ ، اذ أن الخبرة والتجربة تغدو من الميزات العظيمة القيمة فى الاوساط التى لم تتعرض لاى تغير منذ آجال طويلة .. وقد كانت الصين ـ فيما مضى ـ تخلع على الكهول امتيازا وديا كريما ، اذ كانت ترى انه « لا ينبغى أن يرى رجل أشيب وهو يحمل متاعا فى الطريق » .. ولكن أمثال هذا الشعور الرفيق يتضاءل فى الصين الحديثة ..

◆ **والشيخوخة** تجلب معها صاعبا لا حصر لها ، وان كنت لا أراها مستحيلة التذليل .. غير ان تذليلها يتطلب مواجهتها فى اعتداد .. وسأحاول أن أرسم هنا صورة كاملة ، صريحة ، لمساوىء الشيخوخة ، لانصح قرائى بأن لا يرهبوها .. مثلى فى ذلك مثل الطبيب الذى يتبين فى مريضه علة خطيرة تتطلب احتياطات معينة ، فيعمد الى مواجهته بما سيترتب على تراخيه فى العناية بنفسه ، ثم يعقب قائلا : « على أن شيئا من هذا لن يحدث اذا اتخذت الاحتياطات التى أوصيك بها » .

وأول المساوىء يتمثل فى أن الجسد المكتهل أشبه الاشياء بالمحرك القديم ٠٠ يستطيع أن يواصل العمل اذا عولج بعناية ، وفحص، وأصلح ٠٠ ولكنه مع ذلك لا يعمل بنفس قوته الاصلية، بل يجب تفادى الضغط عليه ٠٠ وكذلك الانسان ، يشق عليه العمل بعد سن معينـــة ، الا فى حالات استثنائية ـ كحالة « فولتير » اذ ألف « كانديد » وهو فى الخامسة والستين ٠٠ و « فاجنر » اذ أتم « بارسيفال » وهو فى التاسعة والستين ! ٠٠ ومما يؤثر عن « لاروشفوكو » قوله : « ان الشيخوخة طاغية تحرم الانغماس فى ملاذ الشباب ، وتعـــاقب من يجترىء على العصيان بالموت !٠٠ »

الحب فى الشيخوخة

◆ **والحب** أول الملاذ المحرمة على الشيخوخة ٠٠ فكبار السن من الرجال والنساء يعسر عليهم أن يبعثوا الحب الشاب فى قلوبهم ، مهما كانت أرواحهم وقواهم ٠٠ فاذا رأيت حبا متبادلا بين شيخ وشابة ، أو بين كهلة وشاب ، فثق أن للاحترام ، والاعجاب وانكار الذات ، نصيبا كبيرا فى قيامه ٠٠ وفى قصص بلزاك أمثلة كثيرة للحب « المفجع » الذى يتورط فيه الشيوخ ٠٠ فترى العاشق منهم يدمر نفسه تهالكا على كل شابة لعوب تعرف كيف توقظ فى صدره أملا مجنونا ، وتغريه بأن «يشترى» باغداق المال والهدايا عليها ما كان يحظي به فى شبابه بمحض جاذبية رجولته !٠٠ وقد خلف لنا « شاتوبريان » ـ الذى عرف تمام المعرفة هذا الضنى والعذاب ـ مؤلفا رائعـــا هو « حب الشيخوخة » ، وصف فيه هذه الحال أبشع وصف ٠٠ فأظهر حب الشيخوخة على حقيقته ، فى صورة لوعة طويلة ، حزينة ، تتملك عاشقا يعز عليه أن يشعر بكبر السن ٠٠ أو بالاحرى يعز على قلبه أن يشيخ ٠٠ فالحب فى الشيخوخة « عقاب » يحل بأولئك الذين عاشوا طيلة حياتهم مولعين بالحب !٠٠ أما النساء

اللواتى أحببن كثيرا فى شبابهن ، فعقابهن أن تسمع المرأة منهن شابا يقول معلقا على تعلقها بالحب فى كهولتها : « يقولون انها كانت فى شبابها رائعة الجمال ! »

وهناك حالة عكسية ، هى حالة الكثيرين من الناس الذين يشيخ قلبهم قبل الاوان : اما لاخفاق شهوتهم البدنية فى الهاب عواطفهم بالدرجة الكافية .. أو لان تعقلهم وادراكهم لقصرالحياة قد أضعف عندهم الشهوة وأوهن العاطفة !

والحب فى الشيخوخة ينطوى غالبا على شىء من الاثرة ، التى قد تبلغ عند بعض الكهول درجة تدعو الى الدهشة ، كما يبدو لنا من قصة « أفيل » مع « يونيس » .. فلقد قضى معها حياته كلها . أحبها وهى فى السابعة والعشرين ، وما زال بها حتى تركت زوجها ، دون أن يستطيع الزواج منها ، لانه كان متزوجا! .. فهجرت أسرتها ، وأولادها ، وأصدقاءها ، ومكانتها ، وأوقفت حياتها على متعته ، وعمله .. وأعقبت حبهما صداقة طويلة .. حتى انهما ظلا يلتقيان يوميا وهو فى سن الثمانين !.. وحين ماتت « يونيس » فى النهاية لم يبق من معارفهما من لم يرث لحال « افيل » ، اذ ظنوا ان النكبة ستقضى عليه .. ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، بل انه تمالك نفسه فى الحال .. ذلك لان الشيخوخة لم تؤد الى فتور الحب عنده فحسب ، وانما قتلت فيه الشعور بالالم أيضا !

هذه الاثرة « الطبيعية » التى تتملك الشيوخ . تحول دون قبول الشباب لصداقتهم ، اذ يفتقد الشباب فيهم تلك « الحرارة » التى يصعب أن تتوفر مع ما للشيوخ – بحكم سنهم – من حكمة مبنية على التجارب والاختبارات ..

البخل والتقتير انواع ..

◆ **ومن** مساوىء الشيخوخة البخل ، الذى مبعثه فى الغالب ادراك المكتهل أن كسب العيش لن يغدو ميسرا له فى شيخوخته.

وان العمل الشــاق سوف ينهكه ٠٠ ومن ثم يقبض يديه على ما لديه ، ويتحايل على اخفاء ماله فى شتى « المخابىء » ، خشية الاحداث !٠٠

على أن خوف الحاجة ليس الداعي الاوحد للتقتير ، كما ترى عند مطالعتك قصة بلزاك الخالدة « أوجينى جرانديه »٠٠ أو على حد تعبير الناقد القديم (لابروبير) : « **ليس خوف العوز هو الذى يجعل الكهول يضمون قبضاتهم على المال ، اذ أن منهم من يتوفــر لديه من المال ما لا سبيل له الى حصره ٠٠ ثم ، كيف يخشون الحرمان من متع الحياة ورفاهيتهــا ، وهم يحرمون أنفسهم طواعية بالاستجابة لنوازع الشح ؟** »

انما الاصح انها رذيلة تخلقها الشيخوخة ذاتها ٠٠ ولعل الكهول يرون فيها وسيلة لاشباع حاجتهم الغريزية الى ملهاة يشغلون بها أنفسهم !

عند ما ينسى الشيوخ شبابهم !

◆ **ومن** مساوىء الشيخوخة أيضا ازدياد « أخطاء الذهن » ، اذ يعجز الكهل عن ادراك الافكار الجديدة ، لقصور قدرته على هضمها واستيعابها ٠٠ ومن ثم يتشبث فى عناد واصرار بالافكار التى كان يعتنقها فى مرحلة النضوج ! ويداخله الغرور فى أنه قادر على حل أية معضلة ٠٠ وتثيره المعارضة فيرى فيها لونا من عدم الاحترام ، ولا يفتأ يقول : « ما اعتدنا قط فى أيامنا أن نعارض من يكبروننا » ، وكأنما نسى أن جده كان لا يفتأ يوجه اليه نفس هذه الكلمات فى صغره ! وهكذا يعجز الشيخ عن أن يساير الاحداث والزمن ، اذ تعوزه القدرة على أن يحمل نفسه على الاهتمام بما يجرى حوله ، فيتحول الى قصص ماضيه يرويها مرارا وتكرارا حتى يسأمها الشباب الملتفون حوله ، فينتهى بهم الامر الى تحاشى مجالسته ٠٠ ويسلمونه بهذا الى الوحدة ، وهى شر بلايا الشيخوخة !٠٠ وحين يرى المكتهل أصدقاءه الاقدمين

وأقاربه الذين ألفهم ، يختفون واحدا بعد الآخر ، ولا يجد من يحل محلهم ، تضيق فى وجهه « صحراء » العمر ، ويبدأ يستحث الموت أن يوافيه ..

الشيخوخة كما وصفها تولستوى ..

وقد أبدع « تولستوى » فى رسم صورة امرأة لم تعرف كيف تتمشى مع تقدمها فى العمر ، وتتقبل الشيخوخة ، فقال : « لم تكد جثة ابنها تهدأ فى مثواها ، حتى مات زوجها ، فأحست بأنها غدت منسية فى الدنيا على غير انتظار .. غدت مخلوقا بلا هدف أو غاية .. كانت تأكل وتشرب وتنام وتجلس ، ولكنها لم تكن تحيا .. اذ لم تكن الحياة تثير فيها أى شعور !

« ولم تعد تنشد من الحياة سوى الراحة ، وما كان لها أن تجد الراحة فى غير الموت .. ولكنها كانت مسوقة الى أن تحيا ـ وأن تستغل حيويتها ـ حتى يواتيها الموت .. ومن ثم بدأ يتمثل فيها كل ما يلاحظ فى الاطفال الصغار والكهول الهرمين، ولكن بدرجة كبيرة ظاهرة .. لم يعد لحياتها هدف ظاهر يميزها ، بل انصرفت ـ على ما بدا ـ الى ممارسة ميولها وأهوائها الفردية .. كانت تشعر بالضرورة تدفعها الى أن تأكل وتشرب ، وأن تنام قليلا ، وتفكر قليلا ، وتتكلم ، وتذرف بعض الدمع ، وتؤدى شيئا من العمل ، وتفقد حلمها بين آن وآخر ، الى غير ذلك .. لمجرد أنها أوتيت معدة وعقلا وأعصابا وكبدا وعضلات! فهى لم تك تفعل كل هذا لان ثمة محفزات خارجية تدعوها الى فعله .. لم تكن تفعله كما يفعله أولئك الذين فى عنفوان الحياة ، حين يحفزهم الهدف الذين يكافحون من أجله الى أن يبذلوا كل قواهم فى سبيل بلوغه ، وان لم يفطنوا الى ذلك .. وانما كانت تتكلم لمجرد شعورها بالضرورة الطبيعية لان تحرك لسانها وتمرن

رئتيها ٠٠ وكانت تبكى كالطفل لانه كان لزاما عليها أن تتمخط وأن تندى أعصاب الدمع فى عينيها ٠٠ فالهدف والغاية بالنسبة لسواها من المتمالكين كل قواهم ، لم يكونا سوى مجرد عدر وعلة بالنسبة لها ٠٠

« وأدرك أهل البيت انها فى مرحلة تشبه مرحلة الطفولة ، وان لم يذكر أحد شيئا من هذا ، بل عمدوا الى محاولة ارضاء رغباتها بكل الوسائل ٠٠ دون أن يبدو عليهم ما يوحى بهذا الادراك ، الا لماما ، وفى نظرات مختلسة ، متبادلة ٠٠ وكانت هذه النظرات تحمل أيضا معنى آخر ٠٠ كانت تعلن أن صاحبتهم قد أدت دورها فى الحياة ، وان المخلوق الذى كانوا يرونه أمامهم لم يكن المرأة التى عرفوها وعاشروها !٠٠ وانها على أى الحالين منتهية الى نهاية واحدة ، ومن ثم فمن بواعث السرور أن يرضخوا لها ، وأن يكبحوا أنفسهم من أجل هذه التعسة التى كانت يوما حبيبة اليهم ، وكانت مثلهم مفعمة بالحياة ، فباتت اليوم ٠٠ ميتة حية ٠٠ أو حية ميتة ! »

ذلك ان الشيخوخة تفت من قوانا ، وتسلبنا متع الحياة واحدة بعد أخرى ، وتهصر منا الروح والجسد ، وتجعل المغامرة والصداقة عسيرتى المنال ، وتحيل الحياة الى « فترة ارتقاب » يشيع فيها التفكير فى الموت ظلاما وحلكة ٠٠!

التحايل على اخفاء الشيخوخة بالزينة !

◆ **ويتألف** فن الحياة فى الشيخوخة من شقين : الصراع ضد مساوئها ٠٠ والعمل على أن تكون خاتمة الحياة سعيدة برغم هذه المساوىء !٠٠ وهنا يتساءل المرء : هل هذا الصراع وهذه الخاتمة السعيدة ميسوران بالرغم من مهاجمة الشيخوخة لجسدنا؟ ٠٠ أفليست الشيخوخة تطور بدنى طبيعى لا سبيل الى تفادى

زحفه؟ .. أفليس الانسان فى خريف العمر كالشجرة فى خريف الزمن، تحاول أن تتشبث بأوراقها، وأن تشدها الى فروعها، ولكن زوابع الخريف لا تلبث فى الموعد الموعود أن تطيح بالاوراق، وتحيل الشجرة الى هيكل أسود ..؟

على أن الحضارة والتجربة علمتا الناس كيف يكافحون « مظهر » الشيخوخة ان لم يقووا على الشيخوخة ذاتها .. وتقوم الزينة بدور رئيسى فى هذا الكفاح، فترى المكتنلات يبدين بثيابهن اهتماما يفوق ما تبديه الشابات، ويغالين فى التحلى بالجواهر البراقة التى تجتذب الانظار فتصرفها عن نواحى النقص فى الجسد !.. وهكذا نجد أن كل ما يجعل من المتعذر التفرقة بين الشباب والشيخوخة من عمل المدنية .. فالمساحيق والخضاب تجعل الشابات وجداتهن سواء، وتبدى المريضات فى مظهر الموفورات الصحة .. ودور الازياء وبيوت التجميل تبتكر من المستحدثات - « المودات » - ما يفتح أبواب الامل للمكتهلات .. وانك لتجد فن اختيار الثياب يتجه - بعد سن معينة - الى اخفاء عيوب الجسد، وهذا لون من ألوان الادب !.. وما الحجاب الا ابتكار رائع لتمويه الصورة واضفاء مخايل الجمال على لابسته .. وهكذا كل أنواع الزينة ، أحجبة وأقنعة لاخفاء عبث الايام بقدر الامكان ..

تجارب العلم لتجديد الشباب !

◆ **ولكن** ·· أترى العلم مستطيعا يوما أن يصد الشيخوخة عن تقويض أبداننا ؟·· وهل يتاح له يوما أن يخلق نافورة للشباب نسترد اذا اغتسلنا فى مائها شبابنا ؟·· **لطالما قيل ان عمر المرء لا يعرف بشهادة الميلاد ، وانما بحال شرايينه ومفاصله؟ ·· فابن الخمسين عاما قد يكون أكثر اكتهالا من ابن السبعين ، ومن ثم فلا سبيل الى رد المرء الى شبابه الا بتجديد خلاياه وتنشيط وظائفها** ، وقد استطاع علماء الحياة أن يحققوا هذا بالنسبة لبعض الحيوانات الدنيئة ·· وعلى ضوء التجارب ، قد نجد من الجائز أن شيخوخة خلايانا ترجع الى تراكم افرازاتها ، وعندئذ يكون بوسعنا أن نطيل أعمارنا بازالة هذه الافرازات ··

ولقد أجريت تجارب لرد الحيوان الى الشباب بوساطة تطعيم بعض الاعضاء ، أو الحقن ببعض الهرمونات ·· فاذا الفيران التى تعالج بهذه الطريقة تسترد فتوتها وقوتها ونشاطها الجنسى لمدة شهر من الزمن ·· وأمكن تكرار العلاج والوصول الى هذه النتيجة أربع مرات على الحيوان الواحد ·· وبهذا تسنى اطالة متوسط العمر العادى للفأر مرة ونصف مرة ، عما كان قبلا ·· على ان آثار هذا العلاج تتضاءل ، وأمده يقصر ، كلما تكرر ··

وتعتبر تجارب الدكتور « فورونوف » من أشهر التجارب المعروفة ، وان لم تكن نتائجها فى الانسان بمثل الوضوح الاكيد الذى أسفرت عنه فى الكباش ·· على أن كل هذه المحاولات تبدو تافهة اذا علمنا ان أى انسان يستطيع – فى عصرنا هذا – أن يعيش الى الثمانين ، لو انه حرص فى حياته على نهج صحى سليم، مستقيم ·· أفترانا نطمع فى العيش الى أبعد من هذا ؟

الموت « مربية » جمعت بين العطف والحزم !

◆ **ان** المرء اذا بلغ الثمانين يكون قد خبر كل شىء : الحب ونهايته ·· الطموح وفتوره ·· المعتقدات الطائشة والحقائق

التى تصححها ٠٠ وليس خوف الموت بالشىء المهول فى ذاته ٠٠ فما الحياة الا عرض سينمائى مستمر، كذلك الذى يرى فى بعض دور السينما ، حيث يستمر البرنامج متواليا ، متكررا فى تعاقب ، وحيث يحق لكل رائد أن يظل فى مقعده ما شاء أن يظل ٠٠ فقد أثبت الواقع ان الرائد لا يلبث أن يغادر الدار اذا ما عادت المناظر التى سبق أن رآها الى التوالى على الستار ٠٠ وهكذا الحياة ، فان الاحداث تتكرر بعينهـا كل ثلاثين عاما ، فتغدو مبعثا للسأم ٠٠ ولا يلبث النظارة أن يغادروا الدار واحد بعد الآخر !

ولقد اجتمع فريق من المؤلفين الانجليز يوما لتكريم « هـ٠ ج٠ ويلز » حين بلغ السبعين من عمره ، فلما وقف فيهم خطيبا قال ان المناسبة ذكرته بالشـعور الذى كان يداخله كلما قالت له مربيته وهو طفل : « آن موعد نومك » ٠٠ فالطفل يحتج عادة ويتذمر اذا حان موعد نومه ، وان كان يشعر فى قرارة نفسه أن النعاس لن يلبث أن يواتيه، وانه أشد مايكون حاجة الى الراحة٠٠ واستطرد « ويلز » قائلا : « والموت مربية تجمع بين العطف والحزم ، فاذا حان الموعد ، أهابت بنا أن قد آن موعد النوم ٠٠ وقد نتذمر أو نحتج ، ولكننا ندرك عن يقين أن موعد الراحة قد أتى ، واننا ـ من أعماق قلوبنا ـ نتوق اليه ! »

العناية بالصحة فى الشباب تصون من الضعف فى الكبر

◆ **ولو** تقبلنا دون كثير غضاضة أن أمد الحياة محدود ، لحق علينا أن نحرص على الاحتفاظ بصحة أجسامنا وسلامة عقولنا حتى نبلغ نهاية الطريق ٠٠ وهذا أمر ممكن قطعا ، فليس لزاما أن يكون الكبر مصحوبا بالمساوىء العديدة التى ذكرناها ، وكم من حيوان انتقل من الحياة الى الموت دون ما تغير شامل فى تكوينه الطبيعى ٠٠ ولا شك أن الجسد الذى يعنى صـاحبه بمرانه ورياضته يظل محتفظا بمرونته وروائه طويلا ٠٠ ومن ثم فالسر

يتمثل فى حرص المرء على أن لا يهمل نفسه ٠٠ **فالمران والانتظام يفعلان المعجزات ، وكم من رجال فى السبعين من العمر يمارسون المبارزة والملاكمة والسباحة ولعب التنس ! ذلك لانهم كانوا من الحكمة بحيث مارسوا رياضتهم المفضلة بانتظام حتى آخر لحظة ممكنة ، ودون انقطاع أو اقبال لمجرد ارضاء نزوة عابرة ٠٠**

وليس من الممكن اعتراض زحف الشيخوخة اذا ما بدأ ، وان كانت النفوس تهفو الى أن تنكر على الكبر حق السيطرة على أجسادها، ولو ان هذا الانكار عسير٠٠ وفى هذا يقول (مونتين) « ليس أسهل من اطالة علل الانسان وأمراضه ، وذلك بالاسراع فى تقبلها والتمكين لها٠٠ على أننى أفضل أن تطول بى الشيخوخة، عن أن أشيخ قبل أوانى بسبب المرض ! »

لا عيب فى أن يتبادل عجوزان الحب !

◆ **وكما** انه لا ينبغى للمرء أن يستسلم للتداعى البدنى قبل الاوان ، كذلك ينبغى عليه أن يقاوم التداعى العاطفى ٠٠ فالقلب كالجسد فى حاجة الى المران والرياضة ، ومن الطبيعى أن ايقاظ المشاعر ليس أمرا فى يد الانسان ، ولكن ، لم يطالب المرء بأن ينكر على نفسه المشاعر التى يستمرئها – ويمكن أن يمارسها صادقا – لمجرد كبر السن ؟.. انما يعاب ذلك على المكتهلين اذا هم نسوا شيخوختهم وتهوروا أو ارتكبوا الحماقات ٠٠ ولكن لا عيب مثلا فى أن يتبادل الحب الصحيح عجوزان ، يرى كل منهما فى الآخر نفس الميزات التى طالما كان يعجب بها فى شبابه ٠٠ فالحنان ، والعطف ، والاعجاب ، لا تعرف عمرا ولا سنا ٠٠ بل كثيرا ما يحدث أن يخلف عواطف الشباب الملتهبة اذا ما خبت، حب متنسك زاهد جميل ، فيتبخر مع ضعف الشهوة البدنية كل جموح حسى، وتخبو مع انطفاء الشباب كل غيرة، ويضمحل التهور باضمحلال قوة الجسد ٠٠ فتقوم على أنقاض الشباب العاصف عاطفة حب رزين بين شيخين ٠٠ مثل ذلك مثل النهر الذى

يتخطى الصخور الوعرة فى اندفاع جامح قرب منبعه ، لكنه كلما اقترب من مصبه فى البحر ازدادت مياهه صفاء وهوادة فى استرسالها ، فتنعكس على صفحتها صور الاشجار القائمة على الضفتين ، والنجوم التى ترصع سماء الليل ٠٠ !

◆ ومن غراميات الشيخوخة ما يضارع غراميات الشباب صدقا وتدلها ، اذ تجمع بين طهر الصداقة ولهفة هوى الشباب الملتهب ٠٠ ولقد كتب « فيكتور هيجو » يذكر كيف اهتزت عواطفه حين رأى « مدام ريكامييه » و « شاتوبريان » يلتقيان لقاء المحبين فى شيخوختهما ، والاولى عمياء والثانى مشلول ! :

« ٠٠ كان المسيو « دى شاتو بريان » يحمل فى الساعة الثالثة من بعد ظهر كل يوم الى جوار فراش مدام « ريكامييه » ٠٠ وكم كان لقاؤهما مؤثرا ! كانت المرأة ، التى لم تعد قادرة على الابصار، تمد يدها تسعى الى الرجل الذى لم يعد قادرا على الحس ٠٠ وتلتقى يداهما ٠٠ يا سبحان الله !٠٠ كانا كلاهما على شفا الموت ، ومع ذلك فقد ظل كل منهما يحب الآخر حبا رائعا ! »

وكان « دزرائيلى » يتحامل على نفسه فى كل مساء الى المجتمعات ليحظى بنظرة الى « ليدى برادفورد » ٠٠ ولا شك فى أنها كانت سبب بعض آلامه ، ولكنه كان مدلها فى هواها ، لا سبيل الى شفائه منه ٠٠ وخليق بالنساء أن يستخدمن أنوثتهن فى استثارة أهواء الكهول ، ليملأن أيامهم الاخيرة بانفعالات الشباب العذبة ٠٠ وكم من حياة عاطفية ظن أنها انقضت الى الابد ، فاذا بها تتأجج فجأة بسعير مدهش !

حب الاحفاد أعظم متع الشيخوخة

◆ **على أن** الحياة العاطفية لا تتألف من أحاسيس الهوى وحدها ٠٠ فحب العجوز لاولاده وأحفاده قد يشغل أحيانا كل أفقه العاطفى ، فما أبهج أن يرى أبناءه وبناته يشقون سبلهم فى الحياة ٠٠ اننا اذ ذاك نستمتع بمسراتهم ، ونألم لآلامهم ،

ونحب حين يحبون ، ونساهم معهم فى كفاحهم وصراعهم .. وكيف نظن أننا صرنا منبوذين من الحياة ونحن نراهم يؤدون أدوارنا فيها ؟.. كيف نشقى حين يسعدون ؟.. وهل هناك متعة أعظم من ادخال الهناء على نفوس أطفالنا ، اذا لم تعد الحياة قادرة على أن تمدنا بمسراتها الكبرى بسبب الشيخوخة ؟

والاجداد عادة أكثر انسجاما مع أحفادهم منهم مع أبنائهم ، اذ أن العجوز اذا ما اعتزل الحياة النشطة ، ارتدت اليه مباهج الطفولة وخلوها من التبعات .. وصار أقرب الى الاطفال ، حتى فى قواه ، فهو لا يقوى على الجرى مع ابنه ، ولكنه يستطيع أن يخطو متعثرا الى جوار حفيده .. فان لخطواتنا الاخيرة نفس وقع خطانا الاولى !

حكمة الشيوخ تجتذب الشباب حولهم

◆ **كذلك** ليس حتما على العجوز أن يعانى الوحدة ، اللهم الا اذا كان لا يعنى بغير نفسه ، أو كان شحيحا ، أو مستبدا يحب التحكم فى الآخرين ، أو ضعيف العقل مخرفا .. أما اذا كافح نقائص الشيخوخة ، وعقد العزم على أن يكون سخيا ، متواضعا ، رفيقا ، فانه يجتذب الشباب فيسعون الى وده ، ويتوقون الى الافادة من خبرته .. وتغدو الصعوبة التى يشغل بتذليلها ، هى أن يروى للشبان تجاربه دون أن يفتات على حماسة الشباب الطبيعية أو يغض منها .. فان التجارب تدلنا على أنه ليست كل حماسة سخفا مأفونا ، ولكن الى جانب الحماسة يلزمنا الصبر فى ارتقاب النتائج التى لا تتأتى عن الكلمات الضخمة الجوفاء ، وانما عن العمل الكادح ، والشجاعة العارمة .. والشباب يتقبل هذه الدروس مرحبا اذا هى صدرت عن رجال جديرين بأن يكونوا مصدر الهام وعلم ..

ولقد اعتدت أن أسعى فى منتصف شهر ديسمبر من كل عام

الى حافة هضبة « لا تيربى » العـــالية ، لأحج الى بيت صغير كبيوت فلاحى العهد الرومانى ، يعيش فيه المسيو « جابرييل هانوتو » الذى لا يزال يصعد سفح الهضبة الشاق بسرعة تفوق سرعة الشباب ، والذى يجمع ذوقه وادراكه بين القدم والجدة .. وكم أنتشى اذ يقول لى : « سأهبك بعض وصفات ترددها كلما احتجت الى عزاء ومواساة .. انها وصفات بسيطة ، وفعالة .. هاك هى : **كل شيء جائز الحدوث .. وكل شيء ممكن أن ينسى .. وكل صعوبة يمكن تذليلها .. وليس هناك من امرىء يحيط بكل شيء فهما .. ولو عرف كل انسان ما يقوله الناس جميعا بعضهم فى بعض ، لما تحدث فى الدنيا أحد الى أى أحد!» .. وهذه الحكمة الاخيرة جديرة بأن تجرد كثيرا من الشائعات غير السارة من شرورها !**

ثم يمضى صديقى الشيخ فى نصـــائحه قائلا : « وفوق كل شيء ، لا تخف قط .. فان العدو الذى يضطرك الى التقهقر يعانى فى اللحظة ذاتها خوفا منك! » .. وهكذا اجتمعت دراسة التاريخ مع طول العمر على تعليم هذا المسن الثقة بالنفس ، والرصانة والهدوء ، بدلا من القنوط وعدم المبالاة .. ولقد رأيتـــــه فى الخامسة والثمانين يرسم الخطط للمستقبل ، ويفكر فى عـدة رحلات طويلة ، ويشيد ويزرع! .. وما أشبهه بالماريشال «ليوتى» حين قال بعد أن فرغ من تنظيم معرض المستعمرات : « والآن .. ماذا أفعل؟ » .. فلما قلت له ان الحكومة لن تلبث أن تجد ناحية للافادة منه ، صاح : « ولكن .. متى ؟ .. اننى سأبلغ الحادية والثمانين عما قليل ، ويجب أن يمكنونى من البدء فى العمل الجديد سراعا »

هذا هو المسلك الصحيح .. « فالشيخوخة » هى « الشعور » بأن الوقت قد تأخر ، والفرص فاتت ، وستار العمل قد أسدل ليخلى المسرح للجيل التالى ! .. ولا شك أن تخاذل الروح ـ وليس خور الجسد ـ هو أسوأ شرور الكبر . ولكن فى وسعنا أن

نكافح هذا التخاذل ، بل ان هذا الكفاح واجب ٠٠ فان الاكتهال يبطىء فى زحفه اذا وجد الناس أسبابا تجعلهم يحرصون على الحياة ٠٠ **ولقد يتبادر الى الاذهان ان الحياة القلقة ، والانفعالات العنيفة ، والكفاح ، والدراسة ، والبحث الذى لا نهاية له ، تؤدى الى انهاك المرء واستنزاف حيويته ٠٠ والواقع ان العكس هو الصحيح ، فلقد كان لكل من « كليمنسو » و « جلادستون » حيوية مدهشة مكنت كلا منهما من أن يتبوأ رئاسة الوزارة بعد أن تجاوز الثمانين ٠٠ فالشيخوخة لا تعدو أن تكون « عادة » سيئة لا يجد الرجل الجم المشاغل وقتا لممارستها وادمانها !**

ولكن ، كيف يتسنى للمرء أن يظل قادرا على أن يجد عملا يشغله ؟٠٠ أو لا يعانى الكبار عنتا فى الحصول على الاعمال ، كلما تقدمت بهم السن ؟٠٠ وهل من الحكمة أن تترك الاعمال الحكومية والاهلية للكهول يديرونها ؟٠٠ الواقع ان الشيوخ كثيرا ما يكونون أقدر على القيادة الموفقة من الشباب ، وقد كان الفريقان المتحاربان فى سنة ١٩١٤ يعهدان بقيادة قواتهما الى عسكريين متقدمين فى العمر ٠٠ والديبلوماسيون والاطباء المكتهلون أكثر خبرة وحكمة من الشبان عادة ، لا تستخفهم أهواء الشباب ، ومن ثم يستطيعون أن يصدروا آراءهم فى دقة وهدوء ٠٠ وقديما قال (شيشيرون) ان « جلائل الاعمال لا تنفذ بقوة الاجسام وسرعة الحركة ، وانما بالمشورة ، والسلطان ، والحكمة الناضجة التى تعتبر من النعم التى يؤتاها الشيوخ ، لا التى يفتقدونها كما قد يظن ! »

طرق تؤدى الى شيوخة سعيدة ٠٠

◆ **وللاكتهال** طريقتان تحيلانه الى مرحلة ممتعة : أولاهما هى عدم الاستسلام للكبر ، ويتبعها أولئك الذين يؤثرون الفرار من الشيخوخة بالانهماك فى النشاط ٠٠ وهذا هو المغزى الذى انتهى اليه « جيته » فى الرواية الشعرية التى وضعها عن خرافة

« فاوست » .. فان هذا الشيخ الذى استرد شبابه ، لم يلبث أن غرر به الحب والطموح .. فأحس انه عبثا يسعى الى السعادة عن طريق الانغماس فى ملذات الشباب .. ولم ينقذه من وطأة يأسه غير .. العمل ! فاذا هـو يعكف ـ وقد أصيب بالعمى وأشرف على الموت ـ على تجفيف بحيرة آسنة وتحويلها الى أرض معشوشبة للرعى .. وبهذا استشعر لذة العمل وبهجة التحرر قبيل موته .. حتى اذا تهيأ « ميفستوفليس » ـ الشيطان ـ ليستولى على الروح التى باعه اياها « فاوست » ، هبطت الملائكة لتحمل الى السماء هذا الجزء الخالد من الرجل التعس .. الجزء الذى لم يفقد قط الايمان بما للعمل من تأثير ومفعول ، فجوزى عن هذا الايمان بالتوبة والخلاص ..

وأما الطريق الثانى الى شيخوخة موفقة ، فهو فى أن يتقبل المرء تطور السن فى رضى وهدوء ، وبذلك يسعد اذ يعترف بأن زمن الكفاح قد ولى ، وانه قد أدى دوره ، وآن له أن ينعم براحة الموت ، فلا داعى لان يعانى مرارة الارزاء ومعـاندة الحظ .. **ومما يؤثر عن « سوفوكل » انه سئل فى كهولته عمـا اذا كان لا يزال يستمرىء متع الحب ، فكان جوابه : « لتحفظنى الآلهة من هذا ! .. لقد حررت نفسى من الحب ، فكأنما تحررت من سيد قاس ، متوحش » !..** ولقد عرفت كهولا لم يتحرروا من جنون الحب فحسب، وانما تخففوا أيضا من مسئوليات المستقبل، دون أن يغاروا من الشبان .. بل انهم كانوا يشفقون عليهم من بحار الحياة اللجبة الصاخبة التى لن يلبثوا أن يخوضوها .. وأمثال هؤلاء الشيوخ يستمتعون أيما متعـة بما يتبقي لهم من مسرات بعد تلك التى ينزلون عنهـا فى رضى ويسر .. وهم يدركون أن لا قيمة للنصائح ، فيؤثرون أن يدعوا لكل امرىء حياته يوجهها كيف شاء .. ومن ثم نرانا ننصت الى ذكرياتهم فى استعذاب لانهم لا يرهقوننا بانتقاداتهم .. وتلجأ اليهم اذا ما تعسرت الامور واستحكمت المصاعب ، لنسألهم أن يعودوا الى

مركز الزعامة والقيادة ، ونحن مطمئنون الى أنهم لن يسيئوا استغلال الفرص لانه لم يعد لهم مطمع فى السلطان ٠٠

٠٠ وطرق تؤدى الى شيخوخة تعسة !

◆ **ولكن** يقابل طريقى الشيخوخة السعيدة طرق عدة تحيل الشيخوخة الى مرحلة تعسة مضنية ٠٠ وأسوأ هذه الطرق أن يظل المكتهل يسعى وراء ما لا سبيل الى استرداده !٠٠ **وما أكثر رجال الاعمال الذين يأبون فى شيخوختهم أن ينزلوا عن شىء من نفوذهم ، بل يستعبدون أبناءهم ويتسلطون على حياتهم ، مع انهم خليقون بأن يحظوا بحب هؤلاء الابناء واحترامهم لو عمدوا بحكمتهم الى اشراكهم معهم فى أعبائهم** ٠٠ وكذلك من المألوف أن نرى آباء يقترون فى شيخوختهم على أبنائهم ويقسرونهم على أن يحيوا حياة تحف بها القيود والسدود ، تشبثا منهم بملاذ لا سبيل لهم فى كهولتهم هذه الى استمرائها !٠٠ ومن المألوف أيضا أن نرى شيوخا يستحيل طموحهم فى الكهولة الى طمع يشيع فى أخريات أيامهم سموم الغيرة والسخط ٠٠ الخ

من هذا نخلص الى أن فن الشيخوخة ينطوى ضمنا على فن اكتساب احترام أبناء الاجيال الناشئة وثقتهم ، حتى يروا فى المكتهل عونا لا عقبة ، ونجيا لا مزاحما ! فليحذر الشيوخ هذه الرذائل الثلاث : الاثرة ، والبخل ، والطمع أو الغيرة من الشباب !

حياة التقاعد وكيف نجعلها ممتعة

◆ **بقي** الحديث عن اعتزال العمل والركون الى الراحة فى الشيخوخة ٠٠ فمن الناس من لا يحتمل حياة التقاعد لانه لم يعن باعداد نفسه لها ٠٠ أما ذاك الذى يستطيع أن يحتفظ بحب الاستطلاع ، فان مرحلة التقاعد كفيلة بأن تكون أعذب مراحل حياته ، على أن يحرص على أن لا ينساق للرغبة فى الانزواء عن حياة العمل تماما ، وان يستبقى الرغبة فى ان يتعلم ويفهم ، وان

ينصرف الى بعض المشاغل الخاصة المحدودة فى قريته أو حديقته أو داره .. فالعاقل من ينصرف بكل اهتمامه الى شئونه الخاصة، بعد أن كرس حياته وجهوده فيما مضى للشئون العامة .. وكم يسهل عليه ذلك لو انه كان فيما مضى قد راض نفسه على حب الشعر أو مناظر الطبيعة مهما كانت شواغله.. **ولست أتصور شيخوخة أجمل من أن آوى الى غير بعيد فى الريف ، حيث أعيد قراءة أحب الكتب الى ، والبحث عما فيها من معان جديدة .. عملا بقول (مونتين) : « يجب أن يظل الذهن محتفظا بحيويته فى الشيخوخة ، كما تفعل النباتات الطفيلية على جوانب الصفصافة الميتة »** .. وكما ان الموتى أصدقاء لا سلطان للموت على انتزاعهم منا ، فان كبار الكتاب رفاق أزليون يدخلون البهجة على شيخوختنا كما فتنونا فى شبابنا.. وكذلك الموسيقى صديق وفي نادر المثال ، تتيح لمن فقدوا منا طمأنينتهم الى طبيعة البشر ، عوالم أخرى يلقون فيها الراحة المثالية والمتعة العذبة ..

الشيخوخة ليست جحيما بلا آمال !

◆ **يقول** « باسكال » ان حياة المرء تغدو سعيدة « اذا هو بدأها بالحب واختتمها بالطموح » .. وعندى انها تكون أسعد لو انتهت ، بعد تحقيق كل المنى ، بسكينة مطمئنة .. فلا يلبث المرء بعد اجتيازه خط الظلال بعشرة أعوام أو عشرين ، أن يجتاز خط الضياء .. فاذا هو – بعد الالم الذى أصابه فى أولى هجمات الشيخوخة لشعوره بأن الزمن الذى خاله زمنه قد غدا مرتعا

لجيل جديد ! ـ اذا هو بعد ذلك يركن الى طمأنينة وادعة ، ويستشعر سعادة فى أن يرقب المسرح عن كثب بيقظة محايدة .. ومخايل الرضى على وجهه ، وابتسامة الارتياح فى عينيه ..

وهكذا نرى ان الشيخوخة ليست جحيما كتب على أبوابه : « يا داخلا هذا المكان دع عنك كل أمل ! » .. فقد حللنا كل دواعى اليأس التى يشعر المكتهل انها تتملكه ، ووجدناها غير مستعصية العلاج .. فاذا قيل ان الضعف يلازم الشيخوخة ، قلنا ان المسألة تتعلق بصحة المرء ، وكم من كهول أشداء ، وكم من شباب ضعفاء يتملكهم الخور !.. **وصحيح ان الشيخوخة تحرم المرء من كثير من المسرات ، ولكن المسرات التى تتبقى للمكتهل تكون ذات رواء مضاعف ، ككل متعة قصيرة الاجل ..**
وقد يقال ان من العسير على المكتهلين أن يجدوا أعمالا تشغلهم ، ولكن الواقع يثبت انهم خير من الشباب فى العمل والزعامة والحكم .. أو يقال انهم لا يحظون بأصدقاء ، ولكن المشاهد انهم على العكس يحاطون بالاصدقاء طالما أثبتوا انهم أهل للصداقة ..

يبقى خوف الموت فى الشيخوخة ، وهذا يمكن التغلب عليه بالايمان والفلسفة ، كما سنرى ..

للموت فلسفتان .. كلتاهما مريحة !

◆ **ولمواجهة** الموت طريقان: طريق «الابيقوريين»، وهم الفلاسفة الذين يعتقدون ان السعادة فى راحة البال المترتبة على الاستقامة .. وهؤلاء يرون ان الموت مسألة غير ذات بال بالنسبة الينا ، لان الخير والشر مسألتا ادراك حسى ، والموت يعنى فقدان كل ادراك حسى .. وعندهم ان لا رهبة فى حياة يدرك صاحبها أن لا شىء يعقب نهايتها .. وان « لا موت طالما كنا على قيد الوجود ، ولا وجود بعد أن نموت ! »

والطريق الثانى لمواجهة الموت ، طريق الاديان السماوية .. فان المؤمن لا يهاب الموت لانه لا يرى فيه غير رحلة انتقال ، يلتقى بعدها بأولئك الذين أحبهم ، وينعم بوجود خير الى أبعد حد من السنوات التى قضاها على الارض ..

وما أعظم ميتة الرجل العامل المنتج ، الذى ظل يؤدى مهمته حتى اللحظة التى جاد فيها بآخر أنفاسه .. وكم من رجل شغل برسالته فى الحياة ، فكانت هى محور كلماته الاخيرة عند الموت ، ومن ثم ظلت رسالته حية بعد وفاته ..

لقد تساءل « هامليت » ـ فى مسرحية شكسبير الخالدة ـ « ما الموت الا ضجعة ، وحسب .. ولكن ، ترى أية أحلام تراود المرء فى نعاس الموت ؟ » .. وقد لا يكون لهذا السؤال الرهيب جواب حتي الآن ، ولكن قد يفيد أن نعرف ان كثيرا من الآدميين ـ في كافة مناهج الحياة ـ قد رددوا هذا السؤال فى شجاعة ورباطة جأش ، دون أن يفزعهم الجهل بما بعد الموت !

دستور الحاكم العادل

◆ أثناء تولى «لنكولن» رياسة الجمهورية الامريكية تلقى آلافا من التماسات العفو المرفوعة من جنود خالفوا النظام الحربى ، وكان كل التماس منها مرفق بتوصية من أحد ذوى النفوذ ..

وذات يوم تلقى الرئيس التماسا مكونا من ورقة واحدة.. غير مصحوب بأى خطاب توصية .. فتساءل لنكولن فى دهشة :

ـ ماذا ؟ أليس لهذا الرجل أصدقاء ؟

فأجابه سكرتيره :

ـ كلا ياسيدى الرئيس .. ولا واحد !

واذ ذاك قال لنكولن :

ـ اذن فسوف أكون أنا صديقه !

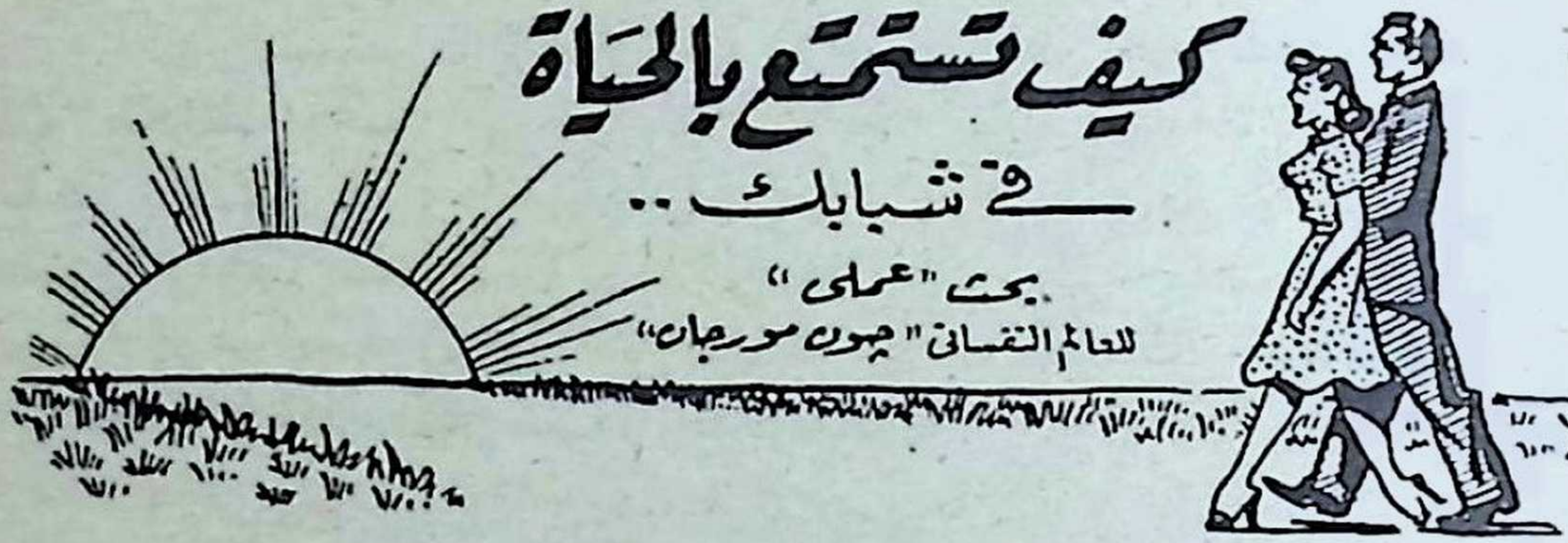

كيف تستمتع بالحياة في شبابك ..

بحث "عملى"
للعالم النفسانى "جون مورجان"

◆ **هل أنت سعيد ؟**

ان السعادة أوالتعاسة هى معيار نصيبك من النجاح أوالفشل فى تكييف نفسك حسب ظروف الحياة ..

فاذا وفقت فى هذا التكييف فان السعادة تواتيك من تلقاء ذاتها كثمرة لذلك التوفيق دون أى مجهود منفصل .. واذا فشلت فالتعاسة لابد آتية فى أعقاب هذا الفشل !

فالسعادة هى (ترمومتر) صحة العقل ، كما أن حرارة الجسم الطبيعية هى مقياس صحة الجسم . فحين ترتفع حرارة الجسم يكون ذلك دليلا على الاصابة بمرض ما ، وعلى أن الجسم يجند قواه لمحاربة المرض الطارىء ، فتكون الحمى فى تلك الحالة علامة مرغوب فيها لانها تنبه المصاب الى أن به مرضا ما .. وهكذا الحال فيما يختص بصحة العقل والنفس ، فلو أصيب الانسان فى عقله أو نفسيته بمرض أو اعتلال ، يكون من حسن حظه لو أحس أنه غير سعيد ، لان ذلك ينبهه الى اصابته ويحفزه الى البحث عن سببها ومعالجته ..

اسأل نفسك

◆ **ولكى** تختبر صحتك النفسية والعقلية بادر بسؤال نفسك الاسئلة التالية :

أولا : هل يمتعك أن تتحدى الاحداث فى الحياة ؟.. ام انك تيأس سريعا اذا لم يقدم لك القدر أمانيك فوق طبق من الفضة ؟

ان السبب الاكبر لاغلب الاضطرابات العقلية هو الخوف، فهو يجعلك تجبن عن مواجهة المشكلة ، أو تعمد الى معالجتها بتسرع وتهور • وفى الحالين لن تصل فى شأنها الا الى أسوأ الحلول وأشد التصرفات خرقا وحماقة •• ومن الطبيعى أن فشلك عندئذ فى الوصول الى الحل المرجو يزيد يأسك وعجزك عن مواجهة المشكلة التى تليها •• وهكذا !

ولما كانت طبيعة توالى المشكلات والاحداث تحتم على الانسان ـ كى ينجح فى مواجهتها وحلها ـ أن يحسن تكييف نفسه حسب ظروف الحياة •• فان العجز عن هذا التكييف يجعل الانسان مبهور الانفاس فى ملاحقة المتاعب ، لايكاد يفرغ من مشكلة حتى يجد أمامه عشرا •• !

والخلاصة أنك اذا استكنت واستسلمت للمتاعب ، فلن يتبع ذلك غير اليأس والفشل والموت • أما لو صمدت لها وتحديتها ونازلتها ، فسيتبع ذلك حتما ازدياد ثقتك بنفسك واستمتاعك بالحياة ••

◆ السؤال الثانى : هل لك هدف معين فى الحياة ؟

لاتحاول أن تجيب على هذا السؤال ببساطة فتقول (نعم) أو (لا) • وانما حاول أن تفسر شعورك نحو المستقبل بالقياس الى شعورك نحو الماضى •• واذا كنت ماتزال شابا أو حدثا فاجعل هدفك فى الحياة مطاطا ، قابلا للتطور • فقد يطرأ مايحتم ذلك التطور ، فيجب أن تكون متأهبا له دائما •

والمشاهد أن نسبة كبيرة من الناس « يماطلون » فى تحديد أهدافهم ويتركون الحياة توجههم على غير هدى ، وهؤلاء يغلب أن يكونوا قد أصيبوا بفشل أو خيبة أمل فى ماضيهم فتراهم يخشون أن ينظروا الى المستقبل بثبات ، نحو هدف محدد مرسوم ، خوفا من تكرر الفشل !

وأهمية تطلع الانسان نحو هدف معين لحياته لاتكمن فى ضرورة وصوله نحو ذلك الهدف ، وانما فى انشغاله بالسعى اليه ٠٠ فهذا الانشغال فى ذاته يجعله سعيدا مستبشرا ، وهو فى ذاته دليل على صحة النفس !

◆ السؤال الثالث : هل تستطيع أن تسخر دوافعك لخدمتك؟

لعلك سمعت يوما بالمثل القائل « ان طريق الجحيم مفروش بالنوايا الطيبة » ٠٠ فنحن منذ الطفولة نحاول دائما أن نتجنب عقوبة أعمالنا السيئة بالتعلل بأن نيتنا كانت حسنة ٠٠ وبذلك نسخر نياتنا ودوافعنا لخدمة أغراضنا ومطامعنا !

فاذا أردت أن تسخر دوافعك على هذا النحو فيجب أولا أن تتبين نفسك بوضوح ٠٠ وترى ما اذا كانت مطبوعة بطابع الاثرة وحب الذات ، واخفاء أحقر النوايا داخل غلاف من «أنبل» النيات ٠٠ أم مطبوعة بطابع الحب والتقدير للآخرين ، وانكار الذات ؟

وفى هذا الصدد يجدر بنا القول أن خداع النفس كثير الوقوع ٠٠ وكثيرا مايصعب تجنبه ، فيتوهم الشخص أن دوافعه نبيلة ، فى حين أن عقله الباطن يكون ساعيا وراء أغراض وضيعة ، قد تخفى أحيانا حتى على أصحابها !

◆ السؤال الرابع : هل تكون طبيعيا وأنت مع الناس ؟٠٠ أو بعبارة أخرى ، هل تحب الناس ؟ وهل هم يحبونك ؟٠٠ وهل يكونون على سجيتهم وهم معك ، وهل تعجبهم تصرفاتك وأحاديثك ؟

اذا لم يكن الامر كذلك ، واذا شعرت بالعجز عن اكتساب محبة الآخرين وميلهم ، فلا تلومنهم كما يفعل الحمقى والمجانين ، الذين اذا عز عليهم الانسجام مع الناس جميعا اتهموا العالم كله بالشذوذ والانحراف ، وتوهموا أنهم وحدهم المصيبون !

نعم ، لا تلم الآخرين الذين لايحبونك ، وانما حاول أن

تتبين علة نفورهم منك ، وتعالجها فى نفسك بهدوء وصبر .. وسوف تصير حتما الى كسب ميلهم ، عاجلا أو آجلا !

◆ السؤال الخامس : هل تحتمل مواجهة نفسك بالرأى الصريح فيها ؟

وعلى هذا يتوقف الكثير .. فقد تخرج من فحصك لنفسك بملؤك الشعور بالعظمة والرضى عن النفس .. وقد يحدث العكس فترى نفسك غير جدير بالرضى .. وقد تتوسط نظرتك الى نفسك بين هذا وذاك .. وقد تغالى فى السخط على نفسك مدفوعا بالرغبة فى معاقبتها على نقيصة ما ، أو استدرار عطف الآخرين ، أوالاعتذار عن تقصير فى أمر من الامور ..

فاذا استطعت أن تتبين نقط الضعف فى نفسك بوضوح ، أمكنك أن تعد برنامجا لاصلاحها .. ولكن احذر من المغالاة فى تأمل نفسك ونقائصك ، فان هذا التأمل يجب ألا يستغرق من وقتك أكثر مما يستغرقه تأملك للخريطة قبل قيامك برحلة ما !

فاذا درست نفسك فارسم برنامجا لاصلاح نقائصك .. ثم واظب على مراجعة نفسك ومراجعة برنامجك بحيث لاتحيد عنه .. واذا شعرت يوما أنك غير واثق من صحة اتجاهك فعد الى مراجعة البرنامج كما تراجع « الخريطة » بمجرد شعورك بأنك قد ضللت الطريق !.. ولكن تذكر أنك اذا أضعت وقتك كله فى دراسة وتفحص الخريطة فلن تقطع من رحلتك شبرا واحدا..

واذا خرجت من نظرتك الى نفسك مذعورا ، خائب الامل ، فاذكر أن الذعر لن ينفعك ، وأن خير ماتفعله هو أن تهدىء نفسك .. ثم تختط طريقا وتسير فيه ..

والخلاصة أن حل مشاكل « الشخصية » يتطلب تفكيرا سليما عاديا أكثر مما يتطلب دراسة لعلم النفس .. فعلم النفس قد يعد لك الوسائل ، لكن التفكير السليم هو الذى يمكنك من استعمالها ..

اتخذ هذه الخطوات ••

هذا عن التمهيد «السلبى» لوسائل الاستمتاع بالحياة •• أما الوسائل « الايجابية » للاستمتاع بالحياة ـ الذى هو أمل كل شخص وحلم كل انسان ـ فنلخصها لك فيما يلى :

أولا : اذا واجهتك مشاكل كثيرة فابدأ بعلاج المشكلة الهامة التى تتطلب حلا سريعا ••

ذلك أن من أولى علامات عدم التوازن العقلى الحاح الشخص فى الاهتمام بالصغائر • فقد تجد شخصا يقضى ساعة كاملة فى الصخب والضجيج وازعاج راحة ونظام كل من حوله ، واضاعة قسط كبير من مجهوده الجسمانى والعقلى •• كى يجد قلما من الرصاص وضعه فى مكان لايذكره ! أو غير ذلك من التوافه •• فى حين أنه لو صرف النظر مؤقتا عن القلم واستعاض عنه بقلم آخر ، لوجده بعد قليل من تلقاء نفسه ••

ذلك أن كثيرا من الامور التى نسميها «مشاكل» لاتحتاج فى واقع الامر الى حل ، لانها ستتكفل بحل نفسها اذا تركتها جانبا من الوقت • والشخص المتزن هو الذى يعرف كيف ينتقى من بين مشكلاته العديدة أكثرها أهمية وأدعاها الى العجلة والعناية فيعكف عليها ، ويهمل ماعداها من صغائر •

والشخص العاقل الحكيم هو الذى لايخلق مشكلة من الامر التافه ، ولايستهتر بالمشكلة الحقيقية فينظر اليها كأمر تافه !

ثانيا : اختر وقت الانتظار ووقت العمل : فهناك شعاريقول: « اعمل فى وقت العجلة واسترح فى وقت الفراغ » •• وهناك شعار آخر يقول : « اذا لم تعمد الى المخاطرة فلن تكسب شيئا » •• على أننا لاننصح باتباع هذا الشعار ولا ذاك ، وانما ننصح باتباع شعار ثالث هو هذا : « أعد العدة لحل كل مشكلة بمجرد نشوئها » •• فالشخص المغالى فى خجله وتردده يضيع الفرص ولايحسن انتهازها • والمقامر «المزمن» بالفرص يبعثرها

فى غير طائل .. ولو أردنا التعميم لقلنا ، أن « تصيد » المتاعب لايفيد ، ولكن ـ من الناحية الاخرى ـ اذا نشأت مشكلة حقيقية فمن الخطأ تجنب مواجهتها بحجة أن الانتظار والزمن كفيلان بحلها ..

ثالثا : استفد من الفشل : ولقد غالى البعض فى تقدير أهمية النجاح بالنسبة لتكوين وتطور الشخصية .. فبالرغم من أهمية تذوق الطفل للنجاح ومافيه من تشجيع له على مواصلة دروسه . وبالرغم من كون النجاح « مقويا » لعزائم ونفسيات الكبار ، فاننا يجب أن لانتجاهل الحقيقة التى مؤداها أن النجاح يجب أن تتخلله بعض فترات الفشل قبل أن يميز الشخص بوضوح عوامل النجاح من عوامل الفشل ..

وانه لمن الخير أن يصادف الانسان شيئا من الفشل فى مقتبل حياته العملية كى يتعلم ويستفيد منها فى المستقبل .. أما لو اعتاد النجاح فى خطوات حياته الباكرة فان أقل فشل يصادفه بعد ذلك يثقل عليه ، وقد يعرقله ..

رابعا : استثمر المرونة أكثر من المثابرة فى حل المشكلات : فبعض الناس يثابرون فى عناد الى درجة أنهم لايستفيدون من التجارب التى تمر بهم ، بينما الواجب أن يغير الشخص طريقته فى العمل اذا فشل ، ويجرب طريقة أخرى .. أما الاشخاص الذين يعتقدون أن مثابرتهم على اتجاههم الفاشل هى فضيلة فيهم فهم مخطئون !

خامسا : لاتجعل هدفك الذى تسعى اليه يستغرق كل تفكيرك واهتمامك : فهناك أناس ينصحون الشباب دائما بأن يختار له هدفا يركز عليه بصره ولايجعله يغيب عن عينيه قط . وهذه نصيحة خاطئة من أساسها .. ولايضاح فسادها أسوق لك هذا المثل الخاص بتربية «الكتاكيت» : فلو وضعت الكتكوت فى جانب من القفص ، ووضعت حبوب الحنطة فى الجانب الآخر

منه ، على بعد لايمكن الكتكوت من التقاط الحبة بمجرد مد رقبته ، فان الكتاكيت « الغبية » سوف تحاول جادة ايصال منقارها الى الحبوب ، وتظل تسعى نحو ذلك الهدف دون أن تحول بصرها عنه ٠٠ فتكون النتيجة أنها لاتصل اليه أبدا ٠٠ أما الحيوانات الذكية (كالكلب مثلا) فانها اذا وضعت فى مثل هذا الموقف ووضعت أمامها قطعة من اللحم مثلا ، فانها تقوم ببضع محاولات للوصول الى اللحم مباشرة ، فاذا تبينت صعوبة ذلك عمدت فى الحال الى اللف والدوران للوصول الى هدفها الذى استحال عليها بلوغه مباشرة !

والواقع أن هناك نفرا من النـــاس لايزيدون ذكاء عن (الكتاكيت) ٠٠ فالرجل العاقل هو الذى يهتم بطريقة حل مشكلاته أكثر من اهتمامه ببلوغ هدفه فى ذاته ٠ فلو درس الطريقة التى أوصلته يوما الى أحد أهدافه دراسة فاحصة ، فانه يستطيع بتطبيقها على أمور أخرى أن يبلغ بواســطتها أهدافا أخرى فى المستقبل ٠ أما لو قنع بأنه قد وصل ، دون أن يعرف كيف وصل ، فانه لن يصل الى هدفه مرة أخرى !

كتابى « الممتاز » الثانى !

أقــوى من الاول فى مادته ٠٠

وأروع من الاول فى مظهره ٠٠

وأجمل من الاول فى غلافه ٠٠

وفى صوره ٠٠ وورقه ٠٠ وطباعته

لكنه مثل الاول فى ثمنه

ترقبه يوم أول يونيو

يباع بعشرة قروش ٠٠ لكن مادته لا تقدر بمال !

كتب الأولون

كنوز الكتب القديمة

عزيزى القارىء ...

فى اعداد السنة الاولى من «كتابى» استخرجت لك من كنوز الكتب القديمة على التوالى :

«ديكاميرون» تأليف بوكاشيو
«دون كيشوت» تأليف سرفانتس
«الالياذة» تأليف هوميروس
«اميل» تأليف جان جاك روسو
«حى بن يقظان» تأليف ابن طفيل
«روبنسن كروزو» تأليف دانييل ديفو
«غرام الاخوين» تأليف (كاتب فرعونى مجهول)
«يوتوبيا» تأليف توماس مور
«الجمهورية» تأليف افلاطون

وفى العددين الماضيين قدمت لك الجزئين الاولين من كوميديا (دانتى) الالهية ، وهما : الجحيم ، والمطهر .. وفيما يلى الجزء الثالث والاخير منها : «الفردوس» .. وفى العدد القادم باذن الله نستانف سياحتنا معا عبر الاجيال والاقطار فتقرا معى فى هذا الباب :

الاوديسة : هوميروس
الامير : مكيافيللى
العقد الاجتماعى : جان جاك روسو
السياسة : ارسطو
البخلاء : الجاحظ .. الخ

PARADISO
Par
DANTE
دانتي
الكوميديا الإلهية
٣ - رحلة الفردوس

الفردوس .. بعد الجحيم والمطهر

◆ فى العددين الماضيين صحبنا ((دانتى)) شاعر عصر النهضة فى رحلته الخالدة الى الجحيم ، ثم المطهر .. فرأينا كيف بدأت الرحلة العجيبة حين وجد دانتى نفسه - كأنما فى حلم - وحيداً وسط غابة مظلمة مخيفة ، متشابكة الاغصان ، لا يرى منها مخرجا او نجاة .. حتى برز له شبح عرفه بنفسه فاذا هو ((فيرجيل)) ، شاعر اللاتين القديم .. ثم أخذ بيده وصار له بمثابة الدليل ، فسارا يشقان لنفسيهما طريقا وسط دروب الغابة ومسالكها المأهولة بالوحوش والضوارى الجائعة .. حتى وصلا الى باب ضخم كتبت فى أعلاه هذه العبارة : ((ايها الداخلون من هذا الباب : ودعوا عنده جميع الآمال !)) وكان ذلك باب الجحيم ..

فلما تجاوز الشاعران عتبة الباب ، احسا كان الهواء صار مشحونا بالصراخ والانين والتوجع .. فقد كانت أرواح الاشرار تنتحب من حولهما باكية معولة ، وتعض اصابع الندم على ما اقترفت من آثام .. وكان اولئك الاشرار فئات وطبقات ، خصص لكل فئة منهم مكان وعقاب ، يتفقان مع خطاياهم وشرورهم .. فهذا مكان القتلة المجرمين ، وذاك عقاب اللصوص والمختلسين ، وتلك جهنم الخونة ، والغادرين ، والكسالى ، والحاقدين ، والبخلاء ، والمبذرين (فالتقتير والسفه كلاهما خطيئة بغيضة الى الله !) .. وذلك وادى الظلمات ، وهذا نهر الدم ، وتلك غابة المنتحرين .. الخ

فلما كان اليوم الثالث خرج الشاعران من أغوار الجحيم الرهيب الى الفضاء الرحيب ، ليرتقيا جبل المطهر - المفضى الى الفردوس - فاذا هو يتألف من سبع درجات أو طوابق ، شاهقة الارتفاع عسيرة التسلق ، حافلة بالمشاق والاهوال ، كلما ارتقى الصاعد درجة منها كفر عن بعض أثمه وتخفف من بعض حمله ، وانمحى من على جبينه رمز الخطيئة التى كفر عنها !

.. حتى اذا بلغ الشاعران قمة جبل المطهر ، كان عليهما ان يعبرا الى الفردوس ممرا ضيقا تحف به النار المشتعلة من جانب ، والهاوية السحيقة من الجانب الآخر .. فمن خشي النار ومال الى الهاوية سقط وهلك ، ومن اخترق النار تطهر من دنسه ونجا ، ولم يبق بينه وبين الفردوس غير ان يغتسل من آثار آثامه فى جدول ماء .. يفضى الى جنة عدن !

فلما عبر دانتى النار والجدول .. وجد فى انتظاره على عتبة الفردوس : حبيبته بياتريس !

اما ((فيرجيل)) فقد حرم عليه دخول الجنة ، لانه مات وثنيا مشركا ....

مالا عين رأت ، ولا اذن سمعت !

◆ **رأينا** كيف تطهر دانتى بالنار والماء من كل اعماله الماضية، وصار اهلا للدخول الى مملكة السماء ، حيث مقام الاطهار الذين يحفون بعرش الله .. ومن بينهم بياتريس

ورفعت حينئذ بياتريس الوشاح عن وجهها ، فشاهد صفاء عينيها ، وما تفيضان به من ذخائر الحب والرحمة .. ثم ابتسمت له ، فابتهجت نفسه وانتشى قلبه نشوة عارمة محببة ..

وانىا لنرى الشاعر فى مفتتح نشيده الاول من اناشيد الفردوس يبتهل الى «أبولو» اله الفن الرفيع ان يهبه من لدنه قوة فى البيان وقدرة على تصوير بدائع تلك الصور التى لم تر مثلها عين ، ولم تسمع بمثلها اذن ، ولا خطرت على قلب بشر !.. فلئن كانت تكفى دانتى فى وصف الجحيم والمطهر نفحة واحدة من المواهب الشعرية والابداع الفنى ، فانه الآن يرى نفسه كالطائر الذى كسر جناحه فقصرت ريشاته عن التحليق فى افق يعلو على كل افق ، ونحو قمة تتضاءل بجانبها جميع القمم !.. فما أحوجه الآن الى نور جديد من انوار ابولو يتسلل الى قلبه ليمده بروح من عنده فيفصح بقوافيه عن تلك الاحساسات العميقة التى يراها اعمق من كل بيان ، مستعصية على النقل من همس الوجدان الى لغة اللسان ..

الانطلاق نحو السماء !

◆ **رفع** دانتى عينيه الى بياتريس ، فوجدها تحدق فى قرص الشمس ، والشمس فى تلك الساعة قد توسطت السماء ، وزادت بهاء وضياء ، كأن الله قد خلقها خلقا آخر ! وارتد بصر دانتى نحو محبوبته ، وتعلق بوجهها ، فاعترته احاسيس عجيبة .. اذ تغير من مادة الجسد المادية الى وجود روحانى ، فاصبح لا يدرى ان كان لا يزال ذا بنية من لحم

ودم ، او هو قد غدا روحا بلا جسم .. ونفسا بلا حس او جوارح !

وانطلق فى هذه الحالة الجديدة يخترق فلكا من النار فى صحبة بياتريس ، وانغام تلك الافلاك السماوية تملأ اذنيه .. لكنه فى حيرة من امره ، لانه لم يكن قد علم انهما قد فارقا عالم الارض صاعدين فى اجواز السماء ! فلما اخبرته بياتريس بتلك الحقيقة ازدادت دهشته ، فهو لا يفهم كيف يتسنى له الصعود الى السماء فى اتجاه مضاد لقوة الجاذبية الارضية !

ورأت بياتريس محنته وحيرة عقله الذى لا يزال مطبوعا فى تفكيره على النمط الارضى ، فأخذتها به الشفقة ، وبينت له فحوى قانون الجاذبية الكونى : فكل كوكب له جاذبيته الخاصة، ولكن هناك قوة جاذبية شاملة للكون كله ، اقوى من جاذبية كل كوكب على حدة .. وتلك هى قوة انجذاب كل ما فى الكون نحو الله !

الوصول الى القمر !

◆ **ووصل** الشاعر وحبيبته الى القمر ، واخترقا قرصه اختراق السهم .. فراع الشاعر ان يرى مواضع مظلمة فى ذلك النور البهى ، وتألم احساسه الشاعرى لذلك النقص فى كوكب النور الذى يعشقه المحبون والشعراء .. فقالت له بياتريس:

— لا تعجب يا دانتى فان خلقة الله الشريفة تتفاوت . واعلم ان كل جمال فى مخلوق من مخلوقات الله انما هو تعبير عن النور الالهى الاكمل . **وكما يفرح الانسان فتبدو الفرحة فى جميع اعضاء جسمه بدرجات متفاوتة من الوضوح ، وهى اظهر ما تكون فى لمعان العينين .. كذلك الكواكب يشرق كل منها بالبهاء الالهى ، على تفاوت فى الدرجة التى بها يشف كل منها عن ذلك البهاء :** فبعض المواضع كانسان العين تعبيرا ، وبعضها الآخر كالساقين او ظاهر اليد ، لا تنم عن ذلك البهاء الا بمقدار ..

حب الظهور .. يقصم الظهور !

◆ **ويصعد** دانتى وبياتريس فى الفضاء اسرع كثيرا من مسرى النور ، فتحدثه بياتريس فى الطريق عما ميز الله به الانسان والملائكة من حرية الارادة . اما سائر المخلوقات فى السماوات والارض فمجردة من تلك الحرية . ولهذا كانت النذور والعهود التى يقطعها الانسان على نفسه عظيمة القيمة ، وكان الوفاء بها من اعظم الادلة على سمو النفس وجدارتها باعلى المراتب عند الله . **اما اذا كان ذلك النذر مما ينتهك حرمة الشريعة ، فان فضيلة الوفاء به اقل بكثير جدا من جريرة اغضاب الله واهدار حرمة الدين بهذا الوفاء !**

فلما فرغت بياتريس من كلامها وصلا الى فلك (عطارد)، فاذا هو قد ازداد على القرب لمعانا . ومن خصائص هذا الكوكب انه لا يظهر لاهل الارض الا نادرا ، لان شعاع الشمس يطفى عليه . وفى عطارد تقيم ارواح من كانوا فى حياتهم من اهل الطموح وحب الظهور والشهرة — فى غير دنس — لذلك صار مقامهم فى الفردوس فى مكان منزو ! ولكنهم يظهرون سمو نفوسهم بالرضا بما قسم لهم ، وبمحبة الله حبا يحبب اليهم النزول على ارادته ..

ويتقدم واحد من هؤلاء نحو دانتى مرحبا مهللا ، فيعرف فيه دانتى الامبراطور جوستينيان ، الذى اشتهر بحماية الملة ، والذى غير القانون الرومانى الوثنى على اساس جديد من شريعة المسيحية .

ويتكلم جوستينيان عن الامبراطورية الرومانية المسيحية، وكيف تغيرت رسالتها من تمجيد الحرب والفتح ، الى تمجيد السلام والعدل والرحمة . ولهذا ترك هو قيادة الحرب الى القائد العبقرى «بليزاريوس» ، منصرفا الى تدعيم العدل ورعاية امور الدين .

من كوكب عطارد .. الى كوكب الزهرة (فينوس)

◆ **وينتهى** جوستينيان من حديثه ، فتتملكه نشوة من الغبطة بالخلاص ، يزيد بها توهجه حتى يتلاشى شخصه شعاعا فى نور عطارد ، وتأخذ الارواح المقيمة هناك فى الانشاد بصوت رائع ، مسبحة بحمد الله !

وتخترق بياتريس ومعها دانتى آفاقا اخرى .. حتى يصلا الى كوكب الزهرة ، او فينوس ، ربة الحسن عند القدماء !

فماذا رأى دانتى فى رحاب فينوس ؟

رأى الملائكة وسكان الكوكب من الارواح البارة ، والكل يرقصون رقصة واحدة ليست مما تقع عليه العين او يخطر بالخيال .. رقص ينساب كالنغم ، ويتراقص كالنور ، ويتمايل كالنشوة حين تسرى فى اعطاف من رشف كفايته من خمر حلال !

فكل ما تقع عليه العين جمال متناسق ، ليس فى سكونه شائبة ، ولا فى حركته اضطراب ، وترتيل الراقصين لا ينقطع عن الترديد :

ـ المجد لله فى الاعالى !

◆ **ووصل** ركب دانتى وصاحبته الى كوكب الشمس ، وكانت فى الوضع الذى تكون عليه فى الربيع . وقد دهش دانتى ابلغ الدهشة حين رأى فى وهج الكوكب المشرق انوارا أشد منها اشراقا وبهاء ، هى ارواح الابرار «المطوبين» ، اولئك الذين قيل لهم طوبى لكم لانكم تفرحون !.. وما كان اشراقهم هذا الذى دونه اشراق الشمس الا نشوة سرور الهية برؤيتهم لمجد الله !

واصابت النشوة القدسية روح الشاعر ، فتركزت افكاره جميعا فى الله ، حتى نسى وجود بياتريس الى جواره ..

فابتسمت بياتريس ، ابتسامة بلغ من اشراقها ان استلفتت انتباه الشاعر من سرحته ، فتلفت حوله .. واذا اثـنا عشر روحا يطوقونه وصاحبته بثلاث دوائر من نور ، ثم يتوجونهما بتاج السماء ، على انغام موسيقية لا يعرف اهل الارض نظيرا لها فى عذوبتها !

ويتقدم قائد هذه الارواح الاثنى عشر فيعرف دانتـى بنفسه ، واذا به القديس «توماس اكويناس» ، حبر كنيسة روما وفيلسوفها الذى أرسى تعاليمها على اساس عقلى يرد عنها غائلة الملحدين ..

فى المريخ ...

◆ **ويمضى** الشاعر وحبيبته محلقين شوطا آخر ، حتـى يصلا الى كوكب المريخ (مارس) ، الذى عبد الاقدمون فيه اله الحرب .. فاذا فيه تقيم ارواح «جنود الرب» ، اى ارواح أولئك الذين حاربوا فى سبيل الله ، دفاعا عن دينه وحرماته ، فكان كوكب الحرب هو مثوى ارواحهم المطهرة ، لانه اقرب الى نفوسهم وامزجتهم المطبوعة على النضال ..

واذا هذه الارواح تعيش فى تسبيح قدسى دائم ، وسرور ربانى لا ينقطع .. فيقف دانتى مع بياتريس يتمتعان بهـذا التسبيح الجميل ساعة ، الى ان تشتاق نفس دانتى ان يتحدث الى واحد منهم ، كى يتعرف احواله ، فاذا بالانشاد ينقطع .. **واذا واحد من هؤلاء ((المحاربين القدماء)) يهوى الى مكان دانتى كأنه شهاب يحترق فى ليلة ظلماء !.. ويقرىء ذلـك الروح دانتى السلام ، ويحيى فيه ((سليله الطاهر)) ، الذى انعم عليه الله بدخول السماء مرتين : مرة وهو حى ، ومرة اخرى ستكون بعد الممات ، حين تتخلص روحه من اسار الجسد ..**

ويتعجب دانتى لامر هذه التحية الغريبة ، وينظر نحو بياتريس ، فاذا بها تبتسم ابتسامتها المشرقة .. ويقول الروح مخاطبا دانتى :

ـ لاتعجب يا ولدى ، فانى جدك الاعلى، والد «اليجييرى» الذى تحمل أسرتك فى فلورنسا اسمه الى اليوم . وقد ولدت فى هذه المدينة العريقة ، التى كانت آية لمدائن الارض فى بساطة الحياة وجمال الطبيعة .. وانى لاعلم يا ولدى مبلغ ما جنته عليك مدينتنا من عقوق واساءة ، وانت المحب لها، فى اخلاص ونزاهة !.. ولكن لا عليك ، فالعاقبة للحق والخير. ولا تجعلن فى نفسك حقدا على الذين اساءوا الصنيع ، فالله يعلم ما تخفى الصدور ، وهو سيجزى كل امرىء بما يستحق .. وكفى الشرير شره ، والمحسن احسانه وراحة وجدانه ..

فاعتبر دانتى بما سمع ، وشرد خاطره برهة يفكر فى احداث حياته ، الى ان نبهه صوت جده ذاك وهو يودعه وينضم الى ركب الارواح التى تقطن المريخ ، ليستأنفوا ما انقطع من تسبيح عند وصول دانتى وبياتريس الى كوكبهم

((ارادة الله)) هى مقياس الخير والشر ..

◆ **والتفت** دانتى الى وجه بياتريس ، فرأى فيه اشراقا ابهر مما كان يعهده فيه ، وجمالا ابهى مما يعرفه له ، فأيقن انهما قد ارتفعا الى فلك جديد فى رحلتهما العلوية .. وصدق حدسه ، فانهما كانا قد فارقا فلك (مارس) المتوهج القانى، وصارا فى فلك «جوبيتر» الابيض الناصع. وهو كوكب العدالة، وفيه تقيم ارواح من احسنوا القضاء والحكم بين الناس .. فتذكر دانتى ذلك «البابا» الذى كان يبيع صكوك الغفران، ويجعل من بركة السماء ونعمة الرضوان سلعة تباع وتشرى بالمال ! واذ ذاك تدور فى خاطر الشاعر خواطر كثيرة عن العدالة السماوية والعدالة الارضية ، **فيوحى اليه عندئذ ان مقياس الخير والشر ، او عماد العدل ، هو ((ارادة الله)) : فالخير خير لان الله اراده ، والشر شر لان الله لم يرده ناموسا لخليقته .. ولا تتجلى لنا ارادة الله ـ التى لولاها لضللنا ـ كما تتجلى فى كتبه المقدسة ، على لسان رسله المطهرين ..**

سلم يعقوب الصاعد من زحل الى السماء !

◆ وقطع دانتي وبياتريس شوطا آخر ، حتى بلغا فلك زحل ، اله الزمان عند الاقدمين، وهو من اعلى الكواكب وابعدها، ويقع فى برج الاسد .. فلما وصلا الى ذلك الافق العالى ، كفت بياتريس عن الابتسام ، لانها كانت تزداد جمالا واشراقا كلما امعنت فى الارتفاع . وعند هذا الحد من العلو ، لا يؤمن ان تتسبب ابتسامتهافى زيادةبهائها وجمالها على طاقة دانتي المحدودة ، لانه ما يزال من ابناء الفناء ، ولم تتخلص روحه بعد من حواس الجسد !

وفى زحل وجد دانتي «سلم يعقوب الذهبى» ، وهو السلم الذى صعد فوقه يعقوب الى السماء ورأى ما فيها من اعاجيب !.. ويبصر دانتي موكبا رائعا يهبط درجات ذلك السلم متجها نحوه ، ثم يقف ذلك الموكب عند درجة قريبة ويشع منه نور يكاد يخطف بصر الشاعر .. عندئذ تنطلق الاناشيد والتسابيح من افراده فى نغم يذهل الشاعر ويكاد حلاوته أن يفقده صوابه !

ثم يتقدم رئيس ذلك الموكب فيرحب بدانتي قائلا :

– ان الله يعلم عجزك ، وانك لاتستطيع بحواسك الفانية أن تصغي للموسيقى القدسية فى الافلاك العليا ، لهذا تخيرنى الله كى أحمل اليك قبسا منها يناسبك ، أهبط به اليك فى كوكب زحل ، تحية لك ..

وعندئذ هبطت من السماء شعلة كبيرة أحاطت بدانتى ، وراحت تنبعث منها أصوات عالية لم يفقه منها شيئا ، ثم اختفى المركب العظيم الهابط من السماوات .. واختفى سلم يعقوب الذهبى الذى يصل بين الارض والسماء !

بطرس يمتحن ايمان دانتى ..

◆ وتتكشف للشاعر رقعة من السماء ، وقد افترشها الرسل والتلاميذ ، يتناولون العشاء المقدس .. فتتوجه اليهم بياتريس برجاء حار أن ينعموا على الشاعر بلقمة من مائدتهم يذوق بها ما أعد للقديسين من نشوة عظيمة .. وهنا نهض بطرس الرسول من صدر المائدة مستجيبا لذلك الرجاء ، فخاطبته بياتريس قائلة :

ـ أنت الصخرة التى بنى عليها الرب كنيسته ، ورأس ذلك الايمان الذى مشى صاحبه يوما على مياه البحر ، وخضعت له الريح . ومن رعاياك تمتلىء رحاب السماء بالصالحين .. فاليك هذا الشاعر المؤمن ، من ابناء دينك ، امتحنه فى تعاليم الايمان وأصوله ..

وامتحن بطرس الرسول الشاعر دانتى ، فوجد ايمانه صحيحا سليما ، فباركه بأن رسم فوق رأسه ثلاث هالات مستديرة ..

◆ ونظر دانتى الى عينى بياتريس الجميلتين ، فرأى فيهما انعكاسا لشىء رائع لم تبصره عيناه من قبل ولم يخطر له على قلب ! فالتفت الى حيث كانت تنظر ليرى أى شىء هذا الذى سحرها .. **فاذا بصرها معلق بنقطة فى السماء ، نقطة من نور باهر لم تر عينه له مثيلا ! ومن حولها تسع دوائر بعضها من داخل بعض ، وكلها تدور بحركة سريعة جدا ، وتشرق بضوء باهر يزداد اشراقا وسرعة فى دورانه بمقدار قربه من ذلك المركز .. وقالت بياتريس :**

ـ هذا هو «المحرك الاول» للكون ، الذى تغنى أرسطو بمدحه ، وهذه هى النقطة التى تدور حولها السماوات التسع بحركة متصلة ، بدافع الحب لذلك المحرك الاول ، والرغبة فى التشبه به ومحاكاة كماله . فهى لاتستطيع محاكاة ذلك الكمال ، الا بكمال حركاتها ، وأكمل الحركات هى الحركة الدائرية ، لهذا تدور الافلاك حركة دائرية كاملة ، لاأول لها ولا آخر ، ولا وصل فيها ولا فصل . وهذه الدوائر التسع هى العقول التسعة التى تسيطر على السماوات التسع وتدبرها .. والمحرك الاول ، او خالق الكون ، هو مركزها ومحورها الازلى . هو محيط بكل شىء ، بالسماوات وبالارض . **ولئن ضاق عقلك عن مثل هذه الافكار ، فلذ بايمانك يعصمك من الضلال ، واسجد لعظمة الله ذى الجلال ...**

فسجد دانتى من فوره ، وامتلأ سمعه بتسبيح تلك العقول التسعة الدائرة حول مركزها الاقدس ، صائحة :

ـ قدوس ! قدوس !

قبل ان يخلق الله العالم !

◆ **وشعرت** بياتريس أن دانتى يكتم فى نفسه أمرا ، وأدركت فحوى ذلك الامر . فهو يعلم أن الله خلق العالم والسماوات .. ولكنه يتساءل : **وقبل أن يخلق الله العالم ، ماذا كان يصنع ؟**

فقالت بياتريس تجيبه على ذلك السؤال الذى لم يتفوه به:

ـ اعلم يادانتى أن «الزمان» لا وجود له فى الواقع ، لانه محض أثر لحركة الكواكب ومقياس للسرعة . فقبل الخلق لم يكن هناك «زمان» ، بل أبدية ليس فيها ماض ولا مستقبل ، لان كل لحظة من لحظاتها حاضر ، وكل نقطة من أبعادها ماثلة .. فلا زمان فى الابدية ولا مكان ، بل وجود الله المطلق الذى ليس له حد ، وليس له انقضاء . فدع عنك وسوسة هذه الافكار ، واخلص قلبك لله !

فسجد دانتى مرة أخرى . وسمع تسبيح الفلك الاعظم :
ــ قدوس قدوس ! قدوس الحى الذى لايموت !

زهرة الحب الالهى

◆ **وانطلق** ركب دانتى وبياتريس مرحلة أخرى وأخيرة .. وقد أخذت العقول التسعة المضيئة تتلاشى وتنطفىء أنوارها واحدا بعد واحد ، كما تتساقط النجوم وتتلاشى حين تلوح بشائر الفجر فى الافق .. فالتفت دانتى نحو بياتريس يسألها تفسير مارأى ، فقالت له :

ــ لقد تجاوزنا سماء الفضاء وأبراج النجوم والكواكب ، التى تسيطر عليها العقول التسعة ، وصرنا الى « الملأ الاعلى » ، وهى سماء لا مكان فيها ولا زمان ، سماء الابدية ، وناموسها الحب والغبطة ، لا الشوق والحركة .. وفى هذه السماء سترى الملائكة رأى العيان ، وترى القديسين والابرار على الصورة التى سيكونون عليها بعثهم يوم قيامة الاموات !

وهنا غمر دانتى نور عظيم تغلغل فى عينيه ، كى يمنحهما قدرة على ابصار ضياء ذلك الملأ الاعلى دون أن يعشى بصره الارضى .. فرأى حينئذ مالا عين رأت ولا خطر على قلب بشر .. رآه ولكن الذهول عاقه عن حكايته، واعجزه عن روايته !.. كل ما يذكره مما رأى **ان الابرار فى ذلك النعيم المقيم أشبه بأوراق زهرة عظيمة، هى زهرة الحب الالهى، وقد وقفوا هناك صفوفا بعد صفوف ، يسودهم سلام وأمن ، فلا خوف عليهم**

من فقدان ما ملكوا من رضوان ، ولالهفة أو اشفاق من ضـياع مانالوا من نعيم واحسان ..

وينظر دانتى الى جواره ليسأل بياتريس فى أمر خطر له ، فلا يجدها حيث كانت ! وينبرى له القديس « برنار » فيشـير الى بعض صفوف الابرار الذين يحفون بعرش الله ، وكأنهـم أوراق زهرة الحب الالهى ، فيرى هناك بياتريس فى مكانها العلى المعين لها بين صفوف الملأ الأكرم ، وقد حلت عليها أنوار النعمة العظمى ..

وعندئذ تهلل قلب دانتى ، واتجه اليها بالشكر العميـق لما أسبغت عليه من فضل عميم ، وحب كريم ، ضارعا الى العلى الاقدس أن يكتب له حياة ومماتا جـديرين بحبها الطاهـر ، وجمالها الناضر ، وذيلها العاطر ..

فابتسمت له بياتريس ، ثم اتجهت نحو مجد الله بأنظارها .. ففى مجد الله وحده تتم وحدة القلوب المؤمنة ، وحدة المحبة التامة والوجود الكامل ..

◆ **وهكذا** وصلت رحلة دانتى فى رحاب السماء الى ختامها .. وانقضت رؤيا ذلك الشاعر العبقرى ، بل سبحته العلوية ، التى مازالت ولن تزال ، الى آخر الاجيال ، حلية يزدان بهـا جيد الادب الرفيع ..

كتابى ((الممتاز)) القادم

أقوى من العدد الممتاز السابق فى مادته ..

وأروع منه فى مظهره !

انتظره فى أول يونيو ..

عندما ترفع الستار..

روائع المسرح العالمى

(التمثيلى... والغنائى)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية من (كتابى) المسرحيات العالمية الآتية على التوالى :

خطايا الحب : لاوسكار وايلد
الحب الآثم : تولستوى
نزاهة الحكم : جوجول
سلاح المرأة : اريستوفان
فولبون : بن جونسون
جيوكندا : دانونزيو
كلام الناس : جوزيه اشيجاراى
مدرسة الفضائح : شيريدان
سيرانو دى برجراك : روستان
لعبة الحب والموت: رومان رولان
مروحة الليدى وندرمير : اوسكار وايلد
فاوست : جيته

واليوم اقدم لك فيما يلى هذه المسرحية القديمة «أوديب الملك» التى طالما سمعت عنها ، أو ربما شاهدتها على المسرح .. يليها فى الاعداد القادمة باذن الله :

هرنانى : فيكتور هوجو
قافلة الزمان : نويل كوارد
البخيل : موليير
ترويض النمرة : شكسبير
عطيل : شكسبير
الخطاب : سومرست موم
هيدا جابلر : ابسن
الخ .. الخ

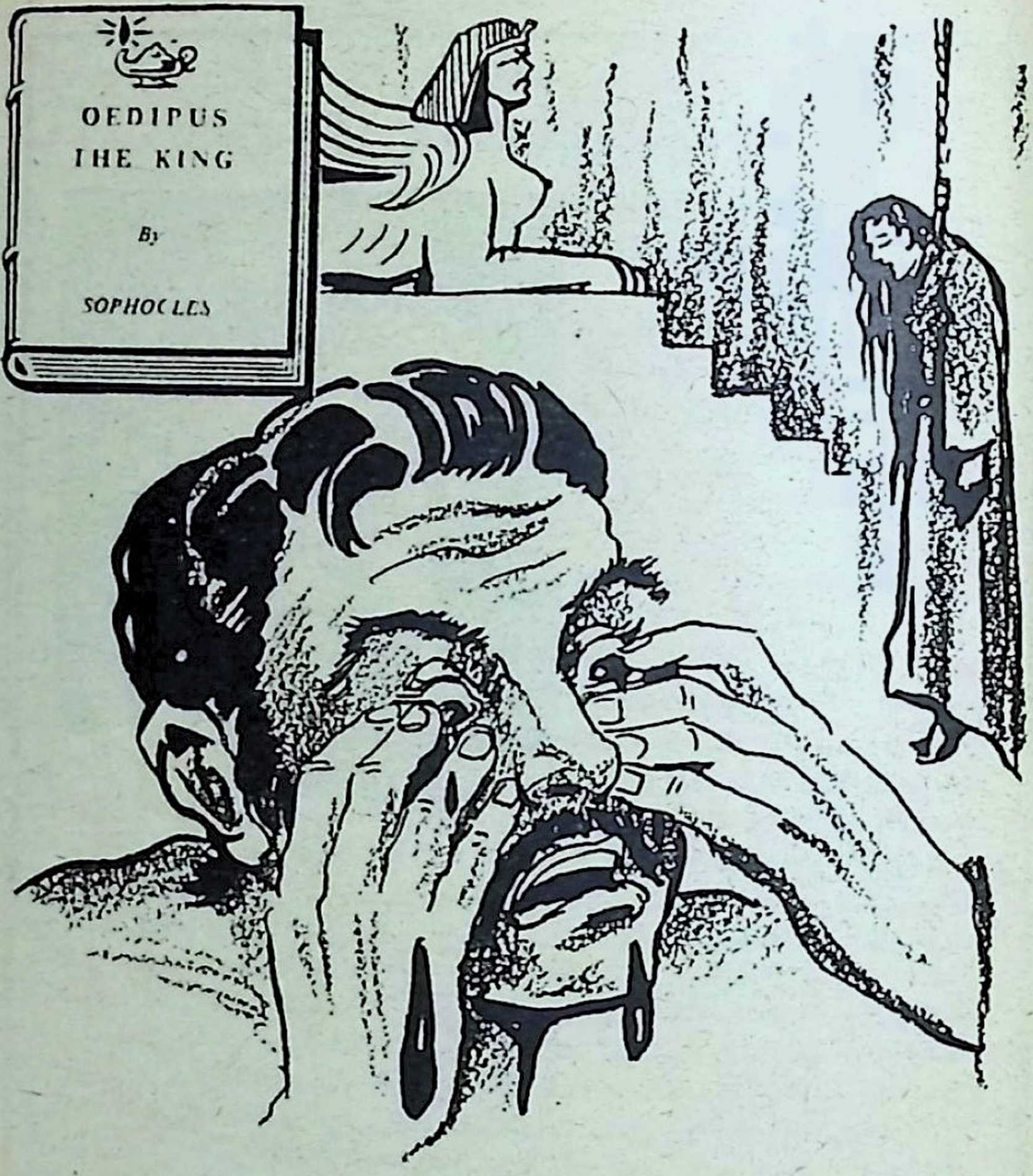

درة الأدب الإغريقي

أوديب الملك

مأساة تمثيلية كبرى : لسوفوكل

المؤلف

(٤٩٥ ـ ٤٠٥ قبل الميلاد)

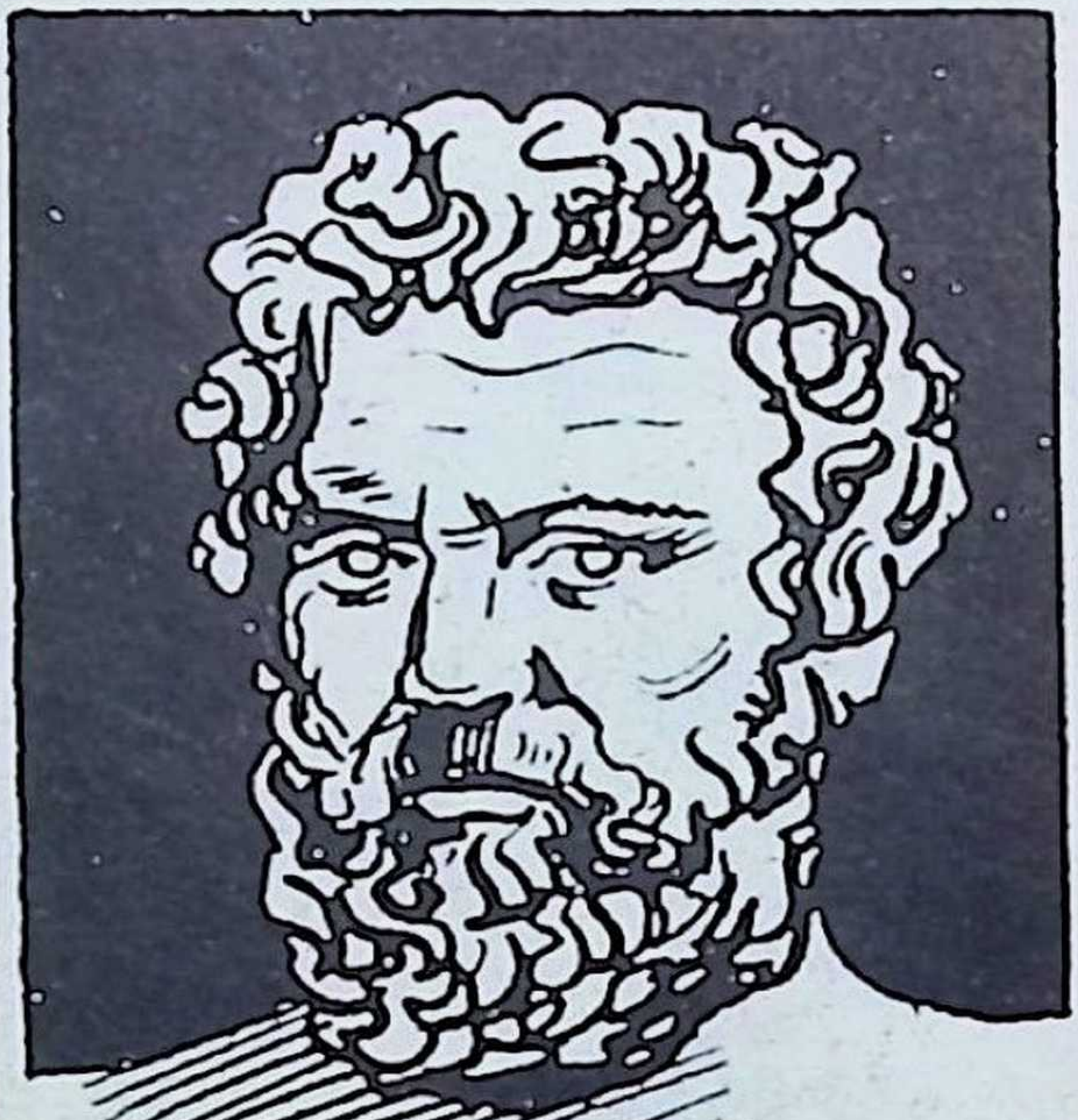

سوفوكل

◆ يعتبر «سوفوكل» عميد مؤلفى المسرح الاغريقى قاطبة .. وقد كتب اكثر من مائة مأساة تمثيلية ، فقدت غالبيتها فلم يبق من هذا التراث الخالد غير سبع مآس فقط ، هى حسب تاريخ تاليفها : أنتيجون ، اليكترا ، تراخينيا ، أوديب الملك ، أجاكس ، فيلوكتيتس ، أوديب فى كولوناس .. ولو اقتصر أنتاج سوفوكل على هذه المسرحيات السبع لكفت لاعتبار الدور الذى لعبه فى تطور المأساة الاغريقية دورا خالدا فى تاريخ الادب !

ويمتاز سوفوكل بروعة البناء الفنى لمسرحياته ، و « انسانية » موضوعاته واسلوبه ، على النقيض من زميله ومعاصره « اسخيلوس » الذى نبغ فى تمجيد «البطولة» بصفة خاصة .. بل ان سوفوكل يتفوق حتى على ثالثهما «يوريبيدس» لسعة افق الحياة والعواطف التى يصورها فى تمثيلياته ، وعمق تحليله للطبيعة البشرية .. وكفاه فخرا أنه خلق شخصية «اوديب» الخالدة ، شخصية الانسان الذى تغلب عاطفيته عدله ، وبرغم ذلك نستشف النبل وراء دوافعه وحوافزه!

.. ويعتبر اكثر النقاد مسرحية اوديب أعظم مسرحيات سوفوكل جميعا ، وقد أشار اليها «ارسطو» مرارا فى سفره الذى سماه «فن نظم الشعر» . واغلب الظن أن سوفوكل كتبها لتمثل فى احدى المسابقات المسرحية الدورية التى كانت تقام فى أثينا فى ذلك العصر ، والمرجح انها مثلت لاول مرة سنة ٤٢٥ ق.م

وقد ولد سوفوكل فى «كولوناس» ، بالقرب من أثينا ، عام ٤٩٥ قبل الميلاد .. وعاش فى العاصمة الاغريقية الزاهرة حياة طويلة (بلغت التسعين عاما) ، عاصرت الحروب الفارسية .. وعصر بركليس .. وفترة من الصراع ضد اسبرطة !

شخصيات الرواية

اوديب : ملك «طيبة»	Oedipus
جوكاستا : زوجة أوديب	Jocasta
كريون : شقيق جوكاستا	Creon
تيريسياس : عراف أعمى	Tiresias
انتيجون } ابنتا أوديب	Antigone
ايسمين	Ismene
رسولان	Two Messengers
راع	Shepherd

تمهيد للرواية : أسطورة أوديب

◆ قبل ان يجلس أوديب على عرش «طيبة» كان يحكمها ملك يدعى «لايوس» . وكانت الملكة «جوكاستا» - زوجة الملك الجديد - زوجة للملك السابق فى حياته ، فلما رزقا ابنا ذكرا انزعج الوالدان ايما انزعاج ، فقد تلقى الاب وحيا من معبد دلف المقدس انطوى على نبوءة له بانه سوف يقتل بيد ابنه الذكر الذى سيرزق به فى المستقبل !.. فرأى الملك أن يتخلص من هذا الخطر بالتخلص من ابنه الوليد ، فأمر بان تثقب قدما الطفل وتقيدا بحربة مسنونة الى صخرة على سفح جبل «كيثايرون» المهجور .. حتى يلقى الوليد حتفه !

لكن الاقدار تدخلت لانقاذ الطفل البرىء ، فقد اشفق عليه رسول الملك الذى كلف باهلاكه ، فتركه فى ظل كهف ظليل ، لينجو على الاقل من وزد قتله .. وصادف أن مر بالمكان راع كان يبحث عن ماشيته الضالة ، فعثر بالطفل .. وحمله الى بلاط ملك كورينثة المدعو «بوليبوس» وزوجته «ميروب» فكفلاه وتبنياه ..

وشب الطفل «أوديب» فى بلاط ملك كورينثه حتى بلغ مبلغ الرجال .. وذات ليلة ، فى احدى الحفلات ، لعبت الخمر براس احد السمار فابدى تشككه فى نسب اوديب ! الامر الذى دفع هذا الى المبادرة باستشارة الآلهة بشأن نجمه .. فتنبأوا له بأنه سوف يذبح أباه ويتزوج من أمه !.. واذ أزعجت النبوءة أوديب ، بادر من فوره الى الفرار من بلاط «والديه» ملكى كورينثه ، رغم انه لم يعرف له فى الدنيا أهلا سواهما ، اشفاقا عليهما وعلى نفسه من المصير الرهيب الذى تنبأت له به الآلهة !

لغـــز « أبوالهول » !

◆ فى تلك الاثناء ظهر فى طيبة الوحش ((ابو الهول)) ، مروعا اهلها بلغزه العجيب المستعصى الذى اخذ يلقيه على كل من يصادفه ، فاذا عجز عن حله قتله لساعته !.. وكان اللغز المطلوب حله هو هذا : ((ما هو المخلوق الذى يمشى فى الصباح على اربع ، وفى الظهر على رجلين ، ووقت الغروب على ثلاثة ارجل !))

ولم يستطع احد من الذين صادفهم الوحش ووجه اليهم اللغز ان يهتدى الى حله ، فمضى ((ابو الهول)) يمعن فى اهل طيبة ذبحا وقتلا .. حتى ضج سكان المدينة فزعا من هذه الكارثة التى هبطت عليهم ، وبلغت فواجعهم واستغاثاتهم مسامع الملك لايوس ، فحزن لمصير شعبه .. ولم يجد بدا من التوجه مع نفر من حاشيته الى معبد ((دلف)) لاستشارة الآلهة فيما ينبغى فعله لوقف غضبها الذى صبته على المدينة .. لكن الموكب التقى فى الطريق بأمير مجهول من امراء كورينثه (لم يكن سوى ((أوديب)) الهارب من بلاط والديه ، فرارا من قدره المقسوم !) فنشبت بين أوديب وبين المسافرين فى ذلك الموكب - وكان يجهل شخصياتهم ! - مشادة تطورت الى مبارزة ، صرع فيها الامير الملك لايوس وافراد حاشيته جميعا ، ما عدا واحدا استطاع ان ينجو بنفسه !

وحين نفض أوديب سيفه من المعركة ، واصل سفره متجها الى ((طيبة)) دون ان يدور بخلده أنه قتل لتوه ملكها ! فلما وصل اليها واجه الوحش أبا الهول ، الذى القى عليه لغزه المحير .. فوفق أوديب الى الحل الذى عجز عنه اهل المدينة جميعا : قال ان المخلوق المقصود باللغز هو الانسان ، فهو يمشى فى طفولته على أربع ، وفى شبابه على رجلين ، وفى شيخوخته على رجلين ثالثتهما العصا التى يتوكأ عليها !

واذ كان هذا الحل هو الصائب ، قفز ابو الهول من فوق صخرتـــه واختفى عن الانظار !.. وفى الوقت الذى هلل فيه الشعب فرحا بالخلاص من اللعنة التى كانت قد حلت به ، وصلت انباء مصرع الملك لايوس وحاشيته فى الطريق ، على صورة غامضة ، بيد أشخاص مجهولين .. فلم يجد الشعب خلفا يجلسه على العرش الشاغر خيرا من الامير ((أوديب)) الذى انقذه من الوحش ، فوهبه تاج الملك الراحل وزوجته جوكاستا !

واستقر أوديب وزوجته جوكاستا على عرش ((طيبة)) .. وتتابعت الاعوام ..

- ١ -

◆ **فاذا** رفعت الستار عن الفصل الاول من المسرحية ، فقد انقضى على هذه الاحداث اثنا عشر عاما ، أثبت الملك أوديب خلالها مقدرة فائقة وكفاءة ملحوظة فى حكم البلاد ·· ونعمت « طيبة » طيلة تلك السنوات بفترة يسر ورخاء ·· حتى تفشى فيها فجأة وباء الطاعون ! فهرع الشعب الى الميدان المواجه لقصر الملك ، وأرسلوا اليه وفدا منهم يلتمس منه انقاذ رعاياه من الوباء المروع ، كما أنقذهم منذ اثنى عشر عاما من الوحش أبى الهول ! فيجيب أوديب على توسلات مندوبى الشعب قائلا انه قد بادر بالفعل الى ارسال شقيق زوجته الملكة ـ المدعو كريون ـ الى معبد دلف ليسأل الآلهة عما ينبغى فعله لرفع غضبها عن المدينة ··

وفيما الملك يتكلم ، يصل كريون عائدا من مهمته :

أوديب : حدثنا أيها الامير المحبوب ، أى جواب مقدس تحمله الينا من آله معبد دلف ؟

كريون : أن نثأر لدم ملكنا السابق لايوس !

أوديب : نثأر ؟ ولكن كيف ؟ كيف نلاحق الاثم المطمور فى طيات الماضى المريب ؟ كيف نعثر على القتلة ؟

كريون : الآله يشترط لكى يرفع عنا الوباء أن نقتص من القتلة أولا !

◆ **لكن** أوديب لا يعلم من قصة مصرع سلفه أكثر من انه قتل فى ظروف غامضة ، فيستفسر الآن من حاشيته عن التفصيلات ، فيعلم انه قتل بيد عصابة من اللصوص، هو وأفراد حاشيته جميعا ، باستثناء شخص واحد عاد سالما ، لكن الصدمة هزت أعصابه وطمست ذاكرته بحيث لم يعد يذكر شيئا من تفصيلات المأساة !

واستجابة لسخط الشعب يتحمس أوديب لفكرة الثأر من القتلة ويستمطر اللعنات عليهم ، متوعدا اياهم بأشد العقاب.. ويقسم أمام رجال حاشيته على ذلك !

وهنا يستحثه كريون على اســـتدعاء العراف الاعمى المسن « تيريسياس » ، لعله يستطيع الاهتداء الى مفتاح الجريمة .. فيحضر العراف ، يقوده صبى صغير :

أوديب : تيريسياس ، أنت ترى كيف يفتك الطاعون المخيف بشعبنا البرىء .. فانقذنا جميعا من اللعنة التى خلفها الموتى وراءهم .. تكلم ، أفصح لنا عن اسم قاتل الملك لايوس !

تيريسياس : أنا أفصح؟ بل دعونى أذهب الى بيتى بسلام..!

أوديب : أنت تعرف القاتل ولا ترشدنا اليه ؟.. تتركنا حتى يهلك الوباء شعبنا ؟

تيريسياس : ماذا تريدنى أن أقول ؟ انك تواجهنى بسؤال لن أجيبك عليه .. لخير للجميع ألا أبوح بما أعرف !.. ولندع الايام تميط بنفسها اللثام عن الحقيقة ..

◆ **لكن** احجام العراف عن الارشاد الى القاتل يثير ثائرة الملك أوديب ، وشكوكه ، فيرجح أن يكون العراف نفسه مدبر الجريمة .. ويواجهه بالتهمة !.. وازاء هذا يضطر العراف الى الدفاع عن نفسه ، غاضبا لشرفه وطهـــارة يده ، فيلقى أخيرا بالحقيقة فى وجه أوديب ..

تيريسياس : انك أنت سبب البلاء ومصدر الوباء .. أنت أنت القاتل الذى تبحث عنه !

أوديب : ماذا تقول ؟ كيف تجرؤ !؟

تيريسياس : أو لم تلح على فى الافصاح عن اسم القاتل الذى يطلب الآله الاقتصاص منه كى يرفع الوباء عن طيبة ؟ انك أنت مصدر اللوثة التى أغضبت الاله فأهلك من أجلها شعبك !

◆ **ويحتدم** النقاش ، فيتهم أوديب شقيق زوجته « كريون » بأنه الموحى الى العراف بهذ الفرية ، طمعا فى اغتصاب عرشه !

أوديب : يا لسلطان الحسد ، الذى جعل مخلصا قديما مثل « كريون » يسعى الآن بالخديعة كى يطيح بى عن عرشى ، مستأجرا هذا المشعوذ الدنىء ، الاعمى عن كل شىء عدا الكسب الحرام !

تيريسياس : لست أنا الذى جئت من تلقاء نفسى ، وانما أنت الذى استدعيتنى ٠٠ وها أنا ذاهب ، بغير أن يجبرنى على ذلك خوف منك ، فلست أنت القوة التى تملك ايذائى ! ودعنى أكرر على مسمعك : انه هنا ، قاتل الملك لايوس الذى تبحث عنه ٠٠ ولن يعود عليه كشف الحقيقة بالخير والغبطة ، فلسوف يفقد البصر وهو المبصر !٠٠ ويفتقر ، وهو الذى يرفل الآن فى الثراء! ٠٠ ولسوف يمضى منبوذا الى بلاد غريبة !٠٠ كيف لا وهو والد أطفاله وشقيقهم !٠٠ ابن أمه وزوجها !٠٠ البذرة ، والباذر ، والمبذور !٠٠ الفاسق بأمه ، والقاتل لابيه !

فاذا أفرغ العراف الاعمى جعبته من هذه اللعنات والنبوءات، استحث الصبى أن يقوده الى الباب ٠٠

- ٢ -

◆ **فاذا** كان الفصل الثانى فقد أمر أوديب بقتل «كريون» شقيق زوجته ، بتهمة التآمر على عرشه !٠٠ فلجأ كريون الى الشعب يحاول أن يستنصفه من ظالمه، ويثيره ضد طغيانه !٠٠ **وتقف الزوجة الحكيمة ـ « جوكاستا » ـ فى هذه المحنة موزعة القلب بين زوجها وشقيقها ٠٠ وتلمح بوادر انقسام فى صفوف الشعب ، وثغرة فى ولائه لملكه « الظالم » ، فتنتهزها فرصة لاقناع أوديب بعدم اللجوء الى العنف أخذا بشائعة لم يقم عليها دليل ، واندفاعا وراء عاطفة غضب موقوتة ٠٠**

وتضم حاشية الملك صوتها الى صوت الملكة٠٠ فيرضخ أوديب، ويكتفى « بنفى » كريون بدلا من قتله !

واذ تخلو « جوكاستا » الى زوجها تحاول أن تزيل أثر العداء الطارىء بينه وبين شقيقها :

أوديب : انه وعرافه المخرف يتهمانني بأنني قاتل لايوس !

جوكاستا : أو تصدق مزاعم العرافين ؟٠٠ انهم بشر ، ما أضأل معرفتهم بالغيب ، وأكذبهم ! واليك الدليل ٠٠

◆ **وتقص** عليه قصة النبوءة القديمة التى أوحت الى زوجها السابق « لايوس » بأنه سيرزق ابنا ، ويموت قتيلا بيد هذا الابن نفسه !٠٠ وتستطرد جوكاستا الى أن لايوس مات مقتولا بالفعل ، لكنه انما قتل بيد تلك العصابة من اللصوص التى هاجمته « فى مفترق ثلاث طرق » ٠٠ فضلا عن ان ابنه الذى رزقه قد ألقى وهو بعد فى يومه الثالث ليلقى حتفه على سفح جبل مهجور ، بعد ان سمرت قدماه فى احدى الصخور بحربة مسنونة ٠٠ بحيث لا يمكن أن يكون قد عاش وحقق النبوءة !

لكن جوكاستا لا تكاد تشير الى أن لايوس قد قتل عند « مفترق ثلاث طرق » حتى يدب فى ذاكرة أوديب دبيب غامض ، يزداد ازعاجا له والحاحا على ذهنه حين يعرف أن مفترق تلك الطرق يقع فى جهة « فوكيس » !٠٠ واذ تتفاقم هواجسه لا يملك نفسه من اشراك زوجته فيها ، لعله يجد عندها ما يرد الطمأنينة الى ضميره ٠٠ وهكذا يبوح لها بأنه شب معتقدا انه ابن « بوليباس » و « ميروب » ملكى كورينثة ، حتى أفلت لسان أحد السكارى فى مأدبة كان يحضرها فقال ان أوديب ليس ابن الملكين الحقيقى ٠٠ وأزعجه هذا القول فمضى ذات يوم ليستشير آله معبد « أبوللو » بشأن حقيقة ذلك الزعم ، فتنبأ له الآله بأنه سوف يقتل أباه وينجب نسلا من أمه ! — دون أن يزيد الوحى على ذلك حرفا ٠٠ فاعتقد أوديب أن قول ذلك المخمور الماجن

بصدد نسبه كان فرية كاذبة ، واذ خشى على أبيه وأمه - ملكى كورينثة - من تحقق النبوءة الجديدة بادر الى الفرار من كورينثة ليقضى بقية حياته فى طيبة .. وفى الطريق ، عند ملتقى ثلاثة اتجاهات ، التقى بعربة تقل سيدا وعددا من خدمه ، واذ كان الطريق ضيقا لا يتسع لمروره هو والعربة فى وقت واحد، تحرش به أحد الخدم ، فقتله أوديب .. ثم قتل سيده الذى هب لمهاجمته .. ثم أجهز على بقية الركب الذين أرادوا الانتقام لقتلاهم !.. وهكذا لم ينج من ركاب العربة غير خادم أخيز لاذ بالفرار ..

واذ يفرغ أوديب من رواية القصة لزوجته ، تزداد مخاوفه من أن يكون هو قاتل لايوس حقيقة ، ولا يبقى لديه غير ثمة بصيص ضئيل من الامل فى أن يكون التشابه بين ظروف المعركتين محض مصادفة .. فيصيح وقد أزمع أن يقطع الشك باليقين :

أوديب : احضروا فورا ذلك الخادم الذى نجا !

- ٣ -

◆ **فاذا** كان الفصل الثالث فنحن فى انتظار وصول الخادم المذكور ، الذى صار الآن راعيا للاغنام .. ونرى « أوديب » مشفقا من حضوره ، فى حين تحاول زوجته جوكاستا أن تهدىء من مخاوفه وتطامن من انزعاجه بالقول ان الامر لن يتكشف عن شىء ذى بال ، ولن تتحقق نبوءة الآلهة بحال !

وفى هذه الاثناء يقبل رسول من كورينثة فيعلن أن الملك «بوليباس» قد مات ، فأصبح ابنه أوديب ملكا على كورينثة . ويفرخ روع أوديب لهذا النبأ الذى يكذب على الاقل نصف نبوءة الآلهة ، فقد مات بوليباس نتيجة المرض ولم يمت مقتولا بيد ابنه أوديب .. واذن لم يبق أمام هذا ما يخشاه غير النصف الآخر من النبوءة ، الخاص بانجابه نسلا من أمه ! وازاء ذلك ينهى أوديب للرسول انه لن يقبل عرش كورينثة ، خشية أن توقعه

الظروف فى شرك الاتصال بملكتهـــا ميروب ـ أمه ـ فتتحقق النبوءة !

وهنا يتصدى الرسول لتبديد مخاوف الملك ، فيصارحه بأنه ليس ابن بوليباس وميروب حقيقة ، بل ابنهما بالتبنى فقط ! ٠٠ ويدعم الرسول زعمه بالقول انه هو الذى حمل أوديب الطفل الى بلاط ملكى كورينشة ، بعد أن وجـده مقيدا من قدميه الى صخرة على سفح جبل « كيثايرون » ، وكان الذى أرشده الى مكانه راع من زملائه كان يعمل قبلا فى خدمة الملك لايوس !

ويجمد الدم فى عروق الملكة جوكاستا وهى تنصت الى أقوال الرسول التى تميط اللثام عن الحقيقة الرهيبة ٠٠ وتحاول أن تثنى أوديب عن فكرة استدعاء ذلك الراعى الذى يملك وحده مفتاح الموقف ! ٠٠ لكن الملك المعذب قد صح عزمه على نبش الحقيقة من مرقدها وكشف النقاب عنها مهما كانت بشاعتها ، وأيا كان الثمن !

ويقترح أحدهم أن تفصح الملكة عن اسم خادمها القديم ، لكن التعسة تناشد « زوجها » أن يصم أذنيه عن الشائعات والترهات ، ويطلق بحثه عن الحقيقة طلاقا حاسما :

جوكاستا : بحق الآلهة كف عن التحرى والاستقصاء ، اذا كانت لحياتك قيمة فى نظرك ٠٠ كفانى شقائى وأساى ! أواه يا ابن الالم والويلات ، أتوسل اليك يا الهى أن لا تطلعه على الحقيقة قط !

أوديب (فى اصرار) : فليحضر الراعى الى هنا دون ابطاء !

◆ **ويمضى** الرسل لتنفيذ الامر ٠٠ فتطلق جوكاستا صرخة لوعة ويأس ، وتنطلق من الحجرة لا تلوى على شىء ! بينما يلاحقها صوت أوديب قائلا فى لهجة احتقار انها انما تخشى انكشاف سر مولده ونسبه لانه كفيل بطعن كبريائها فى الصميم ٠٠

ويقاد الى الحجرة شيخ مسن يرتجف خوفا ٠٠ فلا يكاد يقع عليه بصر الرسول القادم من بلاط ملك كورينثة حتى يتعرف فيه على شخص الراعى الذى أعطاه الطفل أوديب ! ٠٠ ويدرك الراعى من فوره بشاعة المأساة ، فيحاول عبثا اسكات الرسول الثرثار ٠٠ ولكن دون جدوى ، فقد فات الاوان !

وتحت تأثير تهديد أوديب للراعى بالتعذيب، يعترف المسكين بأن أوديب هو ابن الملك السابق لايوس وزوجته الملكة جوكاستا، وانهما قد أعطياه اياه ليهلكه ٠٠ لكن قلبه لم يطاوعه على ارتكاب هذه الجريمة فخان ثقتهما وتركه على قيد الحياة !

أوديب : ويلتاه ! ويلتاه ! ويلتاه ! أخيرا ينكشف كل شىء بوضوح ٠٠ أواه أيها الضياء ، فلتكن هذه نظرتى الاخيرة اليك، أنا الذى أدين بمولدى الى من لا ينبغى أن أدين لهما ٠٠ الى أم كان ينبغى أن لا أعاشرها ، وأب كان ينبغى أن لا أقتله !

ويندفع الى داخل القصر كالمجنون ٠٠ !

- ٤ -

◆ **فاذا** كان الفصل الاخير رأينا نفرا من رجال الحاشية يروون ما وقع عقب حوادث الفصل السابق : فقد أقبل على أوديب رسول يقول ان جوكاستا قد فرت الى مخدعها القديم صائحة باسم زوجها الاول « لايوس » مولولة فى فزع وذعر : «ويلى أنا الشقية ٠٠ زوج ولد من الزوج ، وابن ولد من الابن!»

وحين يلحق بها أوديب المعذب بعد حين فيقتحم عليها الباب وسيفه فى يده ، يجدها معلقة فى وسط الغرفة من رقبتها .. وقد خنقت نفسها بشعرها ! .. فيحل المسكين وثاقها ، ثم ينتزع من صدرها مشبكا ذهبيا ويفقأ به عينيه صائحا : « انكما لن تعودا تريانني ، أو تريان أساى ، وخطاياى !.. وأنت يا ضياء النهار ، دعنى أراك للمرة الاخيرة !.. »

ثم يتحامل الملك التعس على نفسه وهو ينزف دم عينيه ، ويطلب أن يقودوه الى خارج القصر ليواجه شعبه الوفى .. وهناك ، أمام الجماهير الباكية يظهر أوديب ، بائسا ، أعمى ، دامى العينين ، فيعلن لشعبه انه قاتل ملكهم السابق « لايوس » وملوث فراش « أمه » التى أنجبته !.. ويروح يصب لعناته على الاله أبوللو الذى تنبأ له بهذا المصير ، وعلى الراعى الاثيم الذى أنقذه من الموت وهو طفل وليد !

ويطالب أوديب قومه ان يدعوه يهيم على وجهه فى الارض ، ليكفر عما جنى .. وفى هذه الاثناء يصل « كريون » شقيق الملكة فلا يكاد يقف على ما حدث حتى يأمر باعادة الملك الى داخل القصر:

كريون : انى لم آت أيها العزيز أوديب لاحقرك أو أوبخك من أجل جرائمك السابقة ..

أوديب : بل فلتطردنى توا خارج هذه البلاد .. فقط ، أوصيك بابنتى المسكينتين .. ألا دعنى ألمسهما بيدى وأبكى معهما أحزانى .. امنحنى هذه المنة الاخيرة أيها الامير !

◆ **ثم** يكرر توصيته لخالهما برعايتهما فى يتمهما الطويل ، والسهر على حمايتهما من الفقر أو العار الذى قد يلحق بهما من جراء اثم والديهما .. كما يوصيه بتهيئة جنازة لائقة للملكة جوكاستا .. ويستجيب كريون لتوسلات أوديب فيستدعى له ابنتيه :

أوديب (وقد احس بدخول بنتيه «انتجيون» و «ايسمين») : أواه يا آلهى، هل أسمع نغم صوتكما الحبيب تقطعه شهقاتكما؟ تعالا الى يا طفلتى العزيزتين ·· انى أبكى من أجلكما ، من أجل الحياة الكئيبة الموحشة التى تنتظركما على يد البشر فى سنواتكما القادمة ·· أواه يا كريون ، لا تدعهما تقاسيان عناء الحياة بغير أزواج ، أو تتسولان من أجل خبزهما اليومى ··

كريون : أوديب ، كفى دموعا وبكاء ··

أوديب : بل دعنى أبكى ·· مصيرهما ، ومصيرى

كريون : حانت ساعة الفراق ··

أوديب : هكذا سريعا ! ·· لم يبق الا أن أذعن لقدرى ونصيبى، مهما كان قاسيا ··

◆ **ويتركهم يقودونه الى حيث شاءوا ان يقضى بقية حياته فى داخل القصر ·· فى منفى رهيب من العمى والعذاب وتغلق خلفه الابواب ·· !**

ستار

الزواج الثانى !

◆ كتب أرمل ـ تحت تأثير حزنه الشديد على زوجته المتوفاة ـ هذه العبارة على قبرها ، معبرا عن شعوره : « ان نور حياتى قد انطفأ ! »

فلما فكر فى الزواج مرة أخرى استشار الاسقف الشهير هنرى بوتر فيما اذا كان يجدر به أن يمحو العبارة المذكورة ، التى لم تعد تتفق مع الظرف الجديد ·· فأجابه الاسقف ناصحا :

ـ كلا يابنى ، لا داعى لذلك ·· وانما حسبك أن تكتب تحتها عبارة أخرى تكميلية مثل : « لقد أشعلت عودا آخر من الثقاب ! »

◆ أورد «موروا» فى حديثه عن «فن الحياة فى الشيخوخة» – الذى لخصناه فى مكان آخر من هذا العدد – ذكر «مدام ريكاميه» و «شاتوبريان» ، وكيف حظيا فى الكهولة بحياة ممتعة ، سعيدة ، لم يعكر صفوها كبر السن .. وفى هذا الفصل عن حياة «مدام ريكاميه» حديث واف عن صداقة هذين العظيمين .. الصداقة التى سمت حتى تنزهت عن أية شائبة ، والتى قويت حتى غالبت الشيخوخة ، والشلل ، والعمى .. ودامت حتى آخر حياتيهما !

فاتنة الجيل ..!

◆ **كانت** فتنة للرجال .. كل يتمناها ، فلا يفوز بغير الحسرة والتنهدات .. فيقنع فى النهاية بمجرد الحظوة «بالقرب» منها ، والانخراط فى سلك المعجبين بها ، دون أن يجرؤ على أن يسمح لنفسه بأى مطمع آخر !.. وكان بين هؤلاء «المعجبين» الذين يدورون فى فلكها : ملك ، وأمراء ، وذوو ألقاب رفيعة ، وشعراء ، وكتاب ، وفلاسفة – كرس واحد منهم كل وقته طيلة ثلاثين عاما من حياته ليحظى بالقرب منها !

بل انها كانت فتنة للنساء أيضا ، فطغى سحرها على ماكان خليقا بأن يداخلهن من غيرة وحسد نحوها ، فأحببنها وسعين للتقرب اليها ..

وهكذا كان الكل يحبونها ، اللهم الا رجلا واحدا .. ولكن أى رجل ! كان السلطان فى يديه ، والدنيا طوع أمره ،

فأرهقها اضطهادا .. اذ أوغر صدره أن يرى نفوذها يفوق نفوذه ، ويرى مجلسها يتسع لمعارضيه ، وأعداء نظام الحكم الذى أقامه ، وأصحاب الحملات القوية على حكومته .. رغم أنها كانت بريئة من أى مقصد فى هذا الصدد ، فلم تكن متحيزة ، وانما كانت مجالسها ندوات للجميع ، يسعى اليها القوم من كل الاحزاب والالوان السياسية ، فيطرحون خارج بابها حزازاتهم وخصوماتهم ..

أما صاحب السلطان الذى انبرى وحده لكراهية امرأة لانه خشى على نفوذه ومجده منها ، فهو : نابليون بونابرت !

وأما الفاتنة التى استهوت الرجال والنساء على السواء ، فكانت .. « مدام ريكامييه » .. المرأة التى ذهب بعض المؤرخين الى القول بأنها أكثر النساء فتنة وأطغاهن جاذبية ، فى طول تاريخ البشرية وعرضه !.. فقد أوتيت الى جانب جمال الوجه ورشاقة القد ، قلبا كريما جسورا ، ونفسا فاضلة عفة ، وعقلا واسعا حصيفا ، وذكاء لامعا مرهفا ، وروحا فنانة ملهمة .. وهى صفات كانت الواحدة منها تكفى لترفع أية امرأة .. فما بالك وقد اجتمعت كلها فى هذه المرأة !؟

هل تزوجت من ابيها .. دون ان تدرى !؟

◆ **ولدت** مدام ريكامييه فى أسرة متوسطة الحال فى مدينة «ليون» ، سنة ١٧٧٧ .. وكان اسمها « جان برنار » – ولكنها آثرت عليه فيما بعد اسم «جولييت» ، مما أغرى أحد الذين تدلهوا فى هواها منذوى النفوذ بأن يكاتبها باسم «روميو» ! – وقد ربيت فى أحد الاديرة ، ولكنها سحبت منه فى العاشرة من عمرها ، ففارقته كارهة باكية .. ثم وجدت العزاء بعد ذلك فى الانصراف الى تعلم العزف على القيثارة و «البيانو» ، كما أجادت الغناء ..

ونشبت الثورة الفرنسية ، وهى بعد فى الثانية عشرة ، فلما كانت السنة الثالثة من الثورة تزوجت «جولييت» من «ريكامييه» ، أحد كبار رجال المال فى باريس فى ذلك العهد ، وكانت فى ثلث عمره : كانت هى فى الخامسة عشرة ، وهو فى الثالثة والاربعين !.. **وهناك من الدلائل مايؤكد أنه كان زواجا اسميا ، لاسيما وقد راجت اشاعة توحى بأن «ريكامييه» كان ابوها الحقيقى ـ الذى عشق أمها خلسة وهى فى عصمة زوجها الشرعى ـ وانه كان يتوقع أن تحصد «الجيلوتين» رأسه ، كما حصدت مئات الرؤوس فى باكورة الثورة ، فلم يجد وسيلة يترك بها كل ماله لابنته ، دون أن يثير الشبهات ، سوى أن يتزوجها !..** ثم شاء القدر أن تتخطى مقصلة الثورة رقبته ، فعاش حتى تجاوز الثمانين .. ومن الطريف أن أحد الذين أحبوا «جولييت» استطاع مرة أن يغريها على أن تفاتح «ريكامييه» فى الطلاق ، ولكن قلبها الرقيق المرهف لم يلبث أن تمرد عليها حين تجلت لعينيها شقوة الرجل ووحدته فى الحياة ، فنكصت عن رغبتها وعدلت عن الطلاق !

نابليون يكرهها .. وأخوه يعشقها !

ومع أنها ظلت تحتفظ بنضارة الصبا ، الا أنها كانت فى جلال الكبار ، وكانت تعرف لكل مجلس اعتباراته ، فتغدو زينته وبهجته .. وقد تدله فى هواها «لوسنيان» ، أحد اخوة «نابليون» وأكثرهم رزانة وسيطرة على فؤاده .. وقال « تشارلس جيمس فوكس» ـ أحد مشاهير الساسة البريطانيين اذ ذاك ـ انه ما كان يدهش لو أن «نابليون» نفسه هام بها ، فقد كانت «المرأة الوحيدة التى استطاعت أن تجمع بين مفاتن اللهو البرىء وسحر التواضع والبساطة » !

ولكن «نابليون» لم يشغف بها مع ذلك ، بل كرهها .. ولم يسع الى كسب تأييدها ، بل عمد الى اقصائها عن فرنسا

بأسرها ، بحجة أنها كانت تستضيف معارضى حكمه ومنتقدى سياسته .. فمضت الى سويسرا حيث التقت بزميلتها فى المنفى « مدام دى ستايل » ، وارتبطت معها بود متين . (وكان نابليون قد نفى الاخرى بدورها عقابا لها على كتاب أصدرته ، وكان يتضمن آراء جريئة فى السياسة والدين والزواج ..)

وفى المنفى رافق مدام ريكامييه سحرها .. فوقع فى هواها الامير «أوجستا» ، وبرغم الحافه فى التوسل اليها كى تقبله زوجا ، فانه لم يفز بطائل !.. ثم أسرت جولييت قلبى الجراندوق « مكلنبيرج — ستريليتز » ، والامير «لودويج» أمير «بافاريا» ، الذى لم يلبث أن غدا ملكا !

.. و « دوق ولنجتون » يقع فى هواها !

وشاء القدر لدوق ولينجتون أن يهزم «نابليون» ، فما أن نفى «نافيها» الى جزيرة (البا) حتى عادت «جولييت» الى باريس! .. ومن الطريف أن قاهر «نابليون» خشى بدوره على قلبه أن تقهره فتنتها ، حتى لقد كتب اليها مرة يقول : « **أعترف بأننى لست آسف كثيرا على أن بعض الاعمال ستحول دون مجيئى اليك بعد الغداء ، لاننى عقب انصرافي من بيتك فى كل زيارة ، أشعر بأننى أكثر تأثرا بسحرك وأكثر عزوفا عن الاهتمام بالشئون السياسية من ذى قبل !.. ولسوف أزورك غدا ، اذا كنت فى البيت ، رغم ما لمثل هذه الزيارة من آثار خطيرة على نفسى ..!** »

بيد أن «نابليون» لم يلبث أن فر من «البا» فى مارس سنة ١٨١٥ ، فعادت الاضطرابات تسود أوربا ، وبادر معظم منتقديه وخصومه الى الفرار من باريس ، اللهم الا «جولييت» !

وفى تلك الاثناء ، بدأت علاقة مدام ريكامييه بالفيكونت «دى شاتوبريان» — العلاقة التى ربطت بينهما بأوثق رباط حتى نهاية عمريهما ! — وكان «شاتوبريان» فى ذلك الحين أديبا وسياسيا نابه الذكر ، وكاتبا من الكتاب الموهوبين القديرين

على اثارة الجماهير ٠٠ ومع أن «جولييت» ظلت مبقية على معظم أصدقائها من رجال ونساء ، الا أنها راحت تختص «شاتوبريان» بقدر أوفى من الايثار !٠٠ واذا كان قد ساءها منه اسرافه فى الزهو والغرور حين غدا واسع النفوذ فى ميدان السياسة بعد معركة «ووترلو» الا أنه لم يلبث عقب انهيار نفوذه أن عاد الصديق الوفى المقرب اليها ٠٠

ديماس يصف صالونها الادبى ٠٠ وفتنتها !

◆ **وكانت** الذبذبات السياسية تضطر « مدام ريكامييه » أحيانا الى البساطة والاقتصاد فى معيشتها ، **ولكن ذلك لم يحل** دون تدفق مشاهير الرجال والنساء على « صالونها » **ومجالسها** ٠٠ وكان كل امرىء يتوق الى أن يتلقى دعوة منها الى دارها الاثيرة فى « اباى - أو - بوا » !٠٠ ولعل أروع وصف يتيح لنا ادراك ماكان لمدام ريكامييه من جمال وفتنة ، هو هذا الذى كتبه عنها « دوماس » بعد أن التقى بها فى مأدبة عشاء ، اذ قال :

« وعقب العشاء ، عدنا الى «الصالون» ، فلم تلبث أن أقبلت « مدام ريكامييه» بعد عشر دقائق ٠٠ وكانت هى الاخرى من ملكات الجمال والذكاء ، وقد استقبلتها دوقة « سان لى » كما تستقبل شقيقتها ! ولقد سمعت كثيرا من الجدل حول عمر «مدام ريكامييه» ٠٠ ومع أننى رأيتها فى الليل ، وقد ارتدت ثوبا أسود ، ولفت رأسها وعنقها بوشاح من اللون ذاته ، الا أننى اذا حكمت بوحى من صوتها المليء بنبرات الشباب ، وعينيها الجميلتين ، ويديها البضتين الملتفتين ، لأراها جاوزت الخامسة والعشرين »

وكانت فى ذلك الحين فى الرابعة والخمسين !

❖

◆ وقصرت مدام ريكامييه حياتها فيما بعد على دارها فى « اباى - او - بوا » ، حيث رتبت حياتها على أن تفرد لشاتوبريان كل يوم ساعة تخلو اليه فيها ، فيما بين الثالثة ..

والرابعة بعد الظهر ، فلا تسمح لاحد من أصدقائها العديدين أن يشغلها عنه ، أو أن يشاركهما اللقاء ٠٠ وكانا يتكاتبان اذا غابت عنه ٠ فلما اشتد به الداء الذى انتهى الى شلله ، كتب يقول لها : «ستجديننى قد تغيرت كثيرا ، فأصبحت أبدو كما لو كنت فى المائة من عمرى ٠٠ وانى لأطرح عند قدميك قرنا كاملا من الحب » !٠٠ وكتب فى مرة أخرى يقول : « لاتتحدثى قط عما يصيبنى بدونك ، فما أرانى ارتكبت من الشر ـ بالنسبة لله ـ مايستوجب أن ترحلى عن هذا العالم قبلى ! »

ومالبث الاديب الكبير أن غدا عاجزا عن الكتابة والسير، فكان اثنان من الخدم يحملانه الى دار «جولييت» فى موعدهما من كل يوم !٠٠ حتى اذا لاحظت أن مقدم أى زائر من زائريها كان يسوؤه ، حرصت على أن تزوره فى مسكنه بشارع « دوباك » بدلا من أن ترتقب حمله اليها ٠٠

هل كانت عشيقته ؟

◆ وفى سنة ١٨٤٤ منيت «جولييت» بالعمى ، ولكن هذا لم يقعد بها عن بذل أقصى جهدها لتذكى فى « شاتوبريان » روحه المعنوية ٠٠ ومع كل هذا الوفاء والارتباط ، فان أحدا لم يستطع أن يثبت انهما كانا عشيقين !

ولم يستطع فقدان البصر ، ولا الشيخوخة ، أن يطفئا فتنة « مدام ريكامييه » ٠٠ ومع أنها فقدت غضارة الشباب ، وانحنت قامتها فى أواخر عمرها بعض الشىء ، الا أنها ظلت تحتفظ بابتسامتها الفاتنة التى طالما غزت القلوب ، وبالجلال الخلاب الذى كان يكسب حركاتها مهابة ورواء ٠٠

وطلع عام ١٨٤٨ على أوربا والثورات تمزقها ، ولكن الصديقين العجوزين كانا قد بلغا سنا لا تدع لهما سبيلا الى أن يحفلا بشىء ، اذ كانت «جولييت» قد بلغت الحادية والسبعين، بينما تجاوز «شاتوبريان» الثمانين ٠٠

وفى يوليو من ذلك العام مات شاتوبريان ٠٠ وكانت مدام ريكامييه الى جوار فراشه مع اثنين من أصدقائه حين لفظ آخر أنفاسه ٠٠

وعندما اجتاح فرنسا وباء «الكوليرا» فى سنة ١٨٤٩ ، لم تحفل «جوليبيت» بالخطر ، ولم تعن بالتحوط من الداء ٠٠ فلم يلبث أن أنشب مخالبه فيها ، فماتت فى مايو من ذلك العام ٠٠

نذرت حياتها للخير ٠٠

◆ **وبرغم** ما اشتهرت به مدام ريكامييه من فتنة ساحرة وحسن خلاب ، فان عفتها ظلت طيلة عمرها بمنجاة من أية شائبة !٠٠ واتسمت حياتها بأنها كانت سلسلة من المساعى للتوفيق بين المتخاصمين ، وللعمل على تخفيف آلام الغير ٠٠ وقد كتبت « كونتة » عنها ذات مرة ، فلخصت سيرتها فى هذه العبارات : « كان هدف حياتها أن تكون محبوبة من الجميع ! محبوبة لجمالها الباهر فى شبابها ٠٠ محبوبة لرقتها ، وكرمها الذى لا ينضب معينه ، ولشخصيتها الفاتنة التى كانت تنعكس على وجهها الحلو !٠٠ محبوبة لودها الحنون المفعم بالعطف ، والذى كانت تضفيه فى براعة ودون زيف ٠٠ محبوبة من الشاب والكهل ، من الصغير والعظيم ، من الرجال والنساء !٠٠ أجل ، حتى من النساء ، اللواتى يتحفظن عادة ازاء كل مايتعلق بغيرهن من بنات جنسهن ٠٠

فأى مجد أحق من هذا بالحسد ! ؟ »

كتابى القادم

« ممتاز » ٠٠ فى كل شىء !

مادته لا تقدر بمال ٠٠ لكن ثمنه ١٠ قروش فقط

رسائل غرام خالدة

◆ فى سنة ١٨٣٣ صارت ممثلة المسرح « جولييت درويه » عشيقة - وصديقة ! - للروائي والشاعر الفرنسى الموهوب « فيكتور هوجو » ، وكان يومئذ فى الرابعة والثلاثين ٠٠ ومنذ ذلك التاريخ ارتبط العاشقان بالحب مدى خمسين عاما كاملة - نصف قرن ! - حتى افترقا أخيرا بموت جولييت ، ثم لحاق هوجو بها بعد عامين ٠٠

وفيما يلى احدى رسائل الممثلة الى صديقها الاديب الكبير :

الى حبيبى ٠٠ ألف قبلة !

حبيبى فيكتور ٠٠ مازلت فريسة لحمى الانفعال العذب الذى تولانى منذ سهرتنا الجميلة ليلة امس ٠٠ ولما كنت الآن بعيدة عن الصديق ، وعن «القلب» الذى يفهمنى ، والذى استطيع ان أسكب فيه الفائض من سعادتى ٠٠ فانى أكتب اليك هذا الاعتراف : « انه فى يوم أمس ، ٣ يوليو سنة ١٨٣٤ ، فى الساعة العاشرة مساء ، فى حانة « جوى » ٠٠ كنت - أناجولييت درويه - أسعد نساء الارض طرا ، وأكثرهن فخرا وزهوا !٠٠ فانى حتى تلك اللحظة - ولتسجل على هذا الاعتراف ! - لم أكن قد استمتعت استمتاعا كاملا صافيا بالسعادة التى يغدقها على نفسى حبى اياك ، وحبك اياى ٠٠

وماهذا الخطاب الذى أحرره لك الآن بملء ارادتى الا بمثابة « محضر رسمى » يسجل الحالة الراهنة لقلبى ، ويسرى على فى الحال والاستقبال ، مدى حياتى ٠٠ بحيث أتعهد بأن أسلم قلبى المذكور بنفس الحالة التى هو عليها اليوم فى أية لحظة أو ساعة يقدم الى فيها هذا المحضر ٠٠

بنفس الحالة ، أى وهو ممتلىء بحب واحد - هو حبى لك - وبفكر واحد ٠٠ هو أنت ! **«جولييت»**

ملحوظة : وقعت على هذا المحضر - كشهود - الالف قبلة التى أمطرت بها هذا الخطاب !

الحياة
قصة

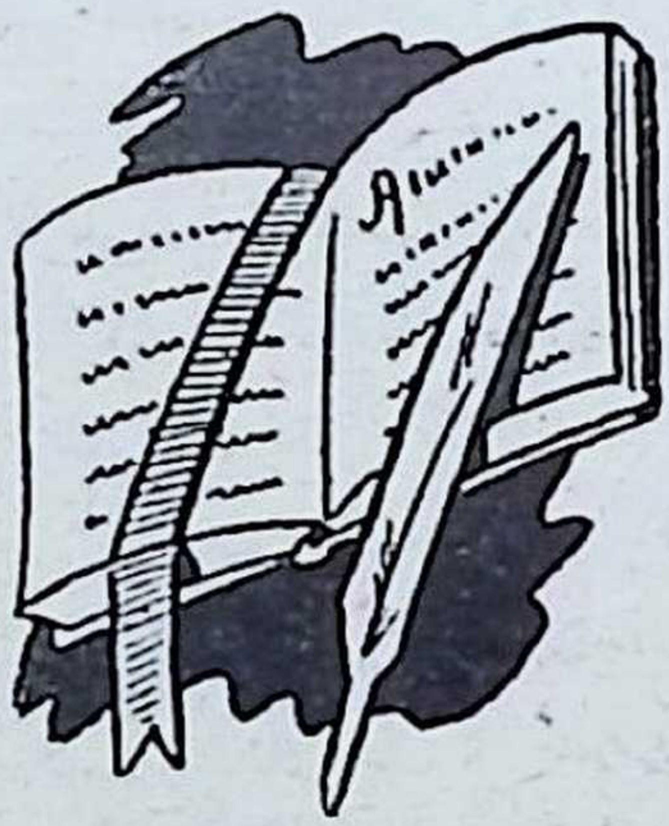

روائع
القصص
العالمى

عزيزى القارىء ...

قرأت معى فى الاعداد الماضية من «كتابى» ، القصص العالمية الاتية على التوالى :

- أموك : لستيفان زفايج
- قلب عذراء : جون جالزورثى
- مرتفعات وذرنج : اميلى برونتى
- التلميذ : بول بورجيه
- احدب نوتردام : فيكتور هوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- ايام بومباى الاخيرة : لورد ليتون
- مانون ليسكو : الاب بريفو
- حديقة الله : روبرت هتشنز
- عندما تحقد المرأة : جورج أونيه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين : سنكلير لويس

واليوم أقدم لك هذه القصة الحديثة للفيلسوف العالمى المعاصر برتراند رسل .. تتلوها فى الاعداد القادمة باذن الله :

- المراهقون : البرتو مورافيا
- تاييس : أناتول فرانس
- الخطاب : سومرست موم
- الجريمة والعقاب : دستويفسكى الخ .. الخ

برتراند رسل

الشيطان .. على الأرض !

قصة المؤلف

◆ فى منتصف ديسمبر سـنة ١٩٥٠ منحت جائزة نوبل فى الادب للمفكر الانجليزى المعروف « برتراند رسل » ٠٠ فلما سمع بذلك أحد أدباء الانجليز المتخرجين من « كمبردج » ، تساءل مازحا : « أو منحوه جائزة نوبل فى الادب وحده ؟ كان ينبغى أن يمنحوه جائزة فى الشذوذ أيضا ! »

والواقع انه يستحقها ، فان هذا الكهل ذا الجسم الهش والوجه الشبيه بوجه القديس الساخر ، يقف بعد برناردشو كأعظم شخصية معاصرة تستفز بآرائها الجماهير الناطقة بالانجليزية ، وتتحداها ، وتثيرها !

وبرتراند رسل مفكر كان طيلة حياته ـ ومايزال ـ متعدد الجوانب ، له فى ذهن كل فئة من قرائه صورة مختلفة وصفة بارزة ، بحيث يصعب تقويم مواهبه المتنوعة الفذة وتغليب احداها : فهو بالنسبة للمشتغلين بالفلسفة فيلسوف ، وبالنسبة للرياضيين عالم فى الرياضيات ، وبالنسبة للمفكرين الثائرين مفكر ثائر ٠٠ وهلم جرا !

وقد اتهم رسل ـ وضبط متلبسا عدة مرات ـ بكثير من التنـاقض مع نفسه !٠٠ وحاق فى أجواء للمعرفة ابعد وأعمق غورا مما يستطيع ان يسايره فيها القارىء العادى ٠٠ كما أثار اهتمام القراء واحتل اسمه الصفحات الاولى من الصحف ، فى كثير من المناسبات ، على صورة تكاد تكون وقفا على كواكب هوليوود !٠٠ من امثلة ذلك أنه تنبأ فى سنة ١٩٣٧ بأنه حين تنشب الحرب العالمية الثانية سوف يكون قد هرب الى بلد محايد ، وقد حدث فعلا أن الحرب نشبت سنة ١٩٣٩ وهو فى «كاليفورنيا» بأمريكا ، يدرس الفلسفة فى جامعتها٠٠ فدعى على الاثر كى ينضم الى أساتذة « كلية نيويورك » ، فقبل مرحبا ٠٠ لكنه لم يكد يتسلم مهام منصبه الجديد حتى تلقت الصحف بيانا من الاسقف « مانتج » اسقف الكنيسة البروتستنتية يهاجم فيه تعيين رسل فى منصبه الجديد بقوله : « ان مستر رسل داعية معروف بعدائه للدين والاخـلاق ، وبدفاعه عن الزنا وتبريره له ! »

◆ وكانت تلك بداية « قضية رسل » المشهورة ، التى انقسم بازائهـا الرأى العام الامريكى المثقف فى سنة ١٩٤٠ الى قسمين : قسم يناصر الرجـل ، وقسم يناصبه العداء ـ تماما مثلما انقسم الفرنسيون بازاء « دريفـوس » أيام قضيته المعروفة ـ فكنت ترى رجال الدين والكنيسة يهاجمون بعضهم البعض ، والمعلقين فى الصحف يتبادلون قوارص التهم ، حتى ليوشكوا أن «يتضاربوا» بمقالاتهم !٠٠

ولم يمض وقت طويل حتى رفع الامر الى القضاء ، كى يصدر حكما يجيب على هذا السؤال الخطير : «هل يصلح برتراند رسل لان يعلم الفلسفة فى كلية ينفق عليها دافعوا الضرائب من سكان نيويورك ؟ »

ووقف أحد المحامين يهاجم رسل بقوله : « ان كتبه داعرة ، فاسقة شهوانية ، شبقة ، جنونية ، فاجرة ، ملحدة ، وقحة ، كاذبة ، مجردة من كل أثر لمبادىء الاخلاق ! »

ورغم ذلك ، فان هذا المتهم ذاته هو الذى تلقى فى سنة ١٩٥٠ وسام الاستحقاق - أو نوط الجدارة - من ملك انجلترا ٠٠ وفاز فى شهر ديسمبر من نفس العام بجائزة نوبل العالمية فى «الادب» !

الكتاب الذى أثار الثائرة عليه !

◆ وقد بنيت كل التهم التى وجهت الى رسل على كتابه الذى الفه سنة ١٩٢٩ بعنوان « الزواج والاخلاق » ، وقد نادى فيه بضرورة التسامح فى خطايا الازواج غير الموفقين فى حياتهم الزوجية ٠٠ والغريب أن الكتاب استقبل عند صدوره استقبالا حسنا من القراء ، بل ومن الكاثوليك انفسهم ٠ فلما أثير أمره فى القضية بعد أحد عشر عاما من ذلك التاريخ تسبب فى حرمان مؤلفه من منصبه الجامعى كأستاذ للفلسفة فى جامعة نيويورك !

لكن الفيلسوف المطرود من الجامعة بقى بمستوطنا الولايات المتحدة حتى نهاية الحرب ، ولم يعد لوطنه الا فى سنة ١٩٤٥ حين انتخب «زميلا» فى كلية ترينتى التابعة لجامعة كمبردج الانجليزية المشهورة ٠٠ واذا المفكر الذى اطلق عليه فى يوم من الايام لقب «بولشى» - اختصارا لـ «بلشفى» - يضع قدمه فى بلاده ليجد صحيفة « الديلى وركر » العمالية اليسارية تنهال عليه بحملاتها الكاريكاتورية التى تصوره فى صورة « تاجر الحرب المتوحش ! » وما ذلك الا لانه كان قد اذاع حديثا فى الاذاعة البريطانية قال فيه : « لم يحدث قط أن سيطرت دولة كبيرة على رعاياها سيطرة كاملة كما يحدث فى روسيا السوفيتية ٠٠ ولكن ، كما حدث

فى القرن الخامس ، لابد ان ينهار هذا النظام من أساسه - بكل مايترتب على انهياره من فوضى وفقر - قبل ان يستطيع البشر ان يستردوا تلك الدرجة من الحرية الشخصية التى بدونها تفقد الحياة طعمها ولذتها ! »

لكن رسل - بطريقته المعهودة - لم يكتف بمهاجمة الشيوعية الروسية بل قرن بها الاشتراكية البريطانية الحالية ، فتنبأ بانهيار الاثنين .. حتى ليعد اليوم عدوا للسوفييت وعدوا للاشتراكيين فى وقت واحد ! وهو يمتدح الارستقراطية بقوله : « انها منحت الناس الفراغ ، وبغير الفراغ لايمكن للمدنية أن ترتقى .. فالارستقراطية تعطى الانسان سعة فى أفق التفكير »

يحبذ القنبلة الذرية !

◆ وكان ابرز ماتميز به رسل بعد عودته الى مسرح الحياة الانجليزية انه لم يعد داعية السلام الذى كانه أيام الحرب العالمية الاولى .. ومن اقواله المأثورة تاييدا لاتجاهه الجديد : « لو كنت شابا لحاربت هتلر »

اما اليوم فيرفع رسل عقيرته بالتحذير من الخطر الروسى الذى يهدد الولايات المتحدة « بالتطويق » فى الشرق الاقصى .. وهو يدعو الى استعمال القنبلة الذرية اذا غزا الشيوعيون سيام او بورما أو غرب برلين !.. فما أبعد هذه الصيحة عن الميدان الذى كان يخصه رسل بصيحاته فى الايام الخوالى ، حين كان يركز اهتمامه واطلاعه الواسع فى « منطق العلوم الرياضية » مثلا .. ويطبق مبادئه بصدد « الحرية الجنسية » فى إحدى مدارس مقاطعة هامبشاير ، حيث كان يلقى دروسه !

فهل هناك خيط واحد يمكن تتبعه ، يربط بين كل هذه الاتجاهات المتنافرة والميادين المتباعدة للبحث ، والدراسة ، والدعوة الحماسية المخلصة ؟

اهدافه الخمسة للانسانية

◆ يعتقد برتراند رسل أن هناك مثل هذا الخيط ، فهو يقول انه قد كرس حياته كلها لتعريف السعادة وتحديدها ، وأن « التذكرة الطبية » التى يصفها لكل انسان ، أو الاهداف التى يرى وجوب تحقيقها للبشر جميعا هى باختصار : الصحة ، والامان الاقتصادى ، والعمل الذى يرضى هواية الانسان ويتفق مع ميوله ، والعلاقات الشخصية التى ترضى رغبات الانسان وتتفق مع ميوله ، واخيرا اتساع نطاق الامور التى يوليها المرء اهتمامه ويحفل بها ..

ولعل من أغرب مظاهر تناقض برتراند رسل مع نفسه : مظهره ! فان هذا الرجل الثائر المثير للقلاقل ، المنادى بالحرية الجنسية ، المحرض على استخدام

القنبلة الذرية فى الحروب ٠٠ هو فى مظهره شيخ مسن فى الحادية والثمانين من عمره ، متورد الوجه ، تحيط بمحياه هالة « قدسية » من الشعر الابيض ، وابتسامة تبدو للبعض عذبة صافية ، فى حين يصفها البعض بانها ابتسامة « الراهب الخبيث » !

ومن مظاهر تناقضه أيضا ان «اعراض» ثقافته العالية لاتبدو للعيان ، ولا يباهى بها ٠٠٠ قابله احد الادباء مرة على ظهر الباخرة التى تعبر المحيط من امريكا الى انجلترا ، وكان يحمل تحت ابطه كتبا ثلاثة ٠ هل كانت كتبا فى الفلسفة ؟ أو الرياضة ؟ أوعلوم ماوراء الطبيعة ؟ كلا ٠٠ بل كانت ثلاث روايات أمريكية « بوليسية » !٠٠ وابتدرالفيلسوف محدثه قائلا : « انىأستطيع استيعاب اثنتين منها فى الليلة الواحدة » ٠٠ ولعل هذه الظاهرة هى التى يعنيها رسل فى وصفته الطبية الفلسفية للسعادة ، بانها « اتساع نطاق الامور التى يوليها الانسان اهتمامه » ٠٠ وهل هناك أبعد من المدى بين الاهتمام بالفلسفة ، والاهتمام بحل الالغاز البوليسية ؟

رثاء رسل لنفسه !

◆ ومن أطرف نزوات رسل الشاذة انه خصص فصلا من فصول كتاب له عنوانه « مقالات وبحوث غير مالوفة » ـ أو غير مستساغة ـ لكتابة رثاء لنفسه ، قدم له بهذه العبارة : « هذا المقال سوف ينشر ـ او سوف لاينشر ـ فىجريدة التايمس يوم اول يونيو سنة ١٩٦٢ ، لمناسبة موتى المفجع المتاخر » ٠٠ وفيمايلى طرف من ذلك الرثاء الطريف الحافل بالسخرية اللاذعة :

« يموت ايرل رسل الثالث ـ أو برتراند رسل كما كان يؤثر ان يسمى نفسه ـ فى سن التسعين ، انقطعت حلقة تربط حاضرنا بالماضى البعيد ـ فقدكان جده لورد جون رسل رئيس الوزارة البريطانية الذى زار نابليون فى منفاه بجزيرة البا ، خلال حكم الملكة فيكتوريا ! ـ وقد برز الفقيد فى شبابه فى أبحاثه ونظرياته التى تعالج « منطق الرياضيات » ، لكن مسلكه الشاذ خلال الحرب العالمية الاولى أظهر افتقاره الى الاتزان فى احكامه وتقديره للامور ، الامر الذى شاب كتاباته الاخيرة على صورة متزايدة ٠ ولعل مرد ذلك ـ ولو جزئيا ـ الى انه لم يحظ بمزايا الدراسة فى مدرسة عامة ، بل تلقى علومه فى البيت على معلمين خصوصيين حتى سن الثامنة عشرة ، حين التحق بجامعة كمبريدج ٠٠ ثم تخرج منها سنة ١٨٩٣ ٠ وخلال الخمسة عشر عاما التالية الف الكتب التى اكسبته شهرته فى الاوساط الثقافية فى العالم اجمع ، ومن بينها كتاب « مبادىء

الرياضيات » الذى وضعه بالاشتراك مع زميله الدكتور «هوايتهيد» ، والذى ظفر عند صدوره باهتمام المثقفين وتقديرهم ٠٠ ولاشك أن الكتاب كان يدين بتفوقه وروعته الى موهبة الدكتور هوايتهيد ، وهو الذى امتاز ببعد النظـر والعمق الروحى اللذين كان رسل مفتقرا اليهما ٠٠

« وهذا الافتقار الى العمق الروحى تجلى على اسوأ صورة خلال الحرب العالمية الاولى ، حين نادى رسل بوجوب انصراف هم الساسة الى تقصير أمد الحرب ـ باعتبارها شرا مستطيرا ـ باية وسيلة وعلى اية صورة ، ولو بالتزام بريطانيا الحياد وانتصار المانيا !٠٠ وقد أدت به مناداته بهذه الرسالة الى فقده منصبه كمدرس فى جامعة كمبريدج عن استحقاق ، ثم الى الزج به فى السجن حيث قضى بين قضبانه بضعة أشهر من عام ١٩١٨

« وفى سنة ١٩٢٠ قام بزيارة قصيرة لروسـيا ، التى لم يعجبه نظام الحكم فيها ٠٠ ثم بزيارة أطول للصين ، حيث استمتع بالتأمل العقلى فى مهد الحضارة القديمة ، الذى لا تزال تفوح فيه اليوم روائح القـرن الثامن عشر !٠٠ وفى السنوات التالية بعثر نشاطه على الكتابة فى عدة موضوعات : تارة فى الاشتراكية ، والاصلاح الاجتماعى ، وتارة فى الدعوة الى التخفيف من صرامة قانون الاخلاق فيما يتصل بالزواج ٠٠ وبين الحين والآخر كان يعود الى الكتابة فى موضـوعات خارجية أعم ٠٠ أما كتاباته التاريخية فهى ـ بأسلوبها ودعاباتها ـ تخفى عن القارىء العابر سطحيتها العتيقة التى لازمت الكاتب الى النهاية ٠٠

« وفى الحرب العالمية الثانية لم يضطلع الفقيد باى دور ايجابى ، بل اكتفى بالفرار الى دولة محايدة قبيل نشوبها مباشرة ٠ وكان رايه الخاص الذى ادلى به فى مناقشاته غير العلنية أن نزلاء مستشفى المجاذيب من القتلة قد استخدموا فى قتل بعضهم البعض خير استخدام ، وأن العقلاء ينبغى أن يتجنبوا طريق هؤلاء أثناء انهماكهم فى مهمتهم !٠٠ ومن حسن الحظ أن هذه النظرية ـ المقتبسة من آراء «بنتام» ـ قد أمست نادرة الشيوع فى هذا العصر الذى يجعل للبطولة فى ذاتها قيمة مستقلة عن فائدتها او نفعها ٠٠ حقيقة أن الكثير مما كان يعرف فى الماضى بـ « العالم المتمدين » قد صار أطلالا ، ولكن ما من مفكر صـائب الرأى «يستطيع» أن يعترف بأن الذين ماتوا دفاعا عن الحق فى الكفاح الهائل قـد ماتوا عبثا !

« أما حياته ـ بكل ما انطوت عليه من عناد وصلابة ـ ففيها عنصر من الخطأ فى تسلسل الحوادث يذكر بالذى كان للثوار الارستقراطيين فى أوائل القـرن التاسع عشر ٠ وأما مبادئه فكانت عجيبة ، لكنها برغم ذلك سيطرت عـلى

تصرفاته . وفى حياته الخاصة لم يظهر شيئا من الفظاظة والمرارة التى شابت كتاباته .. بل كان محدثا لبقا ، أصيل الرأى ، وغير مجرد من العطف الانسانى ..

«وكان له أصدقاء كثيرون ، لكنه عاش بعد وفاة أكثرهم ، بل جميعهم تقريبا .. وبالنسبة للقلائل الباقين بدا فى أرذل عمره رفيقا بهيجا مسليا ، الامر الذى يرجع أكثره الى صحته المتينة ، التى ترجع بدورها الى أنه فى سنواته الاخيرة عاش فى عزلة تامة عن السياسة ! »

ذلك هو رثاء برتراند رسل لنفسه ، وتسجيله لسيرة حياته .. افلا يوافقه القراء على الكثير من آرائه الجريئة ؟

هذه القصة : أحدث كتاب وأول « قصة» يكتبها رسل !

◆ والآن .. بقى ان تعرف شيئا عن الكتاب ، بعد أن عرفت شيئا عن الكاتب .. وهذا الكتاب هو أحدث ما أصدر برتراند رسل من مؤلفات - فقد نشر فى لندن منذ نحو شهر واحد فقط - وقد يدهشك أن تعلم انه اول «قصة» يكتبها برتراند رسل فى حياته !.. فان جميع كتبه السابقة ، التى بلغت خمسة وعشرين كتابا ، كانت تدخل فى باب الفلسفة ، أو الاجتماع ، أو السياسة العالمية ، أو علم النفس .. الخ - أما باب القصة فلم يطرقه «رسل» قبل هذه المرة .. وهو يعلل نزوله الى ميدانه - فى مقدمة الكتاب- بهذه العبارات : «ان محاولة طرق باب جديد من أبواب الكتابة ، فى سن الثمانين ، قد تكون أمرا غير مألوف - وان تكن له سوابق - ومن ثم قد يتعين على ايضاحه وتبريره ، تخفيفا من حدة دهشة القارىء ! - والواقع أن دهشة القارىء فى هذا الصدد قد لا تفوق دهشتى أنا نفسى ! - والذى حدث اننى ، لسبب غير مفهوم ، وجدت نفسى راغبا فى كتابة هذه القصة - رغم اننى لم أفكر قط من قبل فى أن افعل شيئا كهذا ! .. ولما كنت قد وجدت متعة خاصة فى كتابتها ، فقد يوجد قراء يجدون نفس المتعة فى قراءتها !

«وانا لم اقصد بهذه القصة أن تكون أدبا واقعيا ، أو موضوعا اخلاقيا له هدف ، بل أن أسفى يكون بالغا اذا فهم البعض اننى قصدت بها ابراز عظة خلقية معينة أو وضع دستور خاص للمجتمع .. وانما كتبتها ، بكل بساطة ، كقصة .. فاذا وجدها القارىء مسلية أو ممتعة كمادة للقراءة تكون قد أدت غرضها !»

◆ ذلك هو تقديم المؤلف الساخر للقصة .. ومع ذلك ، فقد جاءت القصة فى رأيى منطوية على أكثر من هدف ، واكثر من عظة .. سواء قصد اليهما المؤلف أم لم يقصد !

ولما كانت روعة هذه القصة تظهر فى سياقها التحليلى وتسلسلها التفصيلى ، أكثر مما تظهر فى حوادثها ذاتها .. فقد عز على أن أفقدها بالتلخيص الموجز شيئا من جمالها ، فآثرت ان اقدمها اليك فى تلخيص مطول أقرب الى الترجمة الكاملة .. ولو اضطرنى ذلك الى تجزئتها الى عددين ، سيما وانها بطبيعتها مؤلفة من أربعة أقسام بل اربع قصص تكاد تكون مستقلة كل عن الاخرى تمام الاستقلال !

فتعال معى نقرأ القصة التى ركز فيها برتراند رسل كل فلسفة وسخرية ، وتجارب ثمانين عاما .. قضاها «هو» على الارض !

- ١ -

◆ **عند** عودتى من عملى ذات مساء الى حيث اقطن فى ضاحية (مورتليك) ، لمحت لافتة نحاسية جديدة على باب «فيلا» اعتدت ان امر بها كل يوم . ولدهشتى قرأت على اللافتة النحاسية هذه العبارة الغريبة :

مغامرات مثيرة تحت الطلب
اتصلوا بالدكتور «مردوخ ملاكو»

واثار الاعلان فضولى ، فلما بلغت البيت كتبت الى الطبيب المذكور خطابا اسأله مزيدا من الايضاح .. فتلقيت منه الرد التالى :

◆ سيدى ... لم يدهشنى طلبك لايضاح ماعنيته بلافتتى النحاسية ، واليك الايضاح المطلوب : لعلك لاحظت اخيرا شيوع النزعة الى الشكوى من الضجر الذى يبعثه «روتين» الحياة المألوفة فى ضواحى مدينتنا العظيمة . وقد عبر بعضهم عن ذلك بالقول ان الشاكين من هذا الضجر فى حاجة الى مغامرة ما ، بل شىء من «المخاطرة» التى تعينهم على احتماله .. وأملا فى سد هذه الحاجة اتخذت لنفسى هذه المهنة الجديدة ، معتقدا أن فى وسعى تزويد عملائى بمغامرات ومخاطرات جديدة مثيرة تقلب نظام حياتهم راسا على عقب .

«فاذا أردت مزيدا من الايضاح ففى استطاعتى تقديمه لك اذا حضرت لزيارتى فى الموعد الذى نتفق عليه . واتعابى عشرة جنيهات فى الساعة .»

◆ وادخل هذا الرد فى روعى ان الدكتور ملاكو رجل «انسانى» من نوع جديد ، لكنى ترددت فيما اذا كان الامر يستحق التضحية بالجنيهات العشرة ، ام ان الاوفق انفاق هذا المبلغ فى باب آخر من ابواب اللهو وتبديد الضجر ..

وقبل ان يستقر رأيى على قرار فى هذا الشأن ، كنت مارا امام دار الطبيب مساء احد أيام الاثنين ، حين لمحت جارى مستر «ابركرومبى» خارجا من باب الدار ، شاحب الوجه ، مشتت الفكر ، زائغ العينين ، مضطرب الخطوات ، يتحسس بيده مزلاج الباب ثم يمرق الى الطريق كما لو كان قد ضل سبيله فى جهة غريبة عليه !.. فلم املك ان هتفت به : «بحق السماء ماذا اصابك أيها الرجل ؟» .. فاجابنى مستر ابركرومبى وهو يحاول ـ محاولة يرثى لها ! ـ ان يتظاهر بالهدوء : «أوه لاشىء على وجه التحديد . كنا نتحدث عن الطقس ..»

فقلت له ملحا : «لا تحاول ان تخدعنى .. فلابد ان شيئا اسوأ من الطقس قد طبع هذا الرعب على وجهك !» .. فاجاب فى عصبية : «أى رعب ؟ هراء !.. قد يكون ذلك من تأثير افراطنا فى الشراب ..»

ولما كان مسلكه قد اوحى الى برغبته فى التخلص من اسئلتى ، فقد تركته يمضى الى حال سبيله .. وفى الليلة التالية كنت عائدا الى بيتى فى الساعة عينها ، فرأيت جارا آخر لى ـ هو مستر بوشامب ـ خارجا من دار الطبيب فى نفس الحالة من الرعب والدوار ! لكنى لم أكد اهم بالاقتراب منه حتى اشاح عنى مبتعدا !.. وفى الليلة التى تلتها شاهدت الملامح بعينها على سحنة شخص ثالث يدعى مستر «كارترايت» ! .. وفى مساء الخميس تكرر المنظر ذاته مع «مسز اليركر» ـ وهى سيدة متزوجة ، فى الاربعين ، كنت على صلة صداقة بها ـ بل انها لم تكد تخرج من دار الدكتور ملاكو حتى سقطت على الرصيف مغشيا عليها !.. واعنتها على

استعادة وعيها ، فلما تمالكت نفسها بدرت منها كلمة واحدة همست بها وهى ترتجف ، وكانت هذه الكلمة : «مستحيل» ! .. وعبثا حاولت ان استخلص منها مزيدا من الايضاح ، رغم انى رافقتها حتى باب بيتها ..

وفى مساء الجمعة لم أر احدا .. وفى يومى السبت والاحد لم أذهب الى عملى ، وبالتالى لم امر امام دار الدكتور ملاكو . ولكن فى مساء الاحد زارنى جارى مستر «جوسلنج» ، وهو شخص ثرثار لا غنى عنه فى مجتمعات ضاحيتنا ، فلم يكد يستقر فى احد مقاعدى المريحة ويتناول كأسا من الشراب حتى بدأ يثرثر ويفضى الى ، كعادته ، باخبار من نعرف من اهل الضاحية .. قال : **«هل سمعت بالامور الغريبة التى تحدث فى شارعنا ؟ ان مستر ابركرومبى ، ومستر بوشامب ، ومستر كارترايت ، قد اصيبوا جميعا بمرض اقعدهم عن الذهاب الى اعمالهم .. فى حين اعتكفت مسز اليركر فى غرفة مظلمة ، تئن وتنتحب !»**

وبدا لى ان مستر جوسلنج يجهل كل شىء عن الدكتور ملاكو ولافتته النحاسية العجيبة ، ومن ثم رأيت الا افاتحه بشىء فى هذا الصدد ، بل اتحرى الامر كله بنفسى .. فبدأت بزيارة «المرضى» الاربعة ، على التوالى ، لكن الرجال الثلاثة أبو ان يرضوا فضولى بكلمة واحدة فى الموضوع . اما الرابعة فرفضت حتى ان تسمح لى بدخول صومعتها او اقتحام عزلتها !.. وبدا واضحا ان امورا غريبة كانت تجرى وراء الستار ، وان للدكتور ملاكو صلة وثيقة بهذه الامور . ومن ثم قررت ان ازوره ــ لا كعميل ، وانما كمحقق ــ فلما طرقت بابه ادخلتنى خادم انيقة الى غرفة الاستشارة ، ولم يلبث ان دخل الدكتور ملاكو على وهو يبتسم وابتدرنى متسائلا : «اية خدمة استطيع ان اؤديها لك يا سيدى ؟» .. وكانت

لهجته لطيفة دمثة ، تتناقض مع ابتسامته الغامضة التى كانت ترتسم على فمه ، دون ان تشاركه فيها عيناه .. ولا ادرى لماذا جعلتنى نظرته الثاقبة ، الباردة ، ارتجف بقشعريرة خفية!

واجبت محدثى قائلا : «لقد شاءت المصادفة أن اشاهد على باب دارك فى اربع ليال متعاقبة ظاهرة غريبة ذات طابع مشترك يدعو الى الانزعاج !.. ولئن كان خطابك المقتضب لم يكشف لى ما قد تخفيه لافتتك النحاسية ، فان القليل الذى شاهدته بعينى قد جعلنى ارتاب فيما اذا كانت نواياك انسانية محضة حقيقة ، كما اوحيت الى فى ردك !؟.. قد اكون مخطئا فى شكوكى .. فاذا كان الامر كذلك كان من السهل عليك ان تبادر الى اعادة السكينة الى نفسى . لكنى اصارحك بانى لن اقنع حتى تعطينى ايضاحا كافيا للحالة التعسة التى خرج فيها من عيادتك كل من مستر ابركرومبى ، ومستر كاريرايت ، ومسز اليركر !»

لكنى لم افرغ من عبارتى حتى تلاشت ابتسامة الدكتور ملاكو ، واتخذ وجهه سمة الزجر والتأنيب ، وهو يجيبنى : «سيدى ، انك تغرينى بارتكاب حماقة .. أفلا تعلم ان الاسرار التى يأتمن عليها المرضى أطباءهم لها حرمة الاعتراف الدينى ؟.. واننى لو ارضيت فضولك العقيم لارتكبت بذلك اثما فظيعا ؟.. كلا يا سيدى ، اننى لن اجيبك على استجوابك الوقح ، بل إطالبك بمغادرة بيتى فورا .. اليك الباب !»

فلما وجدت نفسى مرة اخرى فى الطريق شعرت لاول وهلة بشىء من الخزى ، فلو كانت نوايا الرجل طيبة لكان على حق فى رفضه افشاء اسرار «مرضاه» . فهل كان انزعاج زواره الاربعة يرجع مثلا الى انه صارحهم بأمراض خطيرة فيهم كانوا يجهلونها ؟ قد يكون الامر كذلك ، ولو أنه بعيد الاحتمال .. ولكن ماذا كان فى وسعى ان افعل ؟

وانتظرت اسبوعا آخر ، كنت خلاله امر بدار الدكتور ملاكو صباح مساء لكنى لم ألحظ جديدا ، وان كان موضوع المرضى الاربعة وطبيبهم الغامض قد شغل تفكيرى بصورة متزايدة كانت اشبه بـ «كابوس» .. حتى اضطررت آخر الامر الى ان اشغل اكثر وقتى فى عملى ، واسلك الى بيتى طريقا آخر لا يمر بدار الدكتور ملاكو !

- ٢ -

◆ **وبدأت** أعتقد اننى قد تخلصت من ذلك الكابوس .. حتى زارنى مستر جوسلنج ذات مساء مرة أخرى ، وكنت احسب ان طبيعته المرحة ستبدد من ذهنى كل تلك الافكار السوداء ، لكن كلماته الاولى التى فاه بها بعد ان ناولته كأسا من الشراب ، ألقت بى مرة اخرى فى أعماق تلك الدوامة من القلق .. فقد ابتدرنى زائرى بهذا السؤال : «هل سمعت ان مستر ابركرومبى قد قبض عليه ؟»

فلما ابديت له دهشتى وسألته عن التفصيلات ، استطرد قائلا : «انت تعلم ان ابركرومبى يحظى باحترام الجميع فى منصبه كمدير لفرع هام من افرع أحد مصارفنا الرئيسية . وقد كانت حياته العامة والخاصة على الدوام ناصعة لا غبار عليها ، مثل ابيه من قبله .. بل لقد كان ينتظر أن ينعم عليه فى أقرب فرصة بلقب «سير» ، ويرشح لعضوية البرلمان عن دائرته الانتخابية . **ولكن برغم هذا الماضى الطويل المشرف ، يبدو انه قد اختلس اخيرا مبلغا كبيرا من المال ، محاولا فى نذالة ان يلصق التهمة بأحد مرؤوسيه !»**

ولما كنت اعتبر ابركرومبى فى مرتبة الصديق ، فقد تأثرت لهذا النبأ تأثرا عميقا .. وسعيت اليه فى سجنه ، فوجدته شاحبا هزيلا يبدو عليه الاعياء واليأس . وادركت ان للدكتور ملاكو ضلعا فى مأساته ، فناشدته ان يصارحنى

دون مواربة بجلية الامر ، فقد تكون فرصة انقاذه ما تزال سانحة.. لكنه اجابنى فى لهجة اليائس : «لا فائدة ، فقد فات الاوان .. ولم يبق امامى غير الانتظار المضنى للموت ، ولابقى امام زوجتى المسكينة واولادى التعساء غير مواجهة الفاقة والعار ! فيالشؤم تلك اللحظة التى عبرت فيها عتبة ذلك البيت اللعين .. وسحقا لتلك الساعة التى اصغيت فيها لفراسة ذلك الشيطان الرجيم !»

فغمغمت ، كأنما اغبط نفسى على فراستى انا الآخر : «صدق حدسى .. ولكن حدثنى بقصتك من البداية» .. واذ ذاك اندفع صديقى التعس يفرغ شجنه بين يدى ، فى هذا الاعتراف الباكى :

❖

◆ عندما مضيت لزيارة الدكتور ملاكو كنت مدفوعا بشعور من الفضول الخالص ، فقد ساءلت نفسى : ترى ماذا تكون هذه المغامرات التى يعدها الدكتور ملاكو لزائريه ؟.. وكان اول ما لفتنى منه بعد دخولى فرط اعتداده بنفسه ، الذى جعله يعاملنى بنوع من التعالى ، القريب من الاحتقار ! ومن نظراته الاولى الحادة ، الفاحصة ، شعرت أنه يستطيع قراءة أخفى خفايا افكارى .. وفى البداية بدا لى ذلك مجرد وهم سخيف ، حاولت أن ازيله من ذهنى .. لكنه لم يكد يمضى فى حديثه ، بنغمه الرتيب ، الخالى من ابسط مظاهر العاطفة او الشعور ، حتى بدأت اقع تدريجيا تحت تأثيره .. فزايلتنى ارادتى ، وطفت الى سطح عقلى - كوحوش الغابة المنطلقة من الظلمات - أفكار خفية غريبة لم تكن قد راودت وعيى حتى تلك اللحظة الا فى الاحلام المزعجة والكوابيس !.. وكما يحدث للسفينة المهجورة فى مجاهل البحار الجنوبية ، تركت نفسى انجرف مع تيار أفكار الرجل وآرائه ، وقد احسست نفسى عاجزا ، يائسا ، ولكن مخلوب اللب !»

◆ وتنهد محدثى تنهدة عميقة ، واستطرد : «.. وكان حديثنا فى مستهله عاما ، تناول موضوعات شتى .. حتى اشرت انا الى أصدقاء لى دمرتهم ظروف اعمالهم السيئة . وتحت تأثير عطف محدثى الظاهر ، اعترفت له بأن لدى انا الآخر من الاسباب ما يجعلنى اخشى المصير ذاته .. وهنا انبرى الطبيب

يقول لى بلهجته المنطوية على الاغراء : «هناك دائما طريق لتجنب الدمار ، ينفسح أمام كل من يريد أن يسلكه !» .. ثم رمقنى الدكتور ملاكو بنظرة ثابتة ، واستطرد : «لى صديق كانت ظروفه فى فترة من الفترات لا تكاد تختلف عن ظروفك الحالية ، فقد كان مثلك مديرا لمصرف ، حائزا لثقة الجميع .. وكان هو الآخر قد ضارب فى البورصة وواجه الدمار ، لكنه لم يكن بالرجل الذى يقف مكتوف اليدين أمام خطر كهذا ، وانما أدرك أن لديه رصيدا لا يستهان به من السمعة الناصعة والكفاءة المشهود بها فى جميع المهام التى فرضتها عليه مهنته ! وكان من اهم بنود هذا الرصيد من المؤهلات أن مرؤوسه المباشر فى البنك كان ، على العكس منه ، رجلا ينقصه التزمت المطلوب فى شخص يؤتمن على أموال الناس .. كما يعاب عليه ولعه بالخمر ، وشىء من النزق وعدم الاتزان ، والتورط فى التصريح ببعض الآراء السياسية الهدامة !.. وأدرك صاحبى ، بذكائه الخارق ، أنه فى حالة اكتشاف اى تلاعب فى حسابات البنك لن يصعب عليه أن يوجه الشكوك الى مرؤوسه الشاب ذى النزاهة الجريحة !

«وهكذا أعد الرجل عدته بحذر بالغ ، فدس فى مسكن الشاب حزمة من أوراق البنكنوت المسحوبة من المصرف .. ثم اتصل بالتليفون بمكتب للمراهنات على سباق الخيل ، وراهن باسم الشاب ـ بمبالغ طائلة ! ـ على جياد كان معروفا أنها لا يمكن أن تربح !.. ثم قدر بكل دقة موعد مطالبة مكتب المراهنات للشاب بتسديد قيمة مراهناته ، ودبر أن يكتشف ـ فى ذلك الموعد بالذات ـ أمر المبلغ الكبير الذى كان هو قد اختلسه سرا من أموال البنك وأراد أن ينسب اختلاسه لمرؤوسه !.. فلما دهم البوليس مسكن الشاب عثر على حزمة اوراق البنكنوت المدسوسة عليه ، وخطابات المطالبة بقيمة مراهناته المزعومة .. فكانت هذه الادلة كافية لاثبات التهمة عليه والزج به فى السجن !.. فى الوقت الذى ارتفعت فيه أسهم الثقة بالرئيس الهمام ، الذى جمع ثروة طائلة ، وانعم عليه بأرفع الالقاب ، وانتخب عضوا فى البرلمان .. ولن احدثك عن «نشاطه» المشهود حين تقلد بعد ذلك منصب الوزارة !»

.. ثم ختم الدكتور ملاكو قصته بقوله : «من ذلك ترى ان فى وسع المرء ، بشىء من الاقدام والابتكار ، أن يستغل الظروف لمصلحته الخاصة ، ويظفر فى الوقت نفسه باحترام جميع المواطنين ذوى الفكر الصائب ..»

❖

◆ وواصل ابركرومبى اعترافه قائلا : ((.. وفيما كان الدكتور ملاكو يروى قصة صديقه ، كانت تعصف برأسى دوامة من الافكار .. فقد كنت انا بدورى اعانى مصاعب قاسية ، نجمت عن تهورى فى مضاربات البورصة .. وكان لى ايضا مرؤوس تتوفر فيه كل صفات الشاب الذى وشى به صديق الدكتور ملاكو! .. ومن جهة ثالثة ، فبرغم أن اطماعى لم تحلق بى الى أجواز التفكير فى الظفر بأرفع الاوسمة ، فان آمالا كانت تداعب خيالى فى أن أحظى بمقعد فى البرلمان . وكان تحقق هذه الآمال يتوقف الى حد كبير على نجاحى فى تخطى ازمتى المالية .. اما لو فشلت فكان مصيرى المحتوم الى الفقر والهوان !

((وفكرت فى زوجتى ، التى شاركتنى آمالى ، وحلمت بأن يصبح لقبها (ليدى ابركرومبى) ، وتكون لها دار على شاطىء البحر تقضى فيها أشهر الصيف ، بدلا من تذمرها صباح مساء بسبب الحرمان الذى اصابها من جراء حماقتى !.. ثم فكرت فى ولدى ، اللذين يتلقيان العلم فى احدى المدارس الممتازة ، ويتطلعان الى مستقبل زاهر ومناصب رفيعة . اية صدمة تصيبهما اذا! ما انتزعا فجاة من جنة احلامهما ، ليواجها مستقبلا متواضعا محفوفا بالمصاعب والمشاق؟!.. واخيرا فكرت فى جيرانى واصدقائى فى (مورتليك)، وقد تنكروا لى ، وصارت نظراتهم تتجنبنى كلما صادفتهم فى الطريق !

((كل هذه الرؤى المفزعة طافت بمخيلتى ، وصوت الدكتور ملاكو الهادىء الرتيب ينساب ملحا فى سمعى .. فحدثتنى نفسى : ((كيف تحتمل كل هذا وامامك سبيل الخلاص ممهد ؟)) فاجبتها منكرا : ((ولكن هل استطيع ، انا الذى جاوزت سن الشباب والطيش .. انا الذى كانت صفحة حياتى حتى اليوم نقية من كل شائبة .. انا الذى يحيينى كل من يعرفنى بابتسامة تفيض احتراما .. هل استطيع ان اتخلى فجاة عن كل هذا الامان ، لاعيش حياة مجرم تحدق به الاخطار ؟!.. وكيف أعيش ، يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة، وسيف الفزع من اكتشاف أمرى مصلت فوق راسى ؟.. وهل أملك ان احتفظ فى مواجهة زوجتى بروح السمو والثقة بالنفس ، التى هى عماد سعادتى البيتية ؟.. وهل استطيع بعد اليوم أن استقبل ولدى عند عودتهما من المدرسة كل مساء بتلك المثل الاخلاقية التى من واجب كل والد ان يلقنها

لاولاده ؟.. وهل يكون فى وسعى أن اندد فى كل مناسبة بعجز رجال الامن عن تعقب المجرمين الذين تهز جرائمهم أعمدة النظام الاقتصادى ؟»

«أدركت ، ورعدة باردة من الشك تتمشى فى أوصالى ، أننى لو فشلت فى أى موقف من مواقف هذا التكلف الزائف - فيما لو حذوت حذو صديق الدكتور ملاكو - لأدى ذلك وحده الى الارتياب فى أمرى !.. وتزايدت وطأة هذا الكابوس الموجع على أعصابى ، فعدت احدث نفسى : «كلا .. لن اصغى بعد الآن الى صوت هذا الشيطان اللعين .. ولن أحيد قط عن طريق الشرف!» .. ومع ذلك .. ومع ذلك .. فما أسهل ما بدا الامر كله ، وذلك الفحيح الماكر ماض ينصب فى سمعى ، بكل مغرياته !.. أولم أقرأ فى مناسبة ما أن علة متاعب هذا العالم انما هى فى احجامنا عن اقتحام المخاطر ؟ أولم يجاهر أحد الفلاسفة البارزين بأن الانسان ينبغى أن يعيش حياة يكتنفها الخطر ؟ أوليس من واجبى أن اصغى الى مثل هذه التعاليم وأعمل بها .. سيما وقد أتيحت لى هذه الفرص والظروف المواتية ؟ .. كل هذا الاخذ والرد ، والشد والجذب ، والآمال والمخاوف المتعارضة ، تركتنى فريسة لحيرة مرة وبلبلة قاسية لم أعد استطيع احتمالهما آخر الامر ، فانفجرت هاتفا بالدكتور ملاكو : « .. لست أدرى هل أنت ملاك أم شيطان !.. ولكن الذى أدريه أننى كنت أتمنى على الله لولم التق بك قط !» .. وعلى أثر ذلك اندفعت خارجا من «العيادة» الى حيث التقيت بك أمام الباب ..

❖

◆ «ومنذ تلك المقابلة المشئومة لم أنعم لحظة واحدة براحة البال .. كنت طيلة النهار أتامل كل شخص أقابله ، مسائلا نفسى : «ترى ماذا كان ليفعل لو كان مكانى ؟ » .. وفى الليل قبل أن يواتينى النوم كانت أشباح الخراب من ناحية ، والسجن من الناحية الاخرى ، تتقاذفنى من هنا وهناك بغير رحمة ولا هوادة ! .. وضاقت زوجتى بما اعترانى من أرق وحيرة بادية ، فاصرت فى النهاية على أن أنام فى حجرة أخرى كى لا أقلق نومها !.. وهناك ، عندما كان النوم يرحمنى أخيرا ، كانت تتلقفنى توا كوابيس أمر وأقسى من عذاب اليقظة .. كنت أرى نفسى أعبر ممرا ضيقا يفصل بين سجن مخيف وملجأ

كئيب من ملاجىء ابناء الفقراء ، فامضى اتخبط كالمحموم بين الجانبين ، محاولا الفرار آونة من هذا المصير وآونة من ذاك !.. وكل حين كنت ارى شرطيا يتقدم نحوى بخطى ثابتة ، فلا يكاد يلقى يده الثقيلة على كتفى حتى اهب من نومى مفزوعا صارخا !

«ولم يكن غريبا بعد كل هذا أن تزداد اعمالى ارتباكا ، وحالتى المالية سوءا .. فأمعن فى المضاربة بتهور جنونى ، ضاعف ديونى المتراكمة أضعافا : ..وأخيرا بدا لى أن لا أمل قد بقى امامى ، مالم احذ حذو صديق الدكتور مـلاكـو ! !

«لكنى فى غمرة ارتباكى وانفعالى وقعت فى أخطاء لم يقع هو فيها : فقد تركت أثر بصمات أصابعى على أوراق البنكنوت التى دسستها فى مسكن مرؤوسى النزق .. واستطاع البوليس أن يثبت ان المكالمة التليفونية مع مكتب المراهنة على سباق الخيل ـ وهى التى افتعلتها ونسبتها الى الشاب قد صدرت فى الواقع من تليفون مسكنى ! .. وكانت ثالثة الاثافى ان الجواد الذى كنت موقنا أنه سيخسر السباق ، كان هو ـ لدهشة الجميع ـ الفائز الاول ! وكان ذلك من اسباب تصديق البوليس لاصرار الشاب ـ وهو المقامر المحترف ـ على انكار مراهنته على ذلك الجواد الذى كان ميئوسا من فوزه ! وفضلا عن هذا كله فقد انكشفت لرجال «سكوتلانديارد» حقيقة حالتى المالية وسوء ارتباك أعمالى .. والانكى من كل ذلك أن مرؤوسى الذى كنت احسبه شابا لا وزن له ، ظهر انه ابن شقيقة أحد الوزراء ! !

«وانى لعلى يقين أن شيئا من هذه التطورات لم يدهش الدكتور ملاكو ، فلست اشك فى انه قد توقع منذ البداية كل البـلايا التى أصابتنى حتى اللحظة الراهنة !.. اما بالنسبة لى فلم يبق أمامى غير أن استوفى عقابى الى النهاية . واخشى أن تكون جريمة الدكتور ملاكو مما لا يقع تحت طائلة القانون .. ولكن ، لو امكنك أن تهتدى الى طريقة تصب بها على راسه عشر معشار الاحزان التى صبها هو على رأسى ، فلتثق ان فى غياهب السجن قلبا يفيض نحوك بالامتنان وعرفان الجميل !»

وبقلب اعتصره الاشفاق والرثاء ، ودعت مستر ابركرومبى ، واعدا بالا تغيب كلماته الاخيرة عن ذهنى ..

- ٣ -

◆ **ضاعفت** كلمات مستر ابركرومبى الاخيرة من حدة حقدى على الدكتور ملاكو ، حتى لقد شعرت برغبة قوية فى أن أراه يتعذب ، ولكن على يدى !.. ومع ذلك فقد تمنيت لو تفصل بينه وبينى هوة ، فى عمق ، وظلمة ، ورهبة النظرات التى كانت تطل من عينيه !.. فلما لم أجد وسيلة لتحقيق أى من هاتين الرغبتين المتناقضتين ، صرفت همى الى محاولة الاستغراق فى أبحاثى العلمية أكثر فأكثر . وحين بدأت أنجح فى محاولتى حدث ما ألقى بى من جديد فى هاوية الرعب التى كنت أسعى جاهدا للخروج منها .. وكان ذلك حين وقفت على مأساة مستر بوشامب !

كان مستر بوشامب هذا رجلا فى نحو الخامسة والثلاثين، عرفته طيلة الاعوام السابقة كدعامة من دعائم الفضيلة فى (مورتليك) . وكان يعمل سكرتيرا لجمعية تتولى توزيع الكتب المقدسة ، وكان الى جانب هذا من المتحمسين للتبشير بالعفة الجنسية . وكان يرتدى على الدوام سترة سوداء عتيقة ، وقورة ، ورباط رقبة أسود أيضا ، وبنطلونا مخططا يبدو من هيئته أنه شاهد أياما أفضل !.. **وكان الرجل يباهى دائما بأنه لم يذق الخمر فى حياته .. وكان اذا ضمه مجلس من مجالس الرجال واطمأن الى نفورهم من المجون ، أبدى اشمئزازه من شيوع ما سماه بـ « الاتصال البهيمى » ! أما مآدب العشاء الساهرة فكانت فى رأيه منكرا ، بل رجسا بغيضا !.. وبالاختصار لم يكن فى (مورتليك) شخص يستطيع أن يذكر له سابقة واحدة يحمر لها وجه الفضيلة ..**

ولكن قبيل اليوم الذى صادفته فيه خارجا من دار الدكتور ملاكو ، لوحظ على «بوشامب» شىء من التغير فى مسلكه .. فان السترة السوداء والبنطلون المخطط تركا مكانهما لحلة كاملة

رمادية اللون . ورباط الرقبة الاسـود استبدل بآخر أزرق اللون ! .. وقل استشهاد الرجل بآيات التوراة فى حديثه .. وبات فى وسعه أن يرى رجالا يشربون الخمر فى المساء ، دون أن يلقى عليهم محاضرة فى أضرار الشراب .. بل لقد شوهد مرة - ومرة وحيدة فقط ! - يهرع فى الطريق نحو المحطة وقـد تربعت فى عروة سترته قرنفلة حمراء ! على أن هذا النزق الذى كان حديث الضاحية كلها ، لم يتكرر .

❖

لكن الشائعات وجدت مادة جديدة دسمة حين وقع حدث أخطر بعد ذلك بأيام ، فقد شوهد مستر بوشامب جالسـا فى سيارة فارهة أنيقة الى جوار شابة حسناء ترتدى زيا باريسيا خلابا ! .. وضجت المدينة بأسرها تعليقـا على « الفضيحة » الجديدة ، فتساءل الكل عمن تكون تلك الحسنـاء !؟.. وكان مستر جوسلنج ، كعادته ، أسبق الجميع الى شـفاء غليل الفضوليين . وذات مساء فوجئت به يدخل علىّ ويبتدرنى سائلا: « هل عرفت شخصية المرأة التى أخرجت جارنا القـديس عن طوره ؟ » .. فلما أجبته بالسلب قال مستطردا : « حسـنا ، اليك قصتها : انها تدعى «يولاند مولينو» ، وهى أرملة الكابتن مولينو ، الذى كانت نهايته الاليمة فى أدغال (بورما) من أقسى فواجع الحرب الاخـيرة . وقـد ورثت عنه ثروته الطائلة التى جمعها أبوه من صناعة الصابون .. فأعانتها هذه الثروة على أن تنسى حزنها عليه دون كبير مشقة ! سيما وأنهـا كانت ذات فضول لا يشبع الى معرفة مختلف أنواع الرجال ، فعرفت منهم أصحاب الملايين ، والمشعوذين ، وفقراء الهنود .. الخ - وهكذا صادفت أثناء سياحاتها عينة جديدة كانت تنقص مجموعتهـا من الرجال ، فى شخص مستر بوشامب ، الذى وجدت فيه مادة

ممتعة للدراسة .. بينما تدله هو مخلصا فى هواها !.. والحق انى لأرتجف اشفاقا على المسكين مما هى كفيلة أن تفعل به ! »

وانتابنى احساس خفى بأن هذه البداية نذير شر لجارنا الطيب ، لكننى عجزت عن التنبؤ بفداحة الكارثة التى كانت تنتظره ، لجهلى وقتئذ بمدى نشاط الدكتور ملاكو . ولم أحدس ماقد يتطور اليه الامر الا بعد أن سمعت قصة ابر كرومبى !.. ولما كان متعذرا على التفاهم مع الدكتور ملاكو فقد رأيت أن أتصل بالحسناء «يولاند» نفسها ، وكانت تقطن فى دار جميلة بجهة (هام كومون) . ولخيبة أملى وجدت أنها لا تعلم شيئا عن الدكتور ملاكو ، فان صديقها بوشامب لم يحدثها عنه بكلمة ! وكانت لهجتها فى الحديث عن بوشامب مشوبة بخليط من التهكم ، والعطف ، والازدراء . بل لقد أعربت عن أسفها لمحاولته تكييف نفسه وفقا لما يعتقد أنه يروقها ، « فقد كان يعجبنى فيه استشهاده بالآيات الدينية فى كل مناسبة ، وتزمته فى تحريم الخمر .. بل كنت أحب منظره وهو مرتد بنطلونه المخطط ! فان هذه المظاهر الشاذة هى التى تجعله مسليا فى نظرى ، وكلما حاول التشبه بالانسان الطبيعى كلما تعذر على أن أبقى على مسلكى الودى معه ، الذى لولاه لقادته عاطفته الى اليأس !.. ولكن من العبث أن أحاول ايضاح هذه الامور للغرير المسكين ، فانها فوق مستوى ادراكه السيكولوجى .. »

وعبثا حاولت اقناع مسز مولينو بالابتعاد عن طريق الساذج المسكين ، فقد راحت تقول : « هراء .. فانه فى حاجة الى القليل من العاطفة الخارجة عن نطاق تزمته الدينى ، كى تكسبه مزيدا من القدرة على التفاهم مع الخطاة الذين يشغلون كل اهتمامه .. فأنا أعتبر نفسى فى الواقع أؤدى خدمة انسانية بل أكاد أساهم فى رسالته ذاتها . وسوف ترى أن قدرته على تخليص الخطاة ستتضاعف مئة مرة قبل أن « أنتهى منه » ! فان

كل وخزة من ضميره ستتحول على لسانه الى فصاحة ملهبة ، وأمله فى أن لايكون طريق التوبة قد سد فى وجهه نهائيا سوف يمكنه من أن يرسم طريق الخلاص الكامل حتى لاولئك الذين كان يعتبرهم من الهالكين ! » ‥ ثم استطردت المرأة وهى تطلق ضحكة مرحة : «ولكن كفانا من مستر بوشامب ، فانى واثقة انك بعد هذه المحادثة الجافة تتوق الى تغيير « مذاقه » بكأس من الكوكتيل الذى أتقن تحضيره ‥ »

وأدركت عقم مثل هذه المحادثات مع مسز مولينو ، وحين حاولت التحدث الى بوشامب نفسه كنت فى كل مرة أجده ملهوفا الى زيارة صاحبته فى دارها أو مشغولا فى عمله ، وان يكن قد ازداد اهمالا لهذا العمل يوما بعد يوم . وحتى قطار المساء الذى اعتاد أن يعود به كل ليلة لم يعد يجده أكثر الليالى فى مقعده المألوف ‥ وهكذا فى الوقت الذى فيه أتمنى له أحسن الاحتمالات ، كنت أخشى عليه من أسوئها !

❖

◆ **وقد** وقع ماكنت أخشاه ‥ فبينما كنت مارا أمام بيته ذات مساء شاهدت جمعا يتزاحم على بابه ، ولمحت خادمته العجوز تناشدهم باكية أن يتفرقوا !‥ فتقدمت منها وسألتها فى انزعاج عما هنالك ؟ فقالت المسكينة وهى تشرق بدمعها : «أواه ياسيدى ، لن أنسى ماحييت المنظر البشع الذى وقعت عليه عيناى حين فتحت باب غرفة المخزن ، فرأيت سيدى التعس معلقا بحبل فى أحد «خطافات» السقف التى تستعمل عند اللزوم لتعليق «الكوارع» وضلوع لحم الخنزير ‥ وكان المقعد الذى صعد عليه مقلوبا على الارض تحت قدميه ! »

ولم أحصل من المرأة على أية معلومات أخرى تعلل سبب الحادث ، لكنى استنتجت طبعا أن فى وسع تلك الحسناء العابثة

«يولاند» أن تلقى مزيدا من الضوء على ملابسات المأساة .. فمضيت توا الى دارها ، حيث وجدتها تقرأ خطابا وصلها قبل لحظات على يد رسول خاص • وابتدرتنى قبل أن أخوض فى الموضوع : « لقد فرغت لتوى من قراءة آخر كلمات ذلك الرجل التعس ، الذى أدركت الآن فقط مدى خطئى فى فهم عمق احساساته • لست أنكر أننى الملومة .. لكنى لست المذنبة الرئيسية • بل ان الخليق بهذا الوصف شخص أشر وأخطر منى • وأحسبك تفهم أننى أعنى الدكتور ملاكو ، الذى يكشف هذا الخطاب عن حقيقة الدور الذى لعبه ! ولما كنت أعلم أنك صديق لبوشامب ، وانك العدو الالد لذلك المشعوذ الاثيم ، فلست أرى بأسا فى أن أطلعك على الخطاب .. »

ودفعت الى برسالة المنتحر الاخيرة ، فأخذتها وانصرفت.. فانى لم أستطع تهيئة نفسى لقراءتها الا فى حجرتى الخاصة • وهناك نشرت صفحاتها العديدة على ركبتى ، بأصابع مرتجفة ، فهبت على منها أنفاس ذلك الشيطان الداهية ، بحيث وجدت صعوبة فى أن أنحى من أمام ناظرى شبح عينيه المهلكتين !.. وأخيرا استطعت الخلاص من الحاح ذلك الشبح ، وأجبرت نفسى على الاستغراق في جو الاشجان التى دفعت ببوشامب المسكين الى فعلته اليائسة .. وفيما يلى رسالة ذلك الشقى :

✥

◆ حبيبتى الغالية يولاند ..

لست أدرى اذا كانت محتويات خطابى هذا ستكون مدعاة لحزنك أو تفريجا لكربك .. وعلى كلا الحالين ، فانى أشعر أن كلماتى الاخيرة على الارض ينبغى أن توجه اليك ـ فهذه هى بالفعل كلماتى الاخيرة ، لانى حين أفرغ من كتابة هذا الخطاب ، أكون قد انتهيت ..

تعلمين أن حياتى كانت خاوية لا طعم لها ، حتى دخلتها انت ! فمنذ عرفتك تبينت أن فى الوجود أشياء أخرى ذات قيمة الى جانب النواهى والمحرمات التى كنت أقصر عليها نشاطى • ورغم أن الامر كله قد انتهى الى كارثة ، فلست آسف ـ حتى فى هذه اللحظة ـ على الاويقات السعيدة التى بدا لى فيها انك

تبتسمين لى .. لكنى لم أكتب اليك اليوم لأبثك مشاعرى ، وانما لاكشف لك ماخفى عليك من جوانب مأساتى..فاننى ، برغم فضولك «الطبيعى» ، لم أصارحك قط بما جرى بينى وبين الدكتور ملاكو عند زيارتى له عقب تعرفى بك بفترة وجيزة . وكنت وقتئذ قد بدأت أتمنى لو كانت لى تلك الشخصية الجذابة الكفيلة بأن تخاب لبك .. بل بدأت آنفر وأتمرد على شخصيتى الماضية ، شخصية المتزمت الابله الذى لاتطيب عشرته ! فقد شعرت أن حياة جديدة تنفسح أمامى لو استطعت فقط ان أحظى باعجابك .. ولم ار أمامى أية وسيلة تحقق لى هذه الامنية ، حتى كانت زيارتى المشئومة لذلك الشيطان الخبيث المتجسد .. فقد استقبلنى يومئذ بابتسامته اللطيفة وادخلنى الى غرفة الاستشارة ، حيث ابتدرنى بقوله : « لكم يسرنى يامستر بوشامب أن تشرفنى بالزيارة ، فلقد طالما سمعت عن أعمالك الطيبة ، وأعجبت بتكريسك حياتك لخدمة أغراض نبيلة .. لذلك اعترف أننى أجد شيئا من الصعوبة فى أن أعرف فيك ناحية معينة أستطيع أن أؤدى لك فيها خدمة أو نفعا . ولكن اذا وجدت هذه الناحية فما عليك الا ان تأمر فأطيع !.. والآن ، قبل أن نبدأ حديثنا يحسن أن أقدم اليك شيئا من الشراب ، وأنا أعلم جيدا أنك لا تشارك فى عصير الكروم أو غيره من أنواع الخمر ، لذلك لن أهينك بتقديم شىء منها لك ، ولكن احسبك لا تمانع فى قدح من الكاكاو الجيد .. »

فشكرته ، لا من اجل لطفه فحسب ، بل لمعرفته بذوقى وميولى . فلما فرغت من احتساء الكاكاو الذى قدمته الى خادمته شرعنا فى الحديث .. وكانت فى الرجل قوة مغناطيسية استدرجتنى الى طرح كل تحفظ والافضاء باكثر مماكنت أنوى أن أفضى به .. فحدثته عنك .. حدثته عن آمالى وحدثته عن مخاوفى .. حدثته عن التغير الذى طرأ على احلامى وأطماعى ومعتقداتى .. حدثته عن لحظات حنانك المسكر ، التى أعانتنى على احتمال الحياة دهرا أيام فتورك الموجع !.. حدثته عن مدى ادراكى اننى - اذا كان لى أمل فى أن احظى بك - فينبغى قبل ذلك أن أقدم الكثير ، الكثير من عروض الحياة .. ولكن ليس من عروض الحياة فحسب ، وانما الكثير من غنى الشخصية أيضا وطلاقة الحديث .. واخيرا صارحته بأنه لو استطاع أن يعيننى على بلوغ هذا كله ، لغدوت مدينا له مدى الحياة . ولغدت الجنيهات العشرة الزهيدة التىكان علىأن أدفعها أجرا لاستشارته ، اعظم استثمار لمبلغ من المال فى تاريخ البشرية !

◆ فلما فرغت من حديثى ، رمقنى الدكتور ملاكو برهة بنظرة فاحصة ، ثم قال فى صوت المتأمل المتمهل : « لست أدرى اذا كان ماساقوله لك سينفعك أم لا ، لكنى ساقص عليك على أى حال قصة صغيرة تمت بالصلة لحالتك : لى

صديق ، هو رجل معروف لعالك صادفته خلال عملك ، وكان قد قضى سنواته الباكرة مثلما قضيت أنت ماسلف من عمرك ·· فقد احب مثلك امرأة فاتنة ، وأدرك من البداية أن امله فى الظفر بها ضئيل ، مالم يجمع من الثروة أكثر مما كان يتيح له عمله أن يجمع ·· وكان هو بدوره يعمل فى توزيع الكتب المقدسة بمختلف اللغات فى شتى البلاد · وذات يوم التقى فى القطار بناشر ذى سمعة مريبة ، ماكان هو ليعبأ فى سالف حياته بان يعيره التفاتا · أما الآن فإن احلام هواه كان لها عليه سلطان حرره من ضيق الافق الذى كان يجعله يأنف فى الماضى من معاملة أمثاله من الهالكين ··

« والمع الناشر فى سياق حديثهما الى الشبكة الدولية الواسعة التى تتولى توزيع المطبوعات المريبة ونشرات الادب المكشوف بين طبقة المنحلين من القراء ، الذين تستهويهم هذه المادة الرخيصة · ثم استطرد الناشر قائلا ان الصعوبة التى تواجه القائمين على أمر هذه الشبكة الضخمة للتوزيع هى صعوبة الاعلان · فليس التوزيع السرى هو المشكلة ، وانما المشكلة فى كيفية « الاعلان سرا » عن هذه التجارة !·· وعند هذا التمعت عينا الناشر ، وارتسمت على فمه ابتسامة خبيثة وهو يستطرد مخاطبا صاحبى : « ·· فلو أتيح لنا أن نستعين بشخص مثلك ، لحلت مشكلة الاعلان السرى على أحسن وجه · ففى وسعك اذا أردت أن تضيف فى أسفل بعض صفحات الكتب المقدسة التى توزعها عددا من الحواشى المناسبة : فمثلا حين تحدثنا الآية عن شرور القلب البشرى وخداعه تضع انت حاشية تقول : « يمكن الحصول على المزيد من الايضاحات التى تتصل بشرور القلب البشرى من الناشر (فلان) ! » ·· وفى الموضع الذى يأمر فيه (يهوذا) خدمه بالبحث عن الزانية خارج أبواب المدينة ، تضيف أنت حاشية تقول : « ان أكثر قراء الكتاب المقدس يجهلون ولا شك معنى كلمة (زانية) ، ولكن فى وسع الناشر (فلان) أن يوضح لهم المعنى المقصود اذا أرادوا ! »··وهكذا ·· ثم خلص الناشر من ذلك الى ابداء شكه فى أن يقبل صاحبى القيام بهذه المهمة ، وان كانت كفيلة بان تعود عليه بارباح طائلة ! ؟ »

ثم أردف الدكتور ملاكو يكمل لى قصته الشائقة : « ولم يضيع صاحبى وقتا طويلا كى يتخذ قرارا فى الامر ، فلم يكد القطار يصل الى غايته فى محطة لندن ، حتى مضى فى صحبة الناشر الى مكتب الاخير ، حيث استعانا ببضع كؤوس من الخمر على اتمام اتفاقهما بكافة تفصيلاته !·· واستمر صديقى فى توزيع كتبه المقدسة التى تزايد الاقبال عليها أكثر من أى وقت مضى ، وتضخم بالتالى توزيع المطبوعات المريبة التى اشارت اليها الحواشى ، فاقتسم الشريكان أرباحهما الطائلة ·· فلم يمض زمن حتى صار صديقى من الاثرياء ، واقتنى دارا جميلة

وسيارة فاخرة ! ثم كف تدريجيا عن الاستشهاد فى كلامه بالآيات الدينية (فيما عدا الآيات التى أضاف اليها شروحه وحواشيه !) ٠٠ وصارت أحاديثه ممتعة ، وسخرياته لاذعة ٠٠ فاذا المرأة التى كانت تعبث بعواطفه قد افتتنت به ٠٠ فتزوجا ، وعاشا سعيدين !٠٠ وانت قد تجد فى هذه القصة مايهمك أو لا تجد، ولكنى أخشى أن تكون هى المخرج الوحيد الذى أستطيع أن أساهم به فى حل مشكلتك ٠٠ »

❖

◆ أفزعنى مابدا لى فى طيات هذه القصة من بشاعة ايحاء الدكتور ملاكو ! أحسست أنه مما يخرج عن طوقى أن أفكر ـ أنا الذى كانت تسيطر على حياتى أصرم قواعد الاستقامة والعفة ـ فى أن تكون لى أدنى صلة بعمل مشين مثل توزيع نشرات الفحش والبذاءة !٠٠ وصارحت الدكتور ملاكو بهذا فى لهجة قاطعة ، فماكان منه الا أن ابتسم لى ابتسامة دهاء غامضة ، وقال : « ياصديقى ٠٠ ألم تشعر ، منذ أسعدك الحظ بالتعرف الى مسز مولينو ، بشىء من ضيق الافق فى المسلك الذى سلكته حتى الآن فى حياتك ؟ ان قليلا من الحرية ، شعاعا من ضوء النهار ، نسمة من الهواء النقى ، حتى فيما يتصل بالنواحى التى تحرص على أن تبعد أفكارك عنها ، لايمكن أن تعود عليك الا بالخير ، فضلا عن أن فى الكتاب المقدس أمثلة تزكيها وتوصى بها ٠٠ »

فانبريت لمحدثى أجيبه : « ولكن ألا ترى خطرا فى أن يؤدى انتشار مثل تلك المطبوعات، الى اغراء الشبان والشابات بارتكاب الخطيئة المميتة ؟ وهل أستطيع أن أواجه الناس وأنا أعلم أن هناك فى الوقت نفسه انسانين غير متزوجين يستمتعان بلذة محرمة ، نتيجة لافعال أجنى منها أنا ربحا ماديا ؟ »

وأجابنى الدكتور ملاكو لفوره : « وانت ٠٠ هل فكرت مليا فى قصة التسعة والتسعين بارا الذين لايحتاجون الى توبة ، وكيف أن السماء تفرح بخاطىء واحد يتوب أكثر مما تفرح بهم جميعا ؟ وهل حاولت يوما أن تستخلص مغزى توبة الابن الضال ؟ أو لم تسائل نفسك عن حكمة الاشادة بنصيب « القلب المنكسر » و « النفس المنسحقة » ؟ وهل فى وسعك أن تزعم أن قلبك كان منكسرا ونفسك كانت منسحقة قبل أن تعرف مسز مولينو ؟ وهل دار بخلدك يوما أن القلب لاينكسر والنفس لاتنسحق الا اذا أخطأت أولا ؟٠٠ انك معى فى أن هناك كثيرين من الذين يشترون تلك المطبوعات الاباحية سوف يتوبون فيما بعد ، وعندئذ ستفرح بهم السماء أكثر مما تفرح بالابرار . الذين كنت أنت حتى الآن نموذجا لهم ! »

وبلبل ذهني هذا المنطق ، وأزعجتني حججه المربكة .. ولكن بقي لي اعتراض واحد ، واجهت به محدثي متسائلا : « أو لا ينطوي هذا المسلك الذي تشير اليه على مخاطرة كبرى ، قد تنتهي بالمرء الى الوقوع في قبضة رجال الامن اذا استطاعوا أن يكتشفوا خيوط هذه التجارة المشينة ؟ أو لاتتثاءب أبواب السجون لهفة لاقتناص مروجي هذه المطبوعات المحرمة ؟ »

فصاح بي الدكتور ملاكو مقاطعا : « مهلا مهلا ياصديقي .. ان في نظامنا الاجتماعي لدروبا ومسالك ملتوية تخفى عليك وعلى أمثالك ! أو أنت من السذاجة بحيث تحسب أنه حيث تتداول هذه الارباح الضخمة ، يعدم المرء شخصا من المسئولين يقبل عن طيب خاطر – مقابل نسبة من الربح – أن يكون عونا للخارجين على القانون ، أو في القليل يغمض عنهم عينيه ؟.. وبهذه المناسبة دعني أنصحك ياصديقي – فيما لو قررت أن تحذو حذو زميلك – أن تستوثق أولا من أن اغضاء السلطات بات رهن مشيئتك ! »

.. ولم تسعفني بديهتي بحجة أجيب بها ! وحين غادرت دار الدكتور ملاكو كنت في حالة من التشكك – لا فيما ينبغي على أن أفعل فحسب ، وانما فيمايتصل بأسس القيم الاخلاقية بأكملها ، وبأهداف الحياة الفضلى ! – وفي البداية شل هذا التشكك كياني كله ، فانقطعت عن الذهاب الى مقر عملي . وأفرخت وتوالدت في ذهني بويضات التفكير الاسود فيما ينبغي أن أفعل ، وفي المسلك الذي يتعين على أن أتخذه في الحياة !.. وبالتدريج ، تفاقم سلطان منطق الدكتور ملاكو على خيالي أكثر فأكثر ، فلم أعد أشغل نفسي بالبحث فيما هو الصواب وما هو الخطأ ، وانما حصرت كل همي في أمر واحد : هو أن أسلك الطريق الذي يوصلني الى قلب محبوبتي يولاند !

وفي النهاية حسم القدر ترددي وأبرم في قضاءه المحتوم .. اذ التقيت ذات يوم برجل على جانب كبير من الحكمة ورجاحة العقل ، وكان يدعي العلم بكافة حلقات اتصال البوليس بطريدي العدالة ، ويباهي بقدرته على التمييز بين رجال الامن النزيهين والملوثين ، بحيث بدا لي أنه يرتزق من العمل كوسيط بين الشارعين في الاجرام وبين معاونيهم من ذوي النفوذ !.. فطلبت اليه أن يعرفني بواحد من أولئك الذين يحترفون الاغضاء عن الجـــرائم ، زاعما له أن واجبي الانساني يقتضيني أن أوسع دائرة تجاربي ومعلوماتي الى أقصى حد !.. وقد كان : عرفني بمن يدعى « المفتش جنكنز » ، فلما توثقت بيننا صلة الود ، مهدت لغرضي بسلسلة من المقدمات اللبقة ، حتى تطوع المذكور بتقديمي الى النـــاشر المريب المنشود ! وعندئذ فقط كاشفت الناشر – بعد بضع مناوشات تمهيدية –

بحقيقة نواياى .. فقبل الفكرة مرحبا ، غير أنه اشترط - ضمانا لسلامته - أن أشرح له مشروعى كتابة ، وأوقع عليه ..

كل ذلك حدث بالامس فقط ، بينما كانت الآمال العريضة ماتزال تدفعنى خطوة فخطوة نحو الضياع . رباه ! كيف أقوى على البوح بالحقيقة الرهيبة ، التى لا تظهر فقط مبلغ شرى ونذالتى ، وانما مبلغ حماقتى وغبائى ايضا !؟.. ففى صباح اليوم طرق بابى ضابط بوليس . لم أكد افتح له حتى واجهنى بذلك المستند الذى وقعته ، وقال لى : « لقد انطلت عليك حيلة المفتش جنكنز فحسبته متواطئا معك ، فى حين أنه - على العكس - رجل كرس حياته للمحافظة على سلامة حياتنا القومية من كل شائبة فساد . أما سمعته الملوثة التى حرص على ايهامك بها فانما كانت فخا منصوبا لاصطياد المجرمين أمثالك . وأما الناشر المزعوم الذى استخلص منك وثيقة اتهامك فكان بدوره مخبرا من رجال المباحث !.. وهكذا ترى يامستر بوشامب أن آمالك فى النجاة من الفضيحة والعقاب ، أوهى من نسيج العنكبوت !! »

قالها وانصرف .. فادركت توا أن ليس ثمة أمل بقى لى ، ولا فرصة فى أن أنعم بحياة لاينغصها الخزى والعار !.. وحتى لو واتانى الحظ فنجوت من السجن ، فان خزيى كفيل بأن يقف سدا بينى وبين امكان مواجهتك بعد الآن ، أنت التى لا تطيب الحياة بدونك !.. وهكذا لم يبق أمامى سوى الموت .. سوى أن أمضى الى حيث أقابل خالقى الذى سوف يحيق بى ولا شك غضبه العادل ، فيعاقبنى بذلك العذاب الابدى الذى طالما تنبأت به للآخرين وأفزعتهم منه ! ولكن هناك التماسا واحدا أومن بأن الله سيسمح لى بان أرفعه اليه قبل أن أنتزع من حضرته الآلهية المرهوبة .. ولن يكون التماسى الاخير غير هذا : «بين جميع الاشرار من بنى البشر الذين أثموا منذ بدء الخليقة ، ما من مخلوق منهم يمكن أن يكون أشر ولا أحق باللعنة من الدكتور ملاكو ، الذى أتوسل اليك يا آلهى أن تدخره لهاوية خاصة سحيقة من أغوار الجحيم ، الذى أتهيأ الآن لاتخاذه مقرا أبديا لى ! »

ذلك كل ما سأبغى أن أقوله لخالقى .. أما أنت أيتها الحبيبة ، فمن أعماق الهاوية التى ترديت فيها ، أتمنى لك كل السعادة .. وكل الخير !

◆ تلك كانت رسالة بوشامب الاخيرة وهو على أبواب الابدية .. وبها أسدل الستار على الضحية الثانية من ضحايا الدكتور ملاكو !

(وفى «كتابى» القادم نقرأ قصة المصير الذى انتهى اليه باقى « المرضى الاربعة » !)

نحن وأكبادنا

البيت والعائلة والطفل

عزيزى القارىء ...

فى العددين الماضيين قدمت لك من القصص العالمية المبسطة للصغار قصتى «حلم ليلة صيف» لشكسبير، و «اوليفر تويست» لتشارلس ديكنز .. واليوم اقدم لك فيما يلى احدى قصص المؤلف الدنمركى المشهور «هانز آندرسن»، الذى تخصص فى كتابة القصص الخرافية للاطفال ..

فاذا فرغت من قراءة القصة لطفلك، طالعت معى فى هذا الباب فصولا أخرى كتبها خصيصا لك أنت - سواء كنت أبا أو أما - اخصائيون عالميون فى مشكلات البيت والاسرة، وفنون تربية الطفل .. الخ - وهى مشكلات تتوقف على حسن معالجتها سعادة العائلة وتقوية روابط التفاهم بين أفرادها جميعا، وحماية نفسية الاطفال من شتى العقد ومركبات النقص، التى كثيرا ماتكون سببا فى تنغيص حياتهم المستقبلة تنغيصا لا علاج له ..

وفى الاعداد القادمة أقدم لك باذن الله المزيد من هذه القصص المبسطة، والاختبارات النفسية، والابحاث الاجتماعية والتربوية .. الخ

THE FLYING TRUNK
By
HANS ANDERSEN
قصص "هانز أندرسن" للأطفال
الصندوق الطائر!

اصدقائى الصغار ..

◆ فى بلاد (الدنمرك) البعيدة ، حيث الثلوج تغطى الارض طول الشتاء ، كان الدنيا مكسوة بثوب فاخر من القطن الابيض الجميل.. ولد طفل فقير ، فى سنة ١٨٠٥ - أى منذ نحو مائة وخمسين سنة - فاطلق عليه أبوه اسم ((هانز اندرسن)) ..

وحين بلغ هذا الطفل سن الثانية عشرة مات والده ، وتركه يتيما مسكينا .. فترك الصبى المدرسة ، لانه لم يكن يملك مصاريفها البسيطة ، وراح يلعب بعرائس صغيرة كان يصنعها بيده من الرمل والثلج ، ويحكى لها حكايات جميلة .. هى التى صار يحكيها لاطفال العالم جميعا عندما كبر وصار رجلا ، فاحبوها كثيرا ، واحبوه من اجلهـا ..

ولما بلغ ((هانز)) الرابعة عشرة من عمره هجر قريته الصغيرة الى مدينة (كوبنهاجن) الكبيرة عاصمة بلاده الدنمرك .. لكنه لم يكن يعرف له أهلا أو اصدقاء هناك ، فجاع وتشرد ، حتى كاد يموت من شدة الجوع والبرد !.. الى أن عطف عليه الملك (فردريك السادس) فارسله على حسابه الى المدرسة . لكنه كان تلميذا غير مجتهد ، فبقى فى المدرسة زمنا طويلا ، لانه كان يقضى اكثر وقته فى تاليف الشعر .. !

ولما بلغ ((هانز أندرسن)) سن الثلاثين بدأ يؤلف حكاياته الجميلة للاطفال ، فصار من أبرع القصصيين فى العالم كله .. واصبح ذلك الطفل الفقير اليتيم حبيب الاطفال فى جميع البلاد ، منذ تلك الايام الى الآن ..

وقد ترجمت لكم هنا واحدة من قصص هذا المؤلف المشهور التى كتبها لكم منذ مائة سنة تقريبا ، قبل ان تولدوا ، واسم هذه القصة : ((الصندوق الطائر))

الابن الضـــال !

◆ فى قديم الزمان كان هناك رجل غنى كثير المال ، حتى انه كان فى استطاعته - لو أراد - أن يفـرش أرض الشـارع كله بالنقود ! لولا أن هذا الرجل كان حريصا على المال ، لاينفقه الا فى الامور الضرورية ، فزادت بذلك أمواله ، واتسعت أعماله ..

ثم مات هذا الرجل يوما ، فورث ابنه من بعده جميع تلك الاموال .. وكما يقول المثل ، أموال البخلاء يبعثرها ويضيعها المسرفون المبذرون ، **فقد راح ذلك الولد الوارث يعيش عاطلا بغير عمل ، كل همه النزهة ، واللهو ، والسهر ، ولعب القمار ، وشرب الخمر ، وما أشبه ذلك من أنواع الفساد .. فضاعت أمواله ، وساءت أحواله ، وتفرق من حوله أصدقاء اللهو الذين كانوا يتنزهون على حسابه ، وتركوه وحيدا بغير أنيس ولا معين** .. فراح يرسل الى هؤلاء الاصدقاء الغادرين يطلب المعونة ، ولكن لم يهتم بطلبه أحد منهم !.. وأخيرا أرسل اليه أحدهم صندوقا قديما ، وقال له : « سينفعك هذا الصندوق كى تضع فيه حوائجك وملابسك لترحل عن هذه المدينة .. فربما وجدت طريقة للعيش فى بلد آخر .. »

ولم يجد الشاب لديه مايضعه فى هذا الصندوق ، لانه كان قد باع كل شىء وأضاع كل ماكان يمتلك ، فدخل هو فى الصندوق وأغلقه على نفسه .. وكان ذلك الصندوق مسحورا ، اذا ضغطت على قفله طار فى الهواء !.. وهذا ماحدث فعلا ، فقد طار الصندوق وبداخله الشاب ، حتى وصل الى السحاب.. وهناك انطلق يسير به بسرعة عظيمة !

ولما كان الصندوق قديما ، فقدكانت أرضيته العتيقة تصدر أصواتا تدل على ثقل الحمولة ، فكان قلب الشاب يقفز من مكانه رعبا وهو يصلى الى الله كى يوصله الى الارض سالما !

بنت السلطان !

◆ **وأخيرا** وصل الشاب داخل الصندوق الى بلاد الاتراك ، ونزل هناك ، فأخفى الصندوق المسحور بين أوراق الشجر فى احدى الغابات .. ثم دخل المدينة ، فرأى فى طريقه مربية

ومعها طفل جميل ، فاقترب منها وسألها : « ماهذا القصرالكبير ، الذى لاتوجد له نوافذ أوشبابيك الا فىالدور الاعلى منه فقط ؟ »

.. فأجابته المربية : « **هذا قصر بنت السلطان .. وقد جعله أبوها هكذا بغير نوافذ لان المنجمين كانوا قد تنبأوا للاميرة عند ولادتها بأنها ستتعذب كثيرا بسبب شاب سوف تحبه ! ولهذا صار والدها لايسمح لاحد مطلقا بزيارتها الا بحضوره أو حضور أمها .. !** »

فلما سمع الشاب هذا الكلام شكر المربية كثيرا ، ثم ذهب الى الغابة فأخرج الصندوق واختبأ فى داخله ثم طار به .. حتى وصل الى قصر بنت السلطان ، فنزل فوق سقفه ، ودخل من النافذة العليا الى حجرة الاميرة .. فوجدها راقدة فوق كنبة فاخرة ، مستغرقة فى النوم ..

ابن ملك الجان !

وكانت بنت السلطان جميلة جدا ، فذهل الشاب منجمالها الفتان ، حتى أنه انحنى عليها كالمسحور فطبع على يدها قبلة !.. وعندئذ استيقظت الاميرة من نومها مذعورة خائفة .. فطمأنها الشاب قائلا انه ابن ملك الجان ، وانه هبط عليها من الجو كى يراها ويشاهد جمالها الرائع .. فسرت كثيرا بكلامه ، وأكرمته

ثم جلس الشاب الى جوارها وراح يقص عليها قصصا مسلية : عن حوريات البحر ، وجنيات الانهار ، وقصور ملوك الجن ، وأعمالهم الغريبة .. **ثم حدثها عن جمال عينيها ، وكيف انهما أشد لمعانا من النجوم فى الليلة الصافية !.. وحدثها عن جبينها المشرق ، كأنه جبل متوج بالثلوج الناصعة البياض .. ثم سألها أخيرا :**

— هل تتزوجيننى ؟

فتنهدت وقالت بلهفة : « أوه ، نعم .. لكم يسرنى أن أتزوجك . ولكن يجب أن تعود يوم السبت ، فسيحضر هنا

أبى وأمى لتناول الشاى معى ، فأقدمك لهما ٠٠ وسيسرهما كثيرا ولا شك أن أتزوج ابن ملك الجان ٠٠ ولكن لا تنس أنهما يحبان القصص الجميلة ، ففكر فى قصة بديعة ترويها لهما لتحوز اعجابهما ! »

وقبلها الشاب مودعا ثم طار بصندوقه عائدا الى الغابة ، وقد انشغل فكره بتأليف قصة تصلح مهرا لعروسه الجميلة !

حكاية عيدان الكبريت ٠٠

◆ **وفى** اليوم المحدد ، كان السلطان والسلطانة وجميع رجال الحاشية ينتظرون «ابن ملك الجان» حول مائدة الشاى فى قصر الاميرة ٠٠ فلما وصل استقبلوه بكل حفاوة وترحيب ، وقالت له السلطانة ، حماته المنتظرة :

ــ احك لنا حكاية لطيفة مفيدة ٠٠

ــ بكل سرور ٠٠ كانت فيما مضى مجموعة من عيدان الكبريت راقدة فى صندوقها الصغير الموضوع فوق رف المطبخ ، بين الاوانى النحاسية ، فطلبت منها الحلل يوما أن تحكى لها قصة حياتها ، فقالت أعواد الكبريت:

« كنا ونحن فى الغابة غصنا أخضر مورقا جميلا ، من شجرة كبيرة هى ملكة الغابة ٠ وكنا نشرب فى كل صباح الشاى المصنوع من الماس واللآلىء ــ وكان هذا الشاى يسمى « قطر الندى» ــ فاذا طلع النهار، تمتعنا بنور الشمس ، وغنت لنا العصافير أجمل الاغانى والحكايات التى سمعتها ورأتها فى أنحاء الدنيا وهى تطير من بلد الى بلد٠

« وذات يوم حضر الى الغابة قاطعو الاشجار وراحوا ينشرون أخواتنا من حولنا ، ثم جاء دورنا فسقطنا مع أمنا الشجرة الكبيرة على الارض ، فكان لسقوطنا دوى كبير جدا ‥ وفصلونا بعد ذلك عن أمنا بالمنشار ، غير مهتمين ببكائنا الشديد تحت المنشار الحاد !‥ ثم أخذوا أمنا وجعلوا منها «صاريا» فى سفينة كبيرة ، يرفعون عليه العلم ، ليطوفوا بحار العالم من ميناء الى ميناء . أما نحن الفروع والاغصان فتم تبعثرنا وتفرقنا فى جهات مختلفة ‥ وكان من نصيبنا أن صرنا كما ترون الآن أعواد كبريت ، تضىء وتشعل النار للعامة والخدم ، بعد أن كنا من الطبقة الراقية فى الغابة ‥ »

« وهنا قاطعتها أوانى المطبخ محتجة ، فصاحت بها الحلل النحاسية ، والاطباق الصينية ، والبرمة الفخارية ‥ صاحت كلها فى صوت واحد : أنت أرستقراطية من الطبقة الراقية يا أعواد الكبريت ؟ ماذا اذن أكون أنا ؟ أنا أرقى منك ! »

– بل أنا ‥

– بل أنا ‥

– أنا ‥ أنا ‥ أنا ‥

‥ كل آنية راحت تدعى أنها أرقى أصلا وأعرق نسبا ، حتى احتدم بينها الخلاف وكادت تتشاجر فى الظلام !‥ وعندئذ دخلت الطباخة فتناولت عود ثقاب وأشعلته ‥ فأضاء كل مافى المطبخ ، وبدا كل شىء نظيفا جميلا لامعا ! فصاح عود الثقاب فخورا بنفسه :

– **ها أنتم ترون أنه بفضل نورى يظهر جمال كل جميل ‥‥**

ثم انطفأ العود الى الابد !

أفراح المملكة ‥

◆ **فلما** أتم الشاب حكايته أظهرت السلطانة والسلطان سرورهما ‥ ووافقا على عقد زواجه من الاميرة يوم الاثنين التالى !

وانصرف الشاب مغتبطا ، وأخذت المملكة كلها تستعد للافراح والليالى الملاح بالزينات والاعلام ، والطبل والموسيقى ، والحلوى والكعك ، والذبائح والولائم !٠٠ فقال الشاب فى نفسه : «وأنا أيضا يجب أن أساهم فى احياء الفرح بشىء يناسب مركزى كابن لملك الجان ! »

عاقبة الفضول !

وهداه تفكيره الى حيلة جميلة نفذها فى الحال ٠٠ فاشترى « ألعابا نارية » وصواريخ ، وطار بها فى الصندوق ليلا ، ثم أطلقها من الجو فأنارت الفضاء ، وجعلت المدينة كلها أشبه بشعلة من نور أذهلت أهلها جميعا ، لانهم لم يروا لها مثيلا من قبل !

ثم عاد الشاب بصندوقه السحرى الى الغابة ، ونام ٠ وفى الصباح ترك الصندوق وعاد الى المدينة على قدميه ، متنكرا ، ليشبع فضوله الى سماع رأى الناس فيما شاهدوا ٠٠ فسمعهم يلهجون بكلمات الاعجاب والثناء ٠٠ ويتنافسون فى الافتخار بأنهم رأوا ابن ملك الجان! **وبالغ بعضهم فزعم أنه رأى له لحية من الماس ، وعينين فى لمعان النجوم ٠٠ وادعى آخر أنه رآه ملتفا فى عباءة من النار !٠٠ الخ**

وسر الشاب بسماع اعجاب الناس به ، واهتمامهم بأمره ٠٠ فلما أشبع غروره من ذلك عاد الى الغابة ليطير بالصندوق الى القصر ويعقد زواجه من ابنة السلطان !

نبوءة المنجمين تتحقق ..!

ولكن ، كم كانت دهشته حين لم يجد الصندوق فى المكان الذى تركه فيه فى الغابة !.. فان حرارة النهار كانت قد أشعلت شرارة من صاروخ كان باقيا فى الصندوق ، فشبت النار فى الصندوق واحترق حتى صار كومة من الرماد !

وهكذا استحال على الشاب أن يطير ليهبط فوق قصر بنت السلطان ، باعتباره ابن ملك الجان ، ويعقد زواجه على عروسه الاميرة الحسناء !

أما بنت السلطان فبقيت تنتظر عريسها طول النهار .. واليوم الذى بعده .. والايام التالية !.. بل لقد عاشت طول حياتها تنتظره وتبكى عليه .. فتحققت بذلك أقوال المنجمين ، الذين تنبأوا لها بأنها ستشقى وتتعذب بسبب شاب تحبه !

أما هو ، فعاش بقية حياته يطوف فى جميع البلاد ، يحكى للاطفال القصص ، محاولا أن يتعزى وينسى حزنه وسوء حظه !

اعرف نفسك

اختبار الشخصية

« اعرف نفسك » مفتاح كل شىء فى حياة الانسان .. مفتاح النجاح ، ومفتاح التفوق والرقى ، ومفتاح الاستعداد لجلائل الاعمال ، ومفتاح السعادة .. وقد وعدناك ان نوافيك بين الحين والآخر ، بمجموعة من الاسئلة التى تساعدك فى التعرف على نفسك .. والمجموعة التالية ترشدك الى مدى قيمتك بين الناس .. فضع لنفسك «عشرين» درجة عن كل سؤال تجيب عليه بالايجاب ، و«صفرا» عن كل سؤال تجيب عليه بالسلب :

١ ــ **هل** تدفع ديونك فى موعدها ؟

٢ ــ **هل** تبر بوعودك وتفى بها ؟

٣ ــ **هل** تسعى لان تؤدى فى كل يوم عملا تحسن به الى شخص آخر ؟

٤ ـ **هل** عاداتك الصحية خير اليوم منها منذ عام ؟
٥ ـ **هل** تحظى من ثقة الناس فيك باكثر مما كنت تحظى منذ خمسة اعوام ؟
٦ ـ **هل** لديك «بوليصة» تأمين ، او دفتر ادخار ؟
٧ ـ **هل** تبذل جهودا لتحسين الوسط والمجتمع اللذين تعيش فيهما ؟
٨ ـ **هل** انت اليوم اهم ـ بالنسبة لعملك ومخدومك ـ مما كنت منذ عام ؟
٩ ـ **هل** انت الآن اكثر تسامحا وصفحا مما كنت من قبل ؟
١٠ ـ **هل** اصدقاؤك اليوم اكثر عددا وتنوعا مما كانوا من قبـــل ؟
١١ ـ **هل** ثقتك بنفسك فى نمو مطرد ؟
١٢ ـ **هل** تباعدت الفترات بين نوبات السخط والنقمة والتشاؤم التى تنتابك ، عما كانت عليه من قبل ؟
١٣ ـ **هل** تشعر برضى خفى فى نفسك اذ قمت بأكثر مما ينبغى عليك فى اى عمل ؟
١٤ ـ **هل** انت اليوم اقدر على ضبط عواطفك وانفعالاتك مما كنت ؟
١٥ ـ **هل** لديك خطة واضحة لتحسين نفسك ؟
١٦ ـ **هل** تعرف تماما ما تنشده من الحياة ؟

◆ هل أجبت عن الاسئلة السابقة جميعا ؟.. انها المعايير التى تبين لك مدى قيمتك بين الناس ، وتدلك على ما اذا كنت شخصا تافها ، خليقا بان تعيش مغمورا ، لا تفيد ولا يفيد احد منك .. او شخصا ذا قيمة ، كفيلا بأن تغدو ذا شخصية هامة تنفع الناس والمجتمع ؟!

اجمع الدرجات التى ترى نفسك اهلا لها ، فاذا كانت ٢٢٠ او اكثر ، فانت شخصية مهمة فعلا .. واذا كانت اقل ، حتى ١٨٠ فانت فى طريقك الى ان تكون ذا قيمة فى الحياة .. اما اقل من ذلك ، فنذير بأن عليك أن تتدارك نفسك والا انقضت حياتك وانت تافه مغمور !

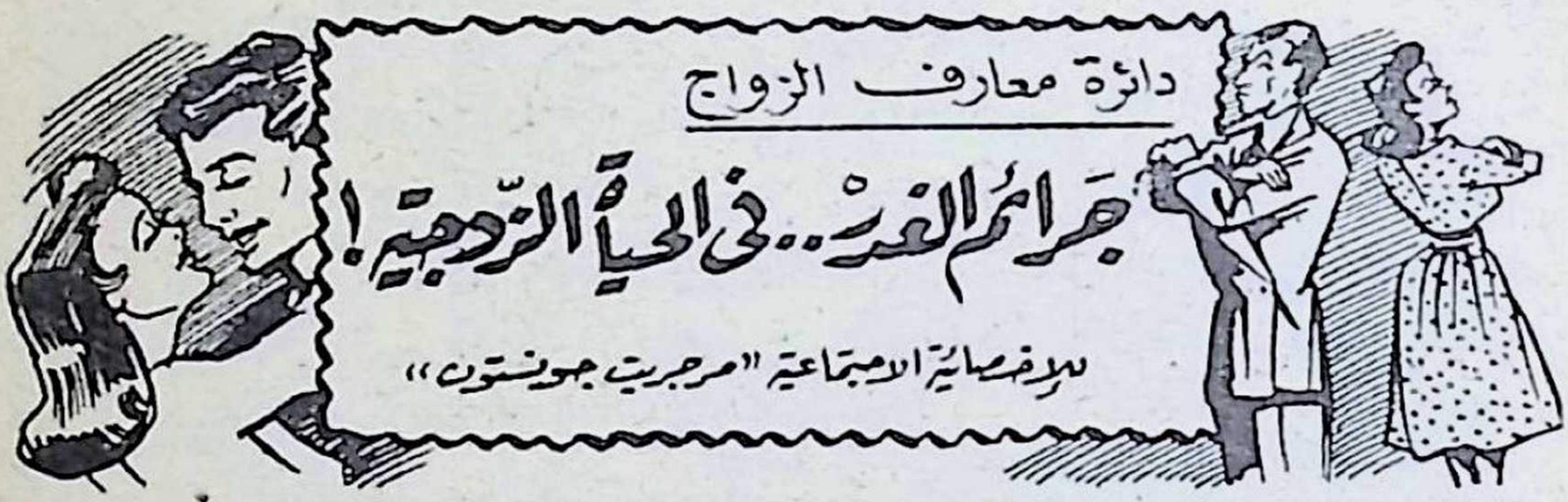

◆ كانت كاتبة هذا المقال ـ «مسز مرجريت بلير جونسون» ـ من الواعظات الدينيات فى (شيكاغو) .. ثم تحولت الى ميدان الخدمة الاجتماعية ، ووجهت معظم جهودها نحو انقاذ الحياة الزوجية وتدعيمها .. وهى فى المقال التالى ، تستعرض أهم ما أظهرتها عليه التجارب فى هذا الباب ..

◆ **كانت** الليلة التى اتهم فيها « دافيد » زوجته « جوان » بأنها « لا تؤمن به » ، بداية اتجاه جديد فى أبحاثى ٠٠ فقد نبهتنى الى قيمة العون الذى قد يجده الزوجان فى القواميس اللغوية !٠٠ كانت « جوان » قد جاءتنى مهتاجة المشاعر ، تشكو الى أن « دافيد » اعتاد أن يتأخر في العودة الى البيت ـ عن مواعيد عمله ـ وزعمت انها كانت اذا اتصلت به تليفونيا لا تتلقى منه جوابا ، وانها كانت تجدمكتبه مظلما اذا ذهبت لتستوثق من أسباب تأخره ، فضلا عن أن دخله لم يزد بما يبرر التأخر ٠٠ ومن ثم وقر فى نفس «جوان» انه على علاقة بسواها٠٠ وصاحت فى انفعال : « اننى لا أقبل أن أكون كالزوجات اللائى يسكتن على هذه الحال ٠٠ يجب أن أحسم الامر معه الليلة ! »

للخيانة الزوجية ألوان كثيرة !

◆ **واجتمعا** فى تلك الليلة فى مكتبي ٠٠ هى شاحبة الوجه ، شديدة الانفعال ٠٠ وهو مشدوه ، مصدوم ، متألم ٠٠ وقال أخيرا موجها لى كلامه : « يبدو انك أكثر ايمانا بى من زوجتى

٠٠ فماذا يبقى لرجل يوقن من أن زوجته لا تؤمن به ؟ »
وتطلعت اليه « جوان » مبهوتة ، مأخوذة ، منكرة ٠٠ ولكنه قال : « اننى لا أختار كلماتى جزافا ٠٠ ابحثى فى القاموس عن معنى كلمة « ايمان » ؟
وبكت « جوان » وهى تقول : « كيف كان لى أن أعرف انك كنت تتعمد قطع اتصال تليفونك بالخط ، وانك كنت تعتكف فى غرفة خلفية بالمكتب لتعمل فى هـدوء ، وانك كنت تدخر الزيادة التى أضيفت الى دخلك لهذه المناسبة ، الى أن يحين عيد ميلادى !؟ »

ـ الايمان هو الوسيلة التى تتذرعين بها حين لا تعرفين ٠٠ لقد كنت أظن أن العلاقة بيننا لا تدع مجالا للشك فى اخلاص كل للآخر ، ولو للحظة واحدة ٠٠ ان العلاقات الآثمة ليست الخيانة الوحيدة ٠٠ بل ان عدم الايمان ٠٠ عدم الثقة ٠٠ وعدم الوفاء للالتزامات الزوجية ، والغدر ، والخداع ٠٠ هذه كلها خيانة زوجية !

الايمان وعدم الجحود ٠٠

◆ **أجل** ، ان الخيانة الزوجية لا تقتصر على العلاقات الآثمة ، بل انها تنطوى على كل ألوان الجحود والزيغ ٠٠ واذا كانت هذه العوامل تزعزع الايمان ـ فى الناحية الدينية ـ فأحرى بها أن تزعزع الهناء ، فى الحياة الزوجية ٠٠
ولقد رأينا فى قصة « دافيد » و « جوان » كيف أن تذبذب « الثقة بالزوج » ، أو « الايمان به » ـ كما أصر « دافيد » على التعبير ـ كاد أن يقضى على زواجهما ٠٠
لكن هناك لونا آخر من الجحود الزوجى ، هو « عدم الوفاء بالعهود » ٠٠ **ولقد اعتدت أن أنصح مئات الازواج والزوجات ـ ممن ينشدون مشورتى ـ بأن يذكروا الوعود التى قطعوها على أنفسهم عند عقد القران ٠٠ وكم يؤسفنى أن « عقود الزواج » تصدر خالية من تسجيل هذه العهود !**

ان الزوجة حين ترضى بزوجها ، انما تقبل أن تكون له « فى الغنى والفقر » ٠٠ فاذا هى تحولت تعيره بقلة كسبه ، كان عملها نوعا من الجحود ٠٠ من الخيانة ٠٠ ذلك انها بقبولها الزواج ، انما ارتضت أن تكون فى عصمته كيفما كانت حاله ٠٠ أن تكون « شريكة له فى السراء والضراء » .

النفور الجنسى يقود الى الغش !

◆ **وقبول** الزواج ، ينطوى أيضا على التزام جنسى ، اذا لم يف به أحد الزوجين ، كان مسلكه ضربا من الخداع !٠٠ الغش! ٠٠ وأؤكد اننى لم أصادف حتى اليوم رجلا قارف الخيانة الزوجية — عن طريق الاتصال الآثم بغير زوجته — الا ووجدت أن الزوجة قد سبقته الى الخيانة الزوجية ٠٠ عن طريق الخداع!

ذلك أن كثيرا من النساء لا يتقبلن بسهولة الحقيقة الواقعة : ان العلاقة الجنسية جزء متمم للزواج٠٠ أو هن لا يفهمن وضعها ومعناها والقصد منها ٠٠ ومن ثم يبدأ « الغش » و « الخداع » ولما تنقض أيام على الزفاف كأن تعمد الزوجة الى التهرب من هذا الالتزام باصطناع المرض مثلا ٠٠!

وأذكر بهذه المناسبة ما ذكره طبيب من أصدقائى يوما ، من أن ثمانين فى المائة من الآلام الحادة التى تعانيها النساء عادة ، يرجع الى نفور نفسى من العلاقات الجنسية ، وان لم تفطن المرأة نفسها الى ذلك ٠٠ فان التحايل النفسى الغريزى ، يدفع الزوجة الى التمارض — دون أن تدرى — للتهرب من العلاقات الجنسية٠٠ و « من الحقائق المرة أن الزوجة التي من هذا النوع، تؤثر سرير المستشفى على سرير الزوجية ٠٠ دون وعى منها ! »

الغدر ٠٠ ولو كان مزاحا !

◆ **ومن** ألوان الخيانة الزوجية ، الغدر ٠٠ ومن صور الغدر أن تتنكر الزوجة لزوجها حين تتبين — بعد الزواج — أن أحواله المالية ليست كما كانت « تبدو » لها قبل الزواج ٠٠ وأقول

« تبدو » لانه لا يشترط أن يكون الزوج قد تعمد أن يتظاهر لها بأنه فى سعة ٠٠ اذ أن الخطيب عادة قد يقتر على نفسه ليغمر خطيبته بالهدايا ، دون أن يعنى ذلك أنه فى سعة ٠٠

وليس أبشع من أن تقول الزوجة لابنتها أمام زوجها : « ما الجدوى من أن أشاهد الازياء الحديثة فى نوافذ المتاجر ، ومرتب أبيك لا يسمح لى بأن أشترى ٠٠ ولو أرخص الاثواب ؟ »

أو أن يقول الزوج أمام أصدقاء الاسرة : « كيف تنتخبون زوجتى لتنظم اجتماعنا المقبل ، وهى لا تعرف الالف من الباء فى التنظيم ؟ »

وقد لا يكون الزوج متعمدا أن يسخر من زوجته أو يحقرها اذ يقول هذا ٠٠ وربما لا ترمى الزوجة ـ فى الفقرة السابقة ـ الى الحط من مقدرة زوجها المالية أمام ابنتهما ٠٠ ولعل الامر كله لا يعدو المزاح ٠٠ ولكنه مزاح مؤذ ٠٠ انه غدر ٠٠ وخيانة ! ٠٠ فواجب الزوجة أن تفخر بزوجها وترفعه فى نظر الجميع ٠٠ حتى أبنائهما ٠٠ وواجب الزوج أن يعتز بزوجته ويطريها ٠٠

وعلاج هذا النوع من الخيانة هو الوقاية ٠٠ تجنبه ! .

أوقات الفراغ والانسجام الثقافى

واهمال الانسجام الثقافى والتوافق فى أوقات الفراغ ، من ألوان الخيانة الزوجية ٠٠ وكم من فتاة اعتادت أن يصحبها خطيبها الى المسرح أو السينما خلال الخطوبة ٠٠ فلما تزوجا ، لم ترع الفارق بين وضعهما كزوجين وبين وضعهما كخطيبين ٠٠ بين العلاقة الدائمة ، والعلاقة المؤقتة ! ٠٠ ثم ، كم من زوج اشتط فى هذه الناحية بعد الزواج ٠٠ فبعد أن كان يصحب فتاته الى السينما مرات فى الاسبوع الواحد ـ أثناء الخطوبة ـ أصبح لا يصحبها مرة واحدة فى الاسبوع !

وشبيه بهذا أن يترك الزوج أعماله تشغله تماما عن زوجته وعن التسرية عنها ٠٠ وبالاحرى ، خليق بالزوجة أيضا أن لا تشغل بأعمالها ـ فى البيت أو خارجه ـ عن زوجها !

حذار من توزيع العواطف !

◆ **بقى** لون آخر من ألوان الجحود الزوجى .. ذلك هو توزع الولاء .. فليس أقتل من الولاء الذي يوضع فى غير محله ..

ولقد كنت أخال لاول وهلة أن الزوجة هى أكثر الطرفين ميلا الى هذا اللون من الجحود .. ولكن التجارب أكدت لى أن الزوج لايقل عنها ميلا .. وكم من زوجة صارحتنى شاكية : « لقد سئمت هذا النظام الذى أصبح « روتين » كل أيام الاحد فى حياتنا .. أن نذهب من الصباح الباكر الى بيت أسرته .. فاذا لم نذهب ، قضى يومه قلقا ، حائرا لانه لا يدرى كيف يعتذر لاهله ويجاملهم .. وقد يعمد الى لومى وايلامى » .

ثم ، كم من زوج قال لى فى ألم : « لست أدرى لم تصر على أن لاتصحبنى فى رحلة خلوية فى يوم الاحد .. انها تتعلل بالطفل ، وهى تعرف أن فى وسعنا أن نتركه لرعاية أختى ، ولن تقل أختى حدبا عليه من أمه .. ألزاما على كل زوج أن يرى طفله يستأثر دونه بكل عواطف الزوجة ؟ »

ما معنى « متزوجين » ؟

◆ **لهذا** يجب على الزوج والزوجة أن يراعيا القسمة العادلة فى تقسيم عواطف كل : بين زميله ، وأهله ، وأولادهما ..

كذلك يجب أن لايتناقشا فى شئونهما أمام أطفالهما !..

وأذكر أن زوجين احتكما لى يوما ، وكان معهما ابنهما .. وفجأة قال الطفل الذى لم يتجاوز السابعة من عمره :

– ما معنى « متزوجين » يا ماما ؟

– معناها أن الام والاب يتعاهدان على أن يحب كل منهما الآخر ويعزه ويعتز به طوال عمريهما ..

– اذن .. فأنت وبابا غير « متزوجين » !

وكان على حق .. فهكذا أوحى له جدال أبويه وشجارهما أمامه ، بأن كلا منهما « لا يحب الآخر ، ولا يعزه ، ولا يعتز به »!!

◆ ان تربية الاطفال فن .. فهل تراك تتقن هذا الفن يا سيدى الوالد ؟.. وهل ترينك تتقنينه ايتها الام الصغيرة ؟.. هذه بعض اسئلة ، حاولا أن تجيبا عنها .. ثم استعرضا الاجابات التى ننقلها لكما عن اخصائى فى التربية وعلم النفس ، هو « البروفيسور روبرت جولدنسبن » ..

(١) «سالى» طفلة فى الرابعة ، أفرد لها أبواها غرفة ملاصقة لغرفة نومهما .. ولكنها تأبى أن تنام فى الظلام ، وتلحف على أمها فى أن تترك لها مصباحا مضاءا .. فهل فى استجابة الام لرغبتها حكمة ورجاحة عقل ، أم ان الواجب يدعو الى عدم الاستجابة ، كى تتعود مواجهة الظلام ؟

(٢) يرى معظم علماء النفس أن ضرب الطفل لم يعد وسيلة مجدية لتأديبه .. فهل هم على حق ، أو تراهم مخطئين ؟

(٣) «ساندى» طفل فى الرابعة ، سأل أمه بعد مولد أخته : «من أين أتت أختى ؟ » .. فهل تقول له : « غدا تعرف حين تكبر » ، أو تقول له : « ان الطفل ينبت من بذرة يودعها الاب جوف الام » ، أو تقول ان الطفل ينمو فى مكان خاص فى جسم الام ؟

(٤) هل من الحكمة أن تقول الام الحامل لطفلها أنه لن يلبث أن يكون له أخ أو أخت ؟ .. ومتى يحسن أن تقول له : قبل الوضع بعدة أشهر ، أو بحوالى الشهر ، أو بعدة ساعات ؟

◆ **والآن** ، هل فكرتما جيدا ٠٠ اليكما الاجابات الصحيحة :

(١) ان اجبار الطفل على مواجهة الظلام لن يزيده الا خوفا منه ٠٠ لذلك يحسن أن يترك النور مضاء اذا طلب ذلك ، على أن تظل الام تتحين الفرص حتى ترى الوقت مناسبا لحرمانه منه ٠٠٠ وفى تلك الاثناء يحسن بها استدراجه الى أن يحدثها عن مخاوفه وأوهامه ، فتعالجها برفق ، حتى اذا عاد الى الظلمة نسى خوفه منها ٠٠

(٢) ان الضرب حين يأتى الطفل ما يستحق من أجله الضرب، أمر لا بأس به ، على أن يكون فى مناسبات قليلة ، متباعدة ، وعلى أن لا يكون قاسيا ، والا ولد فى الطفل روح الخوف ، وروح التمرد ، وبث فى نفسه حب القسوة ٠٠

وكل طفل لابد له من قدر من الادب والترويض ، حتى يعرف حدود تصرفاته ٠ وخير سياسة هى تعويد الطفل أن يروض نفسه بنفسه على حسن التصرف ٠٠ وذلك بمكافأته اذا تصرف تصرفا مرضيا ، وبالصفح عنه حين يخطىء ، وبتوثيق العلاقات معه ، حتى يحب والديه ويقدرهما فيحرص على تقليدهما ٠

(٣) يحسن اخبار الطفل صاحب هذا السؤال بأن الولد ينمو فى مكان خاص من جسم الام ، فهذا أقرب الى الحقيقة ، وأكثر ملاءمة لعقل الطفل فى الرابعة ٠ والاطفال فى هذه السن يكثرون من التساؤل عادة عن دور الاب فى انجاب الاطفال ، فاذا ردعهم الوالدان ، أشعراهم بأن فى الامر سرا لا يزال يغريهم حتى يدفعهم الى سؤال غير الوالدين ، وكثيرا مايؤدى هذا الى الفساد ٠ لذلك يحسن بالوالدين أن يسلكا مسلكا وسطا بين الافضاء ، وبين التفصيل ، وذلك بابتكار اجابة مبسطة مأمونة ، كما فى المثال السالف ٠

(٤) يحسن بالام الحامل ان تنبىء طفلها بالزميل المنتظر قبل الوضع بشهر ٠٠ اللهم الا اذا سألها قبل ذلك ٠٠ ولكي يسهل عليها اعداده لاستقباله ، وتفادى شعوره بالغيرة من الجنين عند مقدمه ، يجدر بها أن تجرى التعديلات اللازمة قبل الوضع بأمد مناسب (كتغيير موضع سريره لافساح مجال لسرير الصغير) حتى لا يشعر بأنه أقصى من أجل الصغير ٠ وليعمد الوالد الى ايلائه رعاية خاصة فى فترة الوضع والايام التى بعدها ٠٠ وليمهد للمفاجأة التى تنتظر الطفل حين يرى الوليد ٠٠ ثم ، لتحرص الام على أن تشركه معها فى العناية بوليدها ٠٠ ويحسن منح الابناء الذين تخطوا الطفولة المبكرة ـ اجتازو السابعة مثلا ـ بعض الامتيازات التى تحميهم من خطر الشعور بالغيرة ٠٠

الى « فتاة من العراق »

◆ وصلتنا رسالتك الحزينة ، وقد عرضنا مشكلتك على اخصائيين كبيرين ، فى الطب الجسمانى والنفسانى ، هما : الدكتور فهمى جرس فهجر ، اخصائى الامراض التناسلية ، والدكتور مرقص غرغورى ، الحائز على دكتوراه التخصص فى العلاج النفسانى ، فتفضلا بالادلاء برأييهما التاليين :

رأى الطب الجسمانى

◆ يقول الدكتور فهمى جرس فهجر ان ما تشكين منه قد لا يكون المرض الذى تحسبينه ، وانما يكون من قبيل السائل الابيض الذى تفرزه المبايض الضعيفة ، وعلاجه الغذاء والتقوية العامة والرياضة .. أما اذا كنت مصابة حقيقة بذلك المرض ـ ويظهر ذلك بالفحص الميكروسكوبى ـ فشفاؤك ميسور ، برغم طول المدة ، باستعمال حقن البنسلين وغسيل أملاح الفضة . وليس لمرضك أى صلة بقصر العمر أو طوله ولا خطر منه البتة على الجهاز التناسلى .

رأى الطب النفسانى

◆ أما من الناحية النفسية فينصحك الدكتور مرقص غرغورى ـ بعد المبادرة بالعلاج الجسمانى ـ بعدم الاستسلام للوهم والانزعاج ، فان تأثير مرضك على الذكاء والقوى الذهنية مبالغ فيه ، وأغلب الضرر انما ينشأ من مجرد الخوف وانشغال الفكر .. أما العادة التى وقعت فى براثنها فسوف تتخلصين منها دون قصد حين تتزوجين .

إقرأ معى

كتاب الشهر

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى أعداد سابقة من (كتابى) الكتب الشائقة التالية :

- آراء جريئة فى الحياة : للفيلسوف الانجليزى المعاصر ((جود))
- آراء جريئة فى السياسة : لبرنارد شو
- كيف نجحوا فى الحياة : لديل كارنيجى
- الحياة فى موسكو : هارولد ليكوك

واليوم اقدم لك فيما يلى الجزء الثانى والاخير من هذا الكتاب الذى يصف لك الحياة فى روسيا السوفيتية كما رواها صحفى قضى عاما كاملا فى موسكو ..

وفى الاعداد القادمة آزمع أن أقدم لك فى هذا الباب الكتب الشائقة التالية، وغيرها :

كازانوفا : وليم بوليثو
جرائم نسائية : ج. أليز
العظماء الاربعة عشر : فرانسو مورياك
ماء النيل : بيير فرونديه
اساطير الاولين : فولترتون
الخ .. الخ

مشاهدات وراء الستار الحديدى
الحياة فى موسكو
أحدث كتاب
للصحفى "هارولد لايكوك"
LIFE IN MOSCOW
By
HAROLD LAYCOCK

◆ فى القسم الاول من هذا الكتاب ، الذى قدمته لك فى العدد الماضى ، رأينا صورا من الحياة فى موسكو كما لمسها مؤلفه الصحفى الانجليزى « هارولد ليكوك » .. وقد تحدث فى ذلك القسم عن المواطن السوفييتى فى حياته العائلية .. وعن برامج التعليم ونفقاته .. وجرائم الاحداث والبالغين .. وولع الشعب الروسى بالاطفال ، والازهار ، والشراب .. ثم صحبنا زوجة المؤلف فى جولتها فى أسواق موسكو ، ومجتمعاتها النسائية ، ومصانعها ، وشوارعها ، وكل ميدان نزلت اليه المرأة الروسية لتشارك الرجل حياته العامة والخاصة وتحقق المساواة « التامة » بينها وبينه ..

واليوم اقدم لك فيما يلى القسم الثانى والاخير من هذا الكتاب الشائق ، وفيه يتحدث المؤلف عن بقية مشاهداته فى العاصمة الروسية

الدين فى روسيا

◆ برغم كثرة وجمال الكنائس المنبثة فى كافة أحياء موسكو ، والتى تعتبر قبابها وأبراجها من أوضح معالم العاصمة التى تعطيها طابعا خاصا خلابا .. فان أكثر هذه المعابد قد تقوض اليوم وبهتت نقوشه ، وآل للسقوط ، من الاهمال وعدم الاستعمال ! .. ففى حين تتقاطر الجماهير على دور السينما والملاهى ، وتحج كل حين الى قبر «لينين» فى (الميدان الاحمر) ، لا تتردد على الكنائس غير فئة ضئيلة من المصلين – الا فى المواسم والمناسبات الدينية المختلفة – اذ يقال ان تعليمات الحزب الشيوعى تحرم على أعضائه ارتياد الكنائس ، بدعوى تعارض التزمت الدينى مع تقدم العلم ، الذى يصرون على أنه ينبغى أن يكون دعامة النظام الشيوعى .. والواقع أننى خلال السبعة أشهر التى قضيتها فى موسكو ، لم أسمع روسيا واحدا يتناقش فى الدين ، بل لم ألمح أسقفا من رجال الدين يمر فى شوارع

موسكو على الاطلاق !٠٠ ورغم ذلك فان الدين ، وان تناقص سلطانه كثيرا عن ذى قبل ، فانه مايزال يحتفظ بمكانة ملحوظة فى الحياة الروسية ٠٠

وقد جرد الزواج فى روسـيا من مظاهره الدينيـة ، واستبدلت فى عقده المراسم الدينية بالاجراءات الشكلية المدنية ، أيا كان مذهب الزوجين ٠٠ على أن فى وسـعهما اذا أرادا أن يؤكدا ارتباطهما المدنى باحتفال ثان فى احدى الكنائس

صـحافتهم ٠٠

◆ **وأشهر** صحف موسكو صحيفتا «برافدا» و «اسفستيا» شبه الرسميتين ٠ ومن العجيب أنهما تخلوان من أى صـور أو رسوم ، وتطبعان طبعا رديئا على ورق أسمر ، وتتألف كل منهما من أربع صفحات فقط ، تكاد تخصص الاولى منها للمشروعات الحكومية ، وبرامج الاربع أو الخمس سنوات ، وخطب مبعـوثى روسيا السياسيين فى الهيئات الدوليـة ، أو ماشابه ذلك من مقالات تشيد بعظمة الاتحاد السوفييتى ، وتردد تاريخه المجيد ، أو تتغنى بقوته وأهدافه السياسية والثقافية ٠٠

٠٠ وملاهيهم

◆ **أما** مسارح موسكو فهى أشبه بواحات سحرية خـلابة الالوان تتناثر وسط قفار من المبانى الباهتة الكئيبة ٠٠ ودخولك مسرحا منها يشعرك كأنك تنتقل من سرداب معتم موحش الى كرنفال من كرنفالات البندقيه الزاهية الالوان البراقة الاضواء ! ٠٠ وفى موسكو خمسة عشر مسرحا كبيرا ، تعرض شتى أنواع المسرحيات التمثيلية والغنائية ، والاستعراضات الموسـيقية ، فيختص بعضها بروايات الاوبرا ، والبعض الآخر بفنـون « الباليه » ، أو الدراما أو التمثيليات الخفيفة ، أو«الموزيكهول» ، أو الموسيقى الكلاسيكية ٠٠ الخ

وتمتاز هذه المسارح بعظمة الاخراج ، وروعة الاضـواء ، واتقان الاداء ، من تمثيل أو رقص أو غناء ٠٠ تغلف ذلك الجو

كله مصاحبة موسيقية ساحرة ، وتناسق بديع بين ألوان المناظر والثياب ٠٠ ففى مسرح «بولشوى» الشهير مثلا ، المشرف فى جلال على ميدان الثورة فى قلب العاصمة ، تجد قاعة عظيمة مدرجة الى سبع درجات تتماوج فيها ألوان القرمز والذهب ٠ والعجيب أن خشبة المسرح فيها تكاد تبلغ فى سعتها مساحة القاعة ذاتها ، وقد تتابعت على خشبة ذلك المسرح أشهر راقصات الباليه الروسيات ، وفى مقدمتهن الراقصة العالمية «أنا بافلوفا» ، كما ترقص عليها اليوم الفنانة « أولانوفا » التى يعتبرها الكثيرون أشهر راقصات العالم ٠٠ ويقدم مسرح بولشوى برامجه كل عام ابتداء من شهر سبتمبر الى شهر مايو ، وتبدأ سهرته كل ليلة فى الساعة الثامنة مساء ، كما تقام فيه حفلة نهارية اضافية ظهر يوم الاحد من كل أسبوع ٠٠

وتغلق أبواب القاعة فى مسارح موسكو عموما بمجرد ابتداء البرنامج ، ثم تطفأ الانوار الملونة تدريجيا فى تتابع بديع ، وينحنى رئيس جوقة الموسيقى محييا النظارة ، وعندئذ تبدأ « العجائب » تتوالى على خشبة المسرح المجهزة بأحدث المعدات ٠٠ **فاذا جميع الالوان الزاهية التى تفتقر اليها معالم موسكو الكالحة ، والحلة البهيجة الساحرة التى تنقصها ، والجمال المسرحى الذى يتعطش اليه ظاهر المدينة ، والخفة والمرح اللذان يعوزان أهلها ٠٠ اذا هذه كلها تتجمع بسخاء كل ليلة فوق خشبة ذلك المسرح**

الهائل ، فتنتظم منها قصيدة رائعة تتنافر مع كآبة معالم المدينة الاخرى ، وتذهل النظارة من فرط سحرها وبهائها !

◆ وعلى بعد مائتى متر من مسرح «بولشوى» يقع - فى شارع بوشكين - ثانى مسارح موسكو فى الفخامة والرواء ، وهو مسرح «بولشوى الصغير»، الذى تعرض فيه أشهر الاوبرات الغنائية واستعراضات الباليه • ومن أمثلة استخدام الروس للفن فى الدعاية السياسية - حتى بين الاطفال - قصة ذلك الباليه المشهور الذى عرض أسابيع متتالية فى المسرح المذكور ، تحت اسم « أبو قردان الصغير » وهو يروى مغامرات أبو قردان يتيم أنقذه شبان احدى القرى الروسية من الموت جوعا ، فلما اشتد ساعده هاجر الى أمريكا ، حيث اشترك مع نسر كبير فى انقاذ صبى زنجى من وحشية أمريكى من أصحاب المزارع الواسعة كان قد جلد والدى الصبى بالسياط حتى لفظا أنفاسهما •• فما كان من النسر وأبى قردان الا أن هاجما ذلك السيد الامريكى وألقياه بين فكى تمساح ضخم ! ثم حمل الطائران الصبى الزنجى فى سلة وطارا به عائدين الى القرية الروسية • لكن الطائر الصغير عجز عن التعرف على القرية نظرا لتغيير معالمها بفضل برنامج السنوات الخمس ، الذى استبدل أكواخها الحقيرة بمنازل نظيفة ! وأخيرا تنبه شباب القرية الى موكب صديقهم القديم فأشاروا اليه بالنزول واستقبلوه وضيوفه مرحبين • وينتهى الباليه بمنظر أهل القرية وهم يقلدون الزنجى الصغير

وشاح الكشافة الاحمر ، ثم يعيش بينهم سعيدا بأصدقائه المخلصين ووطنه الجديد ..

◆ **وكما** يستخدم الروس الفن المسرحى فى الدعاية السياسية كذلك يستغلون السينما فى هذا المجال، ولكن على نطاق أوسع. ودور السينما فى موسكو كثيرة لكنها غير مريحة ، سواء من حيث صلابة مقاعدها أو ضيق الممرات بين الصفوف وكثرة التيارات الهوائية فى داخل قاعاتها .. وهى لا تعرف نظام العرض المستمر ، وانما تبدأ برامجها من الظهر وتتكرر كل ساعتين حتى العاشرة مساء . وغالبية الافلام التى تعرض فيها روسية أو من دول أوربا الشرقية وان كانت تعرض فيها أحيانا أفلام فرنسية من انتاج بعض ذوى الميول اليسارية .

سباق الخيل .. وآداب السلوك !

◆ **وسباق** الخيل فى موسكو تديره وتشرف عليه وزارة الزراعة ! وتقع حلبته - ويطلقون عليها جيبودروم - فى شارع تحف به الاشجار من الجانبين . وتقام مباريات السباق ثلاث مرات فى الاسبوع ، وفى كل مرة يتقاطر الالوف من أهل العاصمة الى هناك .. سواء لاشباع هوايتهم الرياضية أو طمعا في الربح. وتجرى الجياد فى كل سباق ٢٤ شوطا، تبدأ من الساعة الواحدة وتنتهى فى التاسعة مساء، أى بمعدل ٢٠ دقيقة للشوط الواحد. **وهو يبدأ وينتهى فى سكون ودون جلبة ، فان التهليل للجياد أثناء تسابقها يعتبر فى نظر القوم هناك « نقصا فى التهذيب » - وهى عبارة تستعمل عند أدنى انحراف عن آداب السلوك ، سواء حين تلقى بتذكرتك على رصيف محطة المترو بعد نزولك منه ، أو حين تضرب زوجتك بسبب تعطلها عن العمل !**

◆ **وحين** هبطنا موسكو فى البداية قضينا بضعة أيام فى فندق (متروبول) ، وهو أحسن الفنادق الكبيرة المسموح باقامة الاجانب فيها - ذلك ان من بينها فنادق تحرم عليهم ، مثل فندق (موسكفا) الفاخر ، الذى يحمل فى مدخله لافتة كتب عليها

(للمواطنين فقط) ٠٠ وهو قريب من حى المخازن التجارية الكبرى ، الذى يشقه شارع « أربات ».ـ وهو فى مقام شارع فؤاد الاول مثلا فى مصر ـ وتتزاحم فيه المتاجر على الجانبين مسافة ثلاثة أرباع كيلومتر ٠٠

وحركة المرور فى موسكو أكثر نظاما منها فى أية عاصمة من عواصم العالم الكبرى ، وان كانت أكثرها ضوضاء ٠٠ ويشرف على تنظيمها آلاف من رجال المرور الذين يقف واحد منهم فى وسط الشارع كل مائة متر ـ وفى الشوارع المزدحمة كل ثلاثين مترا فقط ـ وهم لايكادون ينقطعون عن التدخين لحظة !٠٠ وفى تقاطع الطرق الرئيسية يجلس مشرف منهم فى مدرج (أشبه بالفنار الذى يرشد السفن الى دخول الموانىء !) وأمامه الازرار التى تحرك الاضواء الثلاثة المنظمة للمرور ، وهى اللون الاخضر، والبرتقالى ، والاحمر ٠٠ **ورغم السرعة الجنونية التى يسير بها سائقو السيارات الروس فى شوارع موسكو ـ حتى ليخيل اليك أن كلا منهم يود اللحاق بأمه المحتضرة قبل أن تلفظ أنفاسها ! ـ فان حوادث المرور التى تقع منهم نادرة الى درجة لا تكاد تصدق ، وقد يرجع ذلك الى فداحة العقوبات التى تفرض عليهم ، ويكفى لتكوين فكرة عنها أن تعلم أن من يصدم بسيارته أحد المارة يكون جزاؤه النفى الى (سيبيريا) لمدة خمس سنوات!**

ونكتفى من صور الحياة فى موسكو بهذا القدر ٠٠

وزارة الصحة العمومية ـ مصلحة الحجر الصحى ـ مخازن

تقبل العطاءات بمكتب حضرة الدكتور مدير عام مصلحة الحجر الصحى بمبنى المصلحة بباب الترسانة بنهاية شارع ابو وردة باسكندرية لغاية ظهر يوم أول يونيو ١٩٥٣ عن توريد واعداد الاغذية للحجاج والموظفين والخدمة وصف الضباط والعساكر بمحجر الطور خلال موسم حج عام ١٣٧٢/ ٧٣ هـ ويمكن طلب شروط العطاء وقيمتها مائتا مليم على ورقة دمغة فئة الخمسين مليما من المصلحة او ادارتها بالسويس كما يمكن الاطلاع على هذه الشروط مجانا بالمصلحة أو الادارة المذكورة

٤٤٠١٧

وزارة الحربية والبحرية
سلاح خدمة الجيش الملكى

تقبل عطاءات بادارة سلاح خدمة الجيش الملكى بثكنات العباسية لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم ١٩٥٣/٥/١٦ عن توريد الفيتامينات اللازمة للجيش فى عام ١٩٥٤/٥٣ .

ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات من ادارة السلاح المذكور مقابل ٢٥٠ مليما يضاف اليها اربعون مليما أجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة دمغة فئة الخمسين مليما

٤٣٨٢

وزارة الحربية والبحرية
مصلحة الطيران المدنى

يقبل مدير عام مصلحة الطيران المدنى العطاءات لغاية الساعة ١٢ من ظهر يوم ١٩٥٣/٥/٥ عن عملية وضع طبقة من الخرسانة الاسفلتية الباردة على الاجزاء المرصوفة بمطار الطوز . وتطلب الشروط والمواصفات من قسم المشتريات بالمصلحة بثكنات قصر النيل على ورقة دمغة فئة خمسون مليما نظير مبلغ جنيه مصرى واحد عدا ٤٠ مليما أجرة البريد ٤٣٩٦

مصلحة التنظيم

تقبل عطاءات لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم ١٩٥٣/٥/٦ عن توريد ادوات طبية وآلات جراحية وخلافه

ويمكن الحصول على الشروط مقابل مبلغ ٢٠٠ مليم يضاف اليه ٨٠ مليما اجرة البريد

وتقدم الطلبات على ورقة دمغة من فئة الخمسين مليما ٤٤٠٢

مصلحة الطرق والكبارى

تقبل العطاءات بمصلحة الطرق والكبارى بوزارة المواصلات بمصر لغاية الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ٢٠ مايو سنة ١٩٥٣ عن عملية تغيير الجزء العاوى لكوبرى البشنويط على امتداد محور كوبرى دسونس أم دينار المتحرك على ترعة الخندق الشرقى والكوبرى الثابت على ترعة الخندق الغربى بمديرية البحيرة وثمن دفتر الشروط جنيهان ومصاريف ارساله بالبريد ثلثمائة مليم خلاف تقديم طلب على ورقة تمغة من فئة الخمسين مليما ٤٣٦٦

اعـلان

تعلن وزارة المعارف العمومية مزاد تأجير خمسة مقاصف بمبانى الوزارة والمبينة بعد : ــ لمدة سنة وحددت للمزايدة الساعة العاشرة من صباح يوم ١٦ مايو سنة ١٩٥٣

١ ــ مقصف ادارة الحسابات

٢ ــ مقصف الدور الاول بالمبنى القبلـى

٣ ــ مقصـف الدور الثالث بالمبنى القبلى

٤ ــ مقصف التعليم الحر

٥ ــ مقصف مراقبة التوريدات

ويمكن معاينة تلك المقاصف والاطلاع على شروط المزاد بادارة الحسابات بالوزارة يوميا فى مواعيد العمل الرسمية ويدفع كل مزايد تأمينا ابتدائيا قدره جنيهان

٤٤٢٥

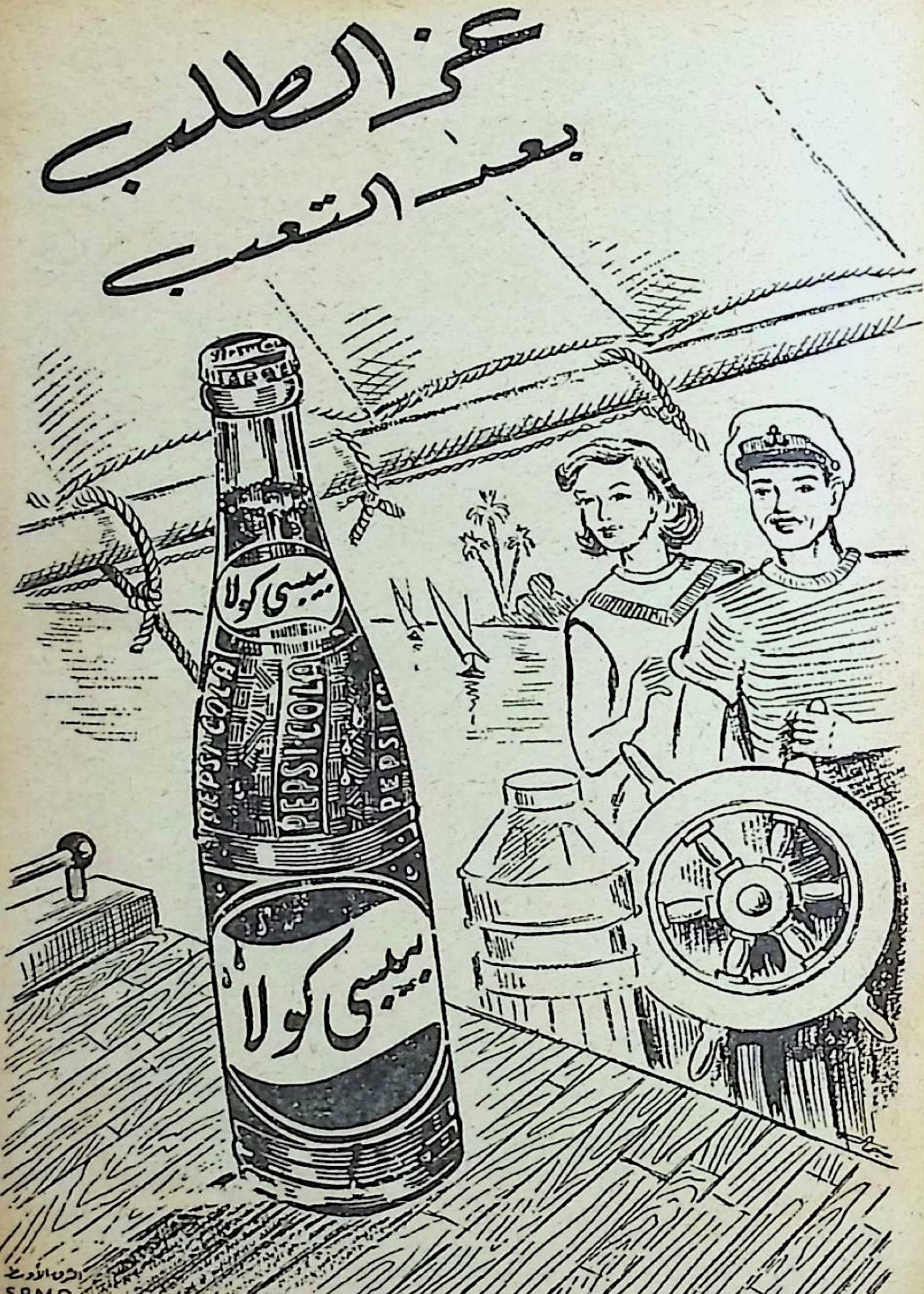
عز الطلب
بعد التعب
بيبسي كولا
PEPSI-COLA
بيبسي كولا
الشرق الأوسط
SPMO.
معبأة بالشركة الوطنية المصرية لتعبئة الزجاجات ش.م.م

محتويات الكتاب

صفحة	الموضوع

مقدمة العدد ٥
صبيحة : قصة مصرية للمحرر ... ٧
شـالى : قصة لجى دى موباسان ١٧
جى دى موباسان : قصة حياته وفنه ومأساته ... ٢٧
أبو الهول ٠٠ وعشيقته : أوسكار وايلد ٤٨
فن الاستمتاع بالحياة فى الشيخوخة : أندريه موروا ... ٥٣
كيف تستمتع بالحياة فى شبابك : جون مورجان ... ٧٩
الكوميديا الالهية : **رحلة الفردوس** : دانتى ٨٧
أوديب الملك : الملحمة الاغريقية الخالدة ، لسوفوكل ... ١٠١
مدام ريكامييه : ملهمة شاتوبريان وغريمة نابليون ... ١١٤
رسائل غرام خالدة : من جولييت درويه الى فيكتور هوجو ١٢١
الشيطان على الارض : قصة طويلة للفيلسوف المعاصر برتراند رسل ١٢٣
الصندوق الطائر : قصة للاطفال لهانز اندرسن ١٥١
اعرف نفسك : اختبار للشخصية ١٥٩
جرائم الغدر فى الحياة الزوجية : دائرة معارف الزواج ... ١٦٠
كيف تعامل أطفالك : للعالم النفسانى البروفيسور جولدنسن ١٦٥
الحياة فى موسكو : هارولد لايكوك ١٦٩

كتابى

الخامس عشر

.. وكانت الصورة تمثل حسناء رائعة واضطجعت على أريكة من الأرجوان، يتألق حولها لألاء من ربيع الحياة الدافئ، وتحتفظ أطرافها الدقيقة بمسحة الطفولة الغضة - حتى لقد قدر النقاد سنها بما لا يزيد عن السادسة عشرة ! - ومن نظراتها وسماتها كان يبدو كأن غلالة من البراءة الساذجة تغلفها، وتحميها !

ترى من تكون، هذه العذراء المجهولة ذات المحيا النبيل ؟..

هل صحيح ما تهمس به الشائعات من أن «نموذج» تلك الصورة التى بهرت العيون، فتاة تحمل اسما من أعرق الأسماء فى مصر، ومن أكرم أسرات «جاردن ستى» ؟.. ثم هل صحيح أنها قد أباحت للرسام الشاب أن يتخذها نموذجا لصورته، بغير أن تكشف له حقيقة اسمها ؟

ترى من هى ؟

(من قصة «صبيحة»، احدى قصص هذا العدد)